ما رأيكم في شكلي الآن؟

رندة عبد الفتاح

جائزة الكتاب المميز للناشئة بأستراليا

مكتبة
٣١٥

رندة عبد الفتاح

ما رأيكم في شكلي الآن؟

ترجمة

زوينة آل توية

مكتبة | 315

telegram @ktabpdf

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING

مؤسسة قطر
Qatar Foundation

مكتبة أحمد ٢٠١٨١١٢٦

أتقدَّم بجزيل الشكر إلى «شيلا درَموند»؛ لجهدها وحماسها وابتساماتها.
كما أشكر «ماريون ليويد»؛ لدعمها ولِفهمها المخلِص لسبب تأليفي هذا الكتاب.

الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٢
دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٢، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

Does My Head Look Big in This?
First published in English by Scholastic Limited
Copyright © Randa Abdel-Fattah, 2005

حقوق النشر © رندة عبد الفتاح ٢٠٠٥
حقوق نشر الترجمة © زوينة آل توية ٢٠١٢

جميع حقوق الطبع محفوظة
© دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر ٢٠١٢

الترقيم الدولي: 9789992142578

Printed in Great Britain by Clays Ltd, St Ives plc

إلى أمي وأبي؛ لثقتهما بي.

إلى أختي ندى؛ لتشجيعها لي.

إلى زوجي إبراهيم؛ لدعمه لي.

(١)

داهمتني الفكرة بينما كنت أتمرَّن على جهاز المشي الرياضي في البيت، وأشاهد حلقة من مسلسل «فريندز» تُعرَض للمرة التسعين.

إنه ذلك المشهد الذي ترتدي فيه «جنيفر أنيستون» ثوبَ عروسٍ بشعًا في حفل زفاف صديقها السابق. الكل يهزأ منها وتودُّ لو تهرب وتختبئ، ثم فجأةً تواتيها الشجاعة لتقفز فوق المنصَّة وتغني أغنيةً ما، اسمها «كوباكابانا»، أيًّا ما يكون معناها. أقول لكم إن هذا المزيج من الحماسة والقوة والاقتناع هو ما جرى في عروقي لحظتها. ضغطت زرَّ الإيقاف للطوارئ، ووقفتُ ببنطالي «الأديداس» القصير والـ«تي شيرت» الذي يحمل صورة «ويني ذا بو»، مأخوذةً تمامًا بذلك المشهد. كان ذلك أشبه بأن أخطو إلى خارج غرفة، مغلقةً الباب ورائي؛ لأخطو إلى غرفة أخرى. من لحظة واحدة لم يكن الأمر على بالي مطلقًا، ولكن الآن، وبعد أن تدفقت الشجاعة في داخلي، شعرت بأن الأمر صائب بشكل لا يُصدق.

كنتُ مستعدةً لارتداء الحجاب.

ذلك صحيح. «ريتشل» في «فريندز» هي التي ألهمتني. سوف يعقد الشيوخ مؤتمرات طوارئ لهذا السبب.

كان ذلك في الرابعة وثلاثين دقيقة بعد ظهر الأمس. إنها الآن الثالثة وعشرون دقيقة صباحًا، وأنا متمدِّدة فوق السرير، أحاول فهم ما إذا كنت مستعدةً حقًّا للمُضي في قراري، بينما أشاهد شخصًا في التلفزيون يحاول إقناعي أنني أستطيع - بتسعة وأربعين دولارًا وتسعةٍ وتسعين سنتًا - شراء فتَّاحة علب قادرة على تقطيع البطيخ.

لا أستطيع النوم من ضغط فكرة ما إذا كنت أمتلك الجرأة لفعل ذلك؛ أن أرتدي الحجاب، غطاء الرأس، طوال الوقت. «حجاب بدوام كامل»؛ هو ما أُطلقه أنا وصديقاتي المسلمات على الفتيات اللاتي يرتدين الحجاب طوال الوقت، وهذا يعني أن ترتديه الفتاة عندما تكون في حضرة ذكورٍ ليسوا من أفراد أسرتها الصغيرة. «حجاب بدوام جزئي»؛ مثلي، نرتدي الحجاب كجزء من زيِّنا في المدرسة الإسلامية أو حينما نرتاد المسجد.

بقيت أربعة أيام من إجازتي المدرسية. أربعة أيام لأقرر ما إذا كنت سأبدأ الفصل الثالث في مدرسة «مكلينز جرامر» فعلًا بحجاب بدوام كامل أم لا. ينبغي أن تعرفوا الآن أن فكرة دخولي المدرسة مرتدية الحجاب تجعل شعر أنفي ينتصب.

وفي هذه المرحلة ربما ينبغي أن تعرفوا أيضًا أن اسمي أمل محمد نصر الله عبد الحكيم، يمكنكم أن تشكروا أبي وجدي لأبي وجدي الأكبر على هذا. نعتتني المعلمات بالبطيئة في الروضة؛ لأنني كنت آخر طفلة تتعلم أن تتهجى اسمها.

بابا طبيب وماما طبيبة أسنان. غريبا الأطوار، وقعا في الحب في أثناء سباتهما الشتوي في مكتبة جامعة «موناش» الطبية. وُلد كلاهما في بيت لحم، لكنْ لعائلاتهما اثنان وخمسون عامًا في أستراليا يحملون الجنسية الأسترالية.

بابا اسمه محمد. يقود سيارة مكشوفة لونها أحمر معدني؛ لأنه واقع تحت تأثير وهم مُضلِّل؛ أنه لا يزال شابًّا ومُسايرًا للموضة. إنه يفشل في تذكر أن علامات الصلع المبكر بدأت تظهر عليه، وأن استريو سيارته يبث إما أوبرا إيطالية وإما أغنية شعبية فلسطينية بصخب. ماما اسمها جميلة، وهي صاخبة ونشيطة، تحب الضحك، ونظيفة لدرجة الوسوسة. هي من النوع الذي يرش مقابض الأبواب ويمسحها، وينفض الغبار عن كبلات التوصيل، ويخلو غسيلها في الحقيقة من البقع، حتى الخرق الموجودة في الخزانة تحت الحوض، وتعيد لفَّ محارم الحمام الورقية في أشكال مثلثة ظريفة حتى عندما لا يكون في ضيافتنا أحد. ماذا قلت لكم؟ وسوسة!

باستثناء صراعاتنا اليومية حول حالة غرفة نومي، ومليون عمل روتيني مجنون تفرضه على بابا وعليَّ، عليه أن يصعد السلَّم ويمسح غبارًا لا وجود له من فوق المصابيح كل شهر، أخشى أنني لا أستطيع القول ـ وأنا محرجة جدًّا حقيقة من ذلك ـ أن بيننا علاقة الكره التقليدية المعروفة بين الأم وابنتها المراهقة. في الواقع، التسوُّق يوثِّق علاقتنا، وأستطيع في أثنائه التحدث معها حول الأشياء الخاصة وأتآمر معها على بابا. أظن أن علاقتنا تسوء لمجرد أنني مراهقة، لكنني أستطيع القول على الأقل إن هناك دائمًا طرقًا لإجراء حوار معها، كترك فتات ميكروسكوبية فوق مائدة المطبخ، أو فوطة على أرضية الحمَّام، أو ترك الشباك مفتوحًا للذباب. هذه الأشياء الصغيرة هي ما تساعدني على التخلص من غضبي وعلى محاولة إلقاء اللوم على ماما في كل مشكلة تواجهني في حياتي. إنها، مع ذلك، قاعدة: ينبغي أن يحظى كل مراهق بفرصة قول «إنكِ تدمِّرين حياتي» لأمِّه أربع مرات في الأسبوع على الأقل.

هل ذكرتُ هوس ماما بالحِمية؟ أو، كما تدعوه، «اكتساب نظام الحياة

الصحي». كانت حافظة غدائي في المدرسة الابتدائية تمتلئ بـ٩٧٪ من الشوفان وقطع الفواكه مع الزبادي الخالي الدسم، وأطباق من التبُّولة الخالية من الزيت، أي بقدونس بالبرغل. مقزِّز! كما أظن أنها كانت تتناول عصيرًا من عيدان القمح الخضراء وهي حامل فيَّ، ومررته لي عبر الأوردة وأنا جنين. تحاول ماما فقدان عشرة كيلو جرامات في السنوات العشر الأخيرة، وتسحب بابا معها في كل مرحلة: حمية الموز لثمانية أيام، حمية الشوربة، حمية منخفضة الكربوهيدرات، حمية مرتفعة الكربوهيدرات؛ حتى إنها جعلته يحضر معها مقابلاتها مع جماعة محاربة السمنة. بعد زيارة واحدة، أقسم بابا ألا يعود إلى المقابلة أبدًا. يبدو أن موضوع النقاش كان «كيف تتعامل مع شريكك الذي يحقر من مجهوداتك في فقدان الوزن».

ماما تمارس حاليًّا رياضة المشي حول البناية بعد العشاء مع بابا. تحاول إقناعي بمشاركتهما، ولكن هيهات أن يراني أحدهم مع كهلين يمارسان رياضة المشي في ملابس رياضية فسفورية منتفخة كالباراشوت على طول شارع «ريفرزديل».

نسكن في «كامبِرول»؛ إحدى ضواحي «مِلبْرن» الأنيقة. شوارع جميلة مشجَّرة، بيوت على الطراز المعماري الفِدرالي؛ مروج أمامية مشذبة، وطرقات لولبية. انتقلنا إلى هنا العام الماضي لأن بابا بدأ العمل في عيادة في ضاحية قريبة من هنا، وماما ترغب في العيش قريبًا نوعًا ما من المدينة. سكنَّا قبل ذلك في «دونفل»؛ وهي ضاحية مورقة جدًّا وكثيرة التلال، تمتلئ بالمساحات الخضراء والبوم الناعب في الليل. يوجد هناك عدد أكبر من الأستراليين بخلفيات عرقية مختلفة، لذلك لا تبدو مسألة كبيرة أن تكون في عائلة مسلمة هناك. شارعنا في «دونفل» كان كوكتيلًا. هناك عائلات «تشونج»، «وبابادوبولوز»، و«ويلسون»، و«سلافيك»، و«يانج»، ونحن؛ عائلة عبد الحكيم.

شارعنا في «كامبرِوِل» مختلف. عندنا عائلات: «تيلر»، و«جون»، والسيدة «فاسِلي». وليست لديَّ فكرة عمَّن تكون العائلات الأخرى. الكل منعزل تقريبًا.

أنا أسترالية ـ فلسطينية مسلمة. هذا يعني أنني وُلدت أسترالية ومقطَّعة بين وصلات هوية محيِّرة على نحو جادٍّ. إنني في الصف الحادي عشر، وخلال أربعة أيام سألتحق بأول يوم لي في الفصل الثالث في مدرسة «مكلينز». تجربتي «الجنيفر ـ أنيستونية» لم تكن لتخرج في وقت أسوأ من هذا. أعني أن كوني عربية مسلمة في مدرسة جديدة من دون حجاب صعب بما فيه الكفاية، أما إضافة الحجاب لكل هذا فمحض جنون.

(٢)

أنا مرعوبة، ولكنني أحس في نفس الوقت أن شغفي واقتناعي بالإسلام يتفجَّران داخلي، وأرغب في أن أثبت لنفسي أنني قوية على نحوٍ يكفي لأن أرتدي علامة تدل على ديني. أعتقد أنها ستجعلني أحس أني قريبة جدًّا من الله. إنه لأمر قاسٍ جدًّا أن تمشي والناس يحدِّقون في رأسك المغطى بما يشبه البامبرز، ولا تشعرين برضا عنَ نفسك ـ لو أنني أتمكَّن من اجتياز النظرات المحدِّقة والتعليقات مرفوعة الرأس! ذلك ما يحدث عندما يضجُّ داخلك ذاك الإحساس الدافئ وتبتسمين لنفسك، مُدركةً أن الله يراك، مدركةً أنه يعرف أنك تحاولين أن تكوني قوية لإرضائه. يبدو الأمر وكأنكما تتشاركان في سر ما وثمَّة شيء خاص ودافئ واستثنائي يحدث، ولا أحد في العالم يدري عنه؛ لأنه تجربتك وحدك؛ صداقتك الشخصية مع خالقك. أعتقد أنني حين لا أرتدي الحجاب أشعر كأني أفقد شيئًا. أحس أنني محرومة من ذلك الرباط الخاص.

أنا مستعدة للخطوة التالية، متأكدة من ذلك، لكنني ما زلت متوترة. آخ! هناك ملايين الأصوات المختلفة في رأسي تخيفني.

ولكن لماذا أخاف؟ وبما أن أكثر أفكاري وضوحًا تكون عندما أضع القوائم.

أعتقد أنني سأعد هذه القائمة كالتالي:

١ ـ أمور الدين، الكتب المقدَّسة، الأشياء المقدسة: أؤمن بالأوامر الإلهية التي يتضمنها القرآن. يأمر الله الرجال والنساء أن يلبسوا ويتصرفوا باحتشام. وبالطريقة التي أراها، أُفضِّل اتباع ما يمليه عليَّ الله من زيٍّ على أن أتبع ما تمليه عليَّ شمطاء قبيحة تُسمِّر بشرتها في صالون تسمير في «ميلان»، وتواصل حياتها حسب نظرية خدمة المصالح الذاتية التي تقول بأن الأقل هو الأفضل حين يتعلق الأمر بملابس المرأة.

٢ ـ حسنٌ، ممتاز، إنني أتغطى باحتشام.

٣ ـ والآن الشيء الآخر، وهو في الحقيقة بسيط جدًّا، على الرغم من أنني لن أتخلى عن ذوقي في الأزياء ـ من الأفضل أن تصدقوا أنني لن أتوقف عن رحلات التسوق الجنونية من محلات «بورتمانز» و«سبورتس جيرل» ـ إلا أنني أُصاب بالغثيان من جعل جسمي هاجسًا، ومما سيعتقد الشباب عن حجم نهديَّ وساقيَّ، وعن حجم كتفي بالنسبة إلى حجم فخذي. وحياة كل شيء جميل ومقدس لقد مللت من القلق بشأن ما سيعتقده الناس إذا زاد وزني كيلو جرامًا واحدًا، أو إذا ظهرت لي بثور. أقصد، أن حجرة اللقاء المدرسية يوم الاثنين يمكن أن تتسبب في توتر مهول. هناك فتاة تُدعى «تِيَا تاموس»، من الصف الحادي عشر، التي قد تجري حفلة على شرفك إذا ما ظهرت لك بثور. يمكنك من غير ريب أن تستدعي بيت الجنازات؛ لأنها تجعل الأمر يبدو كأنه من الأفضل لك أن تموتي على أن تمشي وعلى وجهك بثرة واحدة. وهناك بعض الشباب

لديهم تلك العادة الصباحية المقززة يوم الاثنين عندما يتحدثون عن الأفلام الإباحية ـ التي يشاهدونها في عطلة نهاية الأسبوع ـ بصوت عالٍ حتى نسمعهم نحن البنات. يا لهم من أوغاد! وبحسبهم، فإن الفتيات البدينات ينبغي نفيهن، وعلى الفتيات أن يتضورن جوعًا وأن تكون جراحة تكبير الثدي واجبًا مدنيًا. بعدها ننخرط جميعًا في ذلك العراك الكبير حول ضرورة احترام الفتيات بسبب عقولهن وليس بسبب أحجام حمَّالات صدورهن. وهذا ما يجعلهم يتداولون بخاخًا للربو فيما بينهم لأنهم يفقدون القدرة على التنفس من كثرة ضحكهم علينا.

٤ ـ عند هذه النقطة، ينبغي أن أقول إن هذه لم تعد قائمة، وإنني يقينًا وحقًّا أكتب مقالًا.

لا أستطيع أن أتخيَّل ما سيقوله زملائي في الصف إذا ما دخلت مرتدية الحجاب. يا إلهي، هل يعطي هذا بعدًا آخر لحلم دخول الصف عارية؟! إلا في حالتي، إنني لا أدخل عارية، أنا أدخل متغطية تمامًا، ومع ذلك، ما زلت أتصبَّب عرقًا.

وعلى الرغم من ذلك، ينبغي أن أفكر، ألست معتادة على أن أكون الشخص المختلف؟! التحقت بمدرسة ابتدائية كاثوليكية؛ لأننا نقطن بعيدًا جدًّا عن المدرسة الإسلامية، وليس لدى والديَّ الوقت لقطع هذه المسافة مرتين في اليوم. إضافةً إلى أن كل تلك الأشياء من قبيل: «أحبَّ جيرانك»، و«احترم والديك»، و«النظافة من الإيمان» هي في الأساس كل ما كانوا سيعلمونني إياه في مادة التربية الدينية في المدرسة الإسلامية على أيَّة حال. لذلك كنت الطفلة المسلمة الوحيدة التي انتقلت من المرحلة

الدراسية الأولى لتلتحق بالصف السادس في مدرسة القديسة «ماري» الطاهرة، حيث كان علينا أن ننشد الصلاة الربانية، نطلب الخلاص من عيسى كل صباح في الطابور. ليس في ذلك أي خطأ؛ إذا كنت كاثوليكيًّا، أنشد بصوت عالٍ قدر ما تريد مهما كلَّف الأمر. عندما كنت في المدرسة الابتدائية، كان ارتداء جوارب مختلفة الألوان كافيًا لمضايقتي. وإذن، إذا كنت لا تأكل لحم الخنزير، ومُوسِيًّا تحتفل بالعيد (موسيٌّ لقب ساخر يُطلقونه على المسلمين بالمناسبة) واسمك غير قابل للنطق ولك أمٌّ تقلُّك من المدرسة مرتديةً الحجاب ونظارات «جوتشي» الشمسية، وتقود سيارة على مصدِّها ملصق «الإسلام يعني السلام»، فإن وجودًا هادئًا لك يبدو مستحيلًا.

ـ يا أمل، لماذا يبدو العطس وكأنه حرفٌ في اللغة العربية؟

ـ يا أمل، تريدين بطاطا مقليَّة مع الجبن ولحم الخنزير المدخَّن؟

ـ يا أمل، حيوانك الأليف جمل أليس كذلك؟

انسَ سلامة عقلك إذا كنت الوحيد الذي يجلس في آخر الكنيسة بإذن من المُعلم في أثناء الصلاة. حسنٌ، ليس في كل وقت. أتذكر عندما حضرت مرَّةً طقس الاعتراف: كنت في الصف الرابع. كنت واقفة في طابور مع صفي لتناول العشاء الرباني. لم يكن من المفترض أن أكون في الطابور، لكنني لم أشأ الجلوس وحيدة في المقعد الخلفي حتى نهاية الصلاة. أخذ يتبع أحدنا الآخر بينما كان الأخ «آندرو» يقدِّم لنا العشاء الرباني. كنت أريد أن أتذوَّق الخبز المقدَّس. أخذت مقدارًا قليلًا وبصقت الباقي في يديَّ. لا أعرف ماذا كنت أتوقَّع. قطعة فاخرة من خبز فرنسي؟ أفلتُّ البقايا الممضوغة في جيب سترتي وتقدَّمت في الطابور الواقف خارج صندوق الاعتراف.

كانت المُعلمة «بيوجارني» أكثر انهماكًا ـ بتوبيخ «كريس باركلي» لسؤاله

الأخ «آندرو» عمَّا إذا كان الخبز مخصص للحمية أم لا ـ من أن تلاحظ طفلة مسلمة تقف في الطابور من أجل طقس الاعتراف. عندما حان دوري، خطوت نحو كرسي الاعتراف وجلست على المقعد.

فُتِحت الستارة وسمعت صوتًا لطيفًا وناعمًا:

ـ ما اعترافك يا صغيرتي؟

تجهَّمت. سيعلن الكاهن أني مهرطقة، والداي سينعتانني بالخائنة، وستعاقبني المُعلمة «بيوجارني». لم أعرف ماذا أقول. أقصد، بماذا يعترف مسلم لكاهن؟ فكَّرت فقط في شيء واحد؛ أنه في كل مرة يناديني «كريس باركلي» بـ«وُج»(*) أو يضايقني بشأن حجاب ماما، أصلي داعيةً الله أن يُسقط شجرة فوق رأسه الغبي.

سألني الكاهن مرة أخرى:

ـ ما اعترافك يا صغيرتي؟

همست:

ـ أنا مُسلمة.

ـ باسم الصليب والمسيح ومريم العذراء!

كانت تلك أول وآخر مشاركة لي في صلاة الكنيسة.

لا تفهموني خطأ. لست أحد أولئك الأطفال الذين يعانون من «متلازمة» الطفولة المشوَّشة. نعم، بالتأكيد، لا يهم كم مرة يخبرني والداي أن أفخر

(*) كلمة عامية عنصرية تُقال في الإنجليزية الأسترالية للشخص بهدف الانتقاص من قدره إذا كان مسلمًا أو أصوله من الشرق الأوسط أو آسيا أو جنوب أوروبا. جمعها وُجز. (م).

بهويتي، فهناك دائمًا أحد ما في ملعب الأطفال يأمر «الوُجز» بالعودة إلى بلادهم، ولكن كما تبيَّن، فقد كنت مثيرة للشفقة في الرياضة، ومهووسة بالفرق الموسيقية الشبابية التي يكتبون عنها في مجلة «دولي»، لذلك فهناك طرق أخرى كافية لجعلي أشعر كأني حمقاء. تعلَّمت كيف أكبح هويتي كمُسلمة، وتمكنت تقريبًا من إيجاد حياة مدرسية ابتدائية ممتعة من دون أن يعرف أحدهم ديني.

كانت «الهداية الإسلامية» هي مدرستي من الصف السابع وحتى العاشر، حيث يلقنون الطلاب ويُعلِّمونهم كيف ينشئون «جيتو» مسلمًا! حيث يتدربون مع تنظيم القاعدة في المخيمات المدرسية وينشدون أناشيد وطنية من الشرق الأوسط! لا إني أكذب!

لا أستطيع التوقف عن التفكير في مدرسة الهداية ومشتاقة جدًّا إلى صديقاتي ومعلماتي. مشتاقة إلى مدرسة أتعلَّم فيها كل ما يتعلمه أي تلميذ في أي مدرسة في «ملبرن»، وإلى مدرسة أستطيع الصلاة فيها والصوم وارتداء الحجاب والتوافق مع كوني مراهقة من دون الحاجة إلى الإجابة عن أسئلة، أو الدفاع عن نفسي ضد عناوين الأخبار، حيث يمكنني أن أنشد «تقدمي يا أستراليا الجميلة» في الطابور كل صباح، وأُعاقَب إذا لم آخذ النشيد على محمل الجد، حيث يمكنني التعامل مع ذعر البلوغ والمراهقة والإعجاب بالطرف الآخر وممارسة حميتي الغذائية من دون أن أُلقَّب بالإرهابية، أو المتطرفة، أو الراديكالية، أو أي كلمة أخرى تنتهي بـ«ية».

الحجاب في مدرسة الهداية جزء من الزي المدرسي، لكنني تعودت على خلعه فور خروجي من بوابة المدرسة؛ لأنني، يا إلهي! يا إلهي! أحتاج إلى كثير من الشجاعة إذا صعدت إلى الأتوبيس مرتدية الحجاب. في نهاية

اليوم المدرسي تمتلئ القطارات تمامًا بالتلاميذ. أستطيع الإبقاء على ارتدائه إذا ما ركبت مع مجموعة من تلميذات مدرسة الهداية؛ لأنني لن أشعر أنني مكشوفة تمامًا. لكنَّ المشكلة أنه يجب عليَّ تبديل القطارات حتى أصل إلى البيت ويستحيل أن تواتيني الشجاعة لقطع المسافة وحدي بالحجاب.

عندما بدأت الدراسة في مدرسة الهداية كرهت ارتداء الحجاب. وجدته مثيرًا للحكَّة، وكرهت جدًّا ارتداءه في أثناء الرياضة. اعتقدت أيضًا أنه يبدو متهدِّلا عليَّ، وكثيرًا ما كنت أزوِّق غرَّتي في الأسبوعين الأولين، وأجعلها تبرز من الأمام؛ حتى يعرف كل شخص أن شعري جميل. قولوا إني كنت مغرورة. لكنني تمكنت فيما بعد من التعرف على الأطفال الآخرين، وما عدت أشعر بالغربة. تعوَّدت على الحجاب والتقيت بفتيات يرتدينه طوال الوقت خارج المدرسة ـ عن طيب خاطر ـ وبدأت أحترم شجاعتهن بصدق. حتى إنني كنت غيورة بعض الشيء؛ لأنني كنت أرميه فور خروجي من مبنى المدرسة، بينما كنَّ هنَّ يتجهن بهدوء وفخر إلى القطار الممتلئ بالتلاميذ من كل المدارس من دون أدنى خوف أو شك. بَدوْن في سلام مع هويتهن، وكل شخص يعرفهن ويحترمهن وفقًا لشروطهن.

أكره حقيقة أنه كان عليَّ ترك مدرسة الهداية، لكن صفوفها تصل إلى الصف العاشر فقط؛ لأنها لا تمتلك التمويل الكافي لتقديم الصفين الحادي عشر والثاني عشر. انتقلت صديقتاي المقربتان، «ليلى أوكولجن» و«ياسمين خان»، إلى مدرسة حكومية قريبة من «كوبرج» حيث تقطنان. توسَّلت إلى والديَّ أن يسمحا لي بالذهاب مع صديقتيَّ، لكن ماما وبابا أصرَّا على التحاقي بمدرسة خاصة. جرَّبت كل شيء. في البداية أخذت أتملَّقهما بتحضير القهوة لهما بعد العشاء، وبعرض تحضير المائدة قبل أن تجد أمي الفرصة لتطلب مني ذلك، وبالسماح لهما بمشاهدة قناة «إس بي إس» الوثائقية، في الوقت

الذي أرغب فيه أن أشاهد «بيج برذر». ذلك لم يُجدِ نفعًا. لذلك تحوَّلتُ إلى السياسة، وأخذتُ أتحدث بطريقة مسرحية، وكيف أنهم بهذه الطريقة يساعدون في استمرار «قبضة البرجوازية على التعليم؛ مما يؤدي إلى فروق أرستقراطية بين الطبقات الاجتماعية» (سمعت هذا في فيلم وثائقي على قناة «إس بي إس») لا عطف ولا ضمير اجتماعي. لقد سخرا مني وأعطياني كومة من الكتيبات التي تتحدث عن المدرسة. أي عمل مثير للغثيان ذاك! كيف من الممكن أن تتحمس لكتيب يحمل عبارة «هدفنا الأساسي هو تشكيل التلاميذ وفقًا لقيم المدرسة وتقاليدها».

كلما فكَّرت في قرار والديَّ الساديِّ بإرسالي إلى مدرسة «مكلينز»، زاد تساؤلي عما لو كنت أُضمِر ميولًا ماسوشيةً حادة. لا أصدِّق أنني أعتزم في الواقع ارتداء الحجاب في مدرسة متعجرفة، حيث محكوم عليكِ جديًّا أن تصنَّفي ضمن قائمة غير المتحضِّرين إذا ما تأخرتِ عن الاطلاع على عدد واحد من مجلة «كليو» للموضة. أقصد، صباح الخير بالليل! ما الذي أفعله بكوني تقية وما إلى ذلك، بينما أعرف أن فرصتي أكبر في ألا يلاحظني أحد إذا ارتديت بغرابة مثل الممثلة «كيلي أوزبورن» عنها إذا غطيت شعري؟

لا أستطيع النوم. ماذا سيقول آدم؟

(آدم؟ ومن الذي يهتم لآدم؟)

لست أنا. لا. لا. لا.

(ربما سيضحك.)

هذا ليس عدلًا. إنه ليس كذلك.

كان ينبغي أن أخضع لتجربة أداء لفيلم «الورد أوف ذي رينجز» (مملكة الخواتم). إنني حقًّا أجعل الرؤوس تدور الليلة كما يفعل «جولوم».

أرجوك يا الله دعني أنم الآن. وإلا سأستيقظ وتحت عينيَّ ٧ كيلو قطران أسود، ولأنني نسيت كريم العين في بيت ياسمين الأسبوع الماضي، فمن المستحيل أن ينجح كريم الأساس في إخفاء القطران.

(٣)

أقرِّر في اليوم التالي كتابة قائمة رسمية عنوانها: «أرتدي أو لا أرتدي». سأكتب في العمود الأيسر قائمة بجميع الأشخاص الذين أعرف أنهم لن يزعجوني لارتدائي الحجاب، وفي الجانب الأيمن سأُعدِّد جميع الأشخاص الذين أظن أنهم قد يسيؤون معاملتي، أو يحدِّقون فيَّ بعنف، أو ينمون عليَّ من وراء ظهري.

وهذه هي النتيجة:

قائمة أرتدي أو لا أرتدي

☺ الموافقون ☺

١ ـ ماما وبابا.

٢ ـ ليلى وعائلتها، (باستثناء أخيها لأنني لا أعير اهتمامًا لما سيعتقد على أيّة حال.)

٣ ـ ياسمين وعائلتها.

٤ ـ «سيمون» و«إيلين».

٥ ـ «سمانثا» ابنة خالي.

٦ ـ مستر «بيرز».

٧ ـ الراهبات.

٨ ـ اليهوديات الأرثوذكسيات اللاتي يرتدين الشعر المستعار.

٩ ـ الرهبان والمتدينون.

١٠ ـ الصلعاوات.

١١ ـ الهيبيون الذين لا يعنيهم ما ترتديه طالما هناك أمان ووئام ورزق.

☹ غير الموافقين ☹

١ ـ كل شخص في «مكلينز» (خصوصًا «تيا تامـوس»، و«كلير فوستر»، و«ريتا ماسون»).

٢ ـ صاحب محل بيع الحليب الواقع في آخر الشارع.

٣ ـ المحاسبون والمحاسِبات في محلات «سيف واي»، «كولز»، وجميع محلات الطعام الطازج.

٤ ـ الخال «جو» والخالة «ماندي».

٥ ـ مندوب المبيعات النشيط في محل «سانيتي».

٦ ـ جميع مندوبي المبيعات النشيطين.

٧ ـ طلاب الجامعة مستقبلًا وأعضاء هيئتها التدريسية.

٨ ـ النساويون المتشددون الذين لا يدركون أنني أنا مَن تمارس حقها في الاختيار.

٩ ـ مديرة المدرسة مس «والش».

١٠ ـ العراة الذين ينزعجون ممن يرتدي ملابسه كاملة.

١١ ـ جيراننا، «خصوصًا» السيدة «فاسِلي».

١٢ ـ الأشخاص الذين يقدِّرون القماش الجيد.

١٣ ـ العراة؛ (فإذا كانوا يؤمنون بالحق في خلع الملابس كلها، فهم بالتأكيد يؤمنون بالحق في ارتدائها كلها!)

١٢ ـ الأشخاص الذين سيجرون معي مقابلة حين أتقدَّم بطلب وظيفة يومًا ما.

١٣ ـ آدم (رجاءً ليس آدم!).

مكتبة أحمد

حسنٌ، انتهيت.

والآن، بما أن اليوم ليس عطلة، فالبيت بأكمله لي وحدي لأن والديَّ في العمل. لذلك أرفع صوت الاستريو، وألقي بكل ما في خزانتي من ملابس على أريكة غرفة المعيشة. أسحب المرآة الطويلة من فوق جدار غرفتي وأسندها على الكرسي الوثير. ثمَّ أجرِّب كل قطعة ثوب لديَّ، وأخلط وأنسِّق جميع ملابسي مع أوشحة الرأس الملونة المناسبة، بينما أرقص على أغنية لـ«جنيفر لوبيز». أجرِّب لفَّات مختلفة بالأوشحة، وأحاول تحديد الشكل المناسب لوجهي. بعد ثلاث ساعات يصيبني الإنهاك فأقع فوق كومة الثياب، وأتصل بليلى.

أعرف ليلى منذ أن كنا في الصف السابع. بالنسبة إليَّ، تبدو ليلى مثل طفل معجزة، إنها لا تحصل في أي شيء على أقل من امتياز أبدًا، وإذا حدث فإنها قد تُنقَل إلى المستشفى بسبب انهيار عصبي حاد. وهي مصرة ـ بشكل هيستيري ـ على أن تصبح محامية، ومشكلتها الوحيدة أن أهلها مهتمون أكثر بتزويجها على أن تكمل دراستها.

ليلى ترتدي الحجاب طوال الوقت. كانت في الصف السابع عندما أتت إلى المدرسة ذات يوم، جلست بقربي أنا وياسمين في الصف، وأخبرتنا أنها قرَّرت ارتداءه. لم نستغرب؛ لأنها كانت دائمًا أكثر تدينًا

منَّا، وهي أكثر شجاعة من أي شخص أعرفه. إذا كنَّا في الخارج وألقى أحدهم تعليقًا عليها فإن لسانها يطلق ردًّا لاذعًا قبل أن يجد الشخص فرصة لينهي جملته. لذا، وبطبيعة الحال، هي أول شخص أتصل به من أجل حديث منعش.

تقول لي بمجرد أن نقول مرحبًا:

ـ أنا ضجِرة، لا شيء في التلفزيون. إما أنني عالقة في مشاهدة أوبرا تهدي عطلات مجانية للمشاهدين، أو تتحدث بحماس عن نادي الكِتاب الذي أسسته في برنامجها، وإما أشاهد دكتور «فِل» يخبرني لماذا يساعد الجزر على الثقة بالنفس.

ـ خمِّني ماذا؟

ـ ماذا؟

ـ أفكر أن أتخذ دوامًا كاملًا.

ـ حصلت على وظيفة؟

ـ ليس ذلك الدوام الكامل. إنه الدوام الكامل الآخر.

ـ تمزحين!

ـ نعم، أقصد، أنني لم أقرر تمامًا بعد، لكنني أفكر في الأمر بجديَّة. سأخبر ماما أن تأخذني إلى محلات «تشادستن» الليلة وأنا مرتدية الحجاب. ولنرَ كيف سيمضي الأمر معي.

ـ لا أصدِّق! سنرتديه معًا الآن؟! كم يبدو ذلك رائعًا!

نتحدث عن برنامج «ذي برايس إز رايت»، ثم أُنهي المكالمة وأتصل

ياسمين. عندما نخرج تحب ياسمين أن تسمي نفسها «جازمين»؛ لأنها تعتقد أنه يبدو أكثر غرابةً وغموضًا. وعندما أشير إلى أن كلمة «ياسمين» هي التي تعد عادةً غريبة وغامضة، تطلب مني أن أخرس.

والد ياسمين باكستاني وأمُّها بريطانية. تحوَّلت أمُّها إلى الإسلام عندما كانت طالبة تاريخ وعلم اجتماع في الجامعة في لندن. هناك التقت بوالد ياسمين.

لياسمين شعر مجعَّد وطويل يمتد حتى خصرها. في مدرسة الهداية كانت دائمًا تتورط عندما تتركه متدليًا من تحت حجابها. المشكلة أنها مهووسة بتمليسه. أحيانًا عندما أجلس بقربها أستطيع أن أتبيَّن الرائحة المميزة لكريم تمليس الشعر وشامبو «بانتين».

إجابة ياسمين الأولى أنني أخطأت في السيناريو الذي وضعته لنفسي:

ـ كيف تجرُئين على التفكير في ارتدائه في مدرسة «مكلينز جرامر»؟

ـ نعم، حسنٌ، هذا ما يجعل القرار معلَّقًا.

ـ يا ربي! ما الذي تفعلينه بنفسك؟ ألا تكفي معاناتك مع اسم بطول الحروف الهجائية؟ تريدين أن يتساءل الناس عمَّا إذا كنت ستشجعين فريق ابن لادن أم لا؟ تشبَّثي بالهوية المجهولة يا بنت!

أعرف أن ياسمين تعبث وحسب، فأنفجر بالضحك:

ـ ماذا أقول؟ لا مكسب من دون ألم.

ـ لكن، هل أنت متأكدة؟

ـ لا.

ـ كيف ستعرفين أنك متأكدة؟

ـ لا أعرف... لديَّ حتى يوم الاثنين لأقرر.

ـ لماذا؟! تعرفين أنه لا توجد مدة زمنية لتقرري.

ـ نعم، حسنٌ، أعتقد أنه من الأفضل أن أبدأ مع بداية الفصل الدراسي. هذا سيجعل الأمور أقل تعقيدًا.

ـ حسنٌ، تعرفين أنني سأساندك مهما حدث. أعرف أن لديك الشجاعة. إذا قال لك أحد في المدرسة شيئًا قولي له أن يغرب عن وجهك.

ـ على كل حال، هذا يعني أنه علينا الذهاب للتسوق قريبًا لنشتري لكِ خزانة ملابس كاملة. الانهماك في المزج والتنسيق. ما رأيك؟

همم. تبدو كخطة مناسبة. عرض الأزياء الذي قمت به في البيت بعد الظهر منحني حوالي عشرة أطقم على الأكثر. وإذا ما قررت أن أرتدي الحجاب عليَّ أن أرتدي ملابس تغطي جسدي كاملًا باستثناء وجهي ويديَّ. إذن ذلك يعني تنُّورات أو بناطيل طويلة. عندي عدد ضخم من القمصان التحتية والقمصان القصيرة الأكمام، لكنني سأحتاج إلى مزيد من السُّترات القطنية والكتَّانية للخروج. شيء ما يخبرني أن مصروف جيبي لن يذهب إلى أسطوانات الـ«دي في دي» بعد الآن.

لاحقًا ذلك المساء، بعد مجيء والديَّ إلى البيت، ألزم غرفتي متظاهرةً بالانغماس في واجب الإجازة لمادة الكيمياء؛ حتى أتجنَّب تحضير المائدة للعشاء. أُخرج قائمة «أرتدي أو لا أرتدي»، وأراجع أسماء المرشحين. أضيف بعض الأشخاص إلى العمود الأيمن. وبعد تفكير أعمق أقرر أن مزاج سائق الأتوبيس المحلي، العكِر دومًا في الصباحات المدرسية

لن يريحني أن أرى على وجهه ابتسامة شامتة في ذوقي الجديد في الموضة، ولكني أعترف بأن هناك أولئك الذين أظن أنني استخففت بهم، ولذلك أحوِّل بعضهم من عمود إلى آخر. إنني فقط غير مقتنعة أن «لِي إن جي» في محل بيع الحليب يستحق أن يوضع في العمود الأيمن على افتراض أنه نصف أعمى ولن يلاحظني إذا ما مررت أمامه مرتدية مثل إحدى شخصيات «تَلِتَبيز».

بينما أُعدِّل في قائمتي، أسمع صوت أمي يصرخ:

ـ يا أمل! العشاء! تعالي وحضِّري المائدة!

عرفت أن سعادتي لن تطول!

ـ يلّا! كان معك اليوم بطوله وتنتظرين حتى نأتي لتذاكري؟ هل تظنين أنني حمقاء؟ يلّا!

على الرغم من أن والديَّ يتحدثان معي بالإنجليزية في الغالب، إلا أن هناك بعض الكلمات العربية يستخدمانها بالفطرة كجزء من مفردات حياتهما اليومية. عندما يكون والداي في مزاج عاطفي، يُسبِقان اسمي أحيانًا بـ«يا»، فيكون «يا أمل». وعندما كنت طفلة اعتقدت في الواقع أن اسمي «يا أمل».

وعندما أكون في مشكلة تُسقَط الـ«يا»، ويخاطبونني بـ«أمل» فقط. وليس ذلك خبرًا سارًّا.

في أثناء العشاء أخبر والديَّ أنني أفكر في ارتداء الحجاب، ولم أصدِّق عندما أخذا ينظران بعضهما إلى بعض بتوتر. كنت أتوقَّع رقصة تشجيعية في أرجاء الصالة، وليس وجهين يحدِّقان فيَّ بقلق.

ـ همم، هل تفضِّلان أن أثقب لساني وأضع عليه حلقًا عوضًا عن الحجاب؟

يقلِّب بابا نظراته في اتجاهي، وترشف ماما الصودا وعيناها مثبَّتتان على وجهي عن قصد، وكأنها تحاول التأكد إذا كنت أمزح.

ـ واو! ما كل هذا الحماس!

أدفع ببعض البطاطا المهروسة في صحني وأواصل صنع قلعة من البطاطا بحكِّ الشوكة فوق الصحن حتى ترفع ماما حاجبيها، محذرة إياي من إفساد طقم صحون العشاء. بدلًا من ذلك، أواصل نفث غضبي.

ـ لا أصدِّق أنكما غير سعيدين لأجلي! ظننت أنكما ستطيران من السعادة! هراء! قليل من الدعم سيكون جيدًا! إنكما تشجعانني دومًا على الصلاة أكثر من التحدث معي عن إيجاد «الروحانية» وما إلى ذلك، إذن لماذا لستما سعيدين لاتخاذي خطوة إضافية؟ مثلما فعلتِ يا ماما؟ هه؟!

يشيح بابا وجهه على نحو أخرق وهو يحك رأسه. تتنهد ماما وتميل ناحيتي وتأخذ يدي بين يديها:

ـ نحن فخوران بكِ، لكنه قرار كبير، يا حبيبتي، ولم تعودي في مدرسة الهداية. إنها بيئة مختلفة في مدرسة «مكلينز»، بل إن ارتداء الحجاب قد يكون ممنوعًا.

ـ نعم صحيح! كيف يمنعونني؟ الأمر يعود لي أنا إذا أريد أم لا!

أتصرَّف كما لو أنني قد اتخذت القرار. لم أفعل بعد، لكن فكرة أن يحرمني أحد ما من اختياري تستحثُّ شيئًا بداخلي. سمُّوه ما تشاؤون؛ تحدٍّ، عناد أحمق. إنني أتميَّز غيظًا عندما أفكر أنه لا حقَّ لي في الاختيار.

يقول بابا:

ـ يا أمل، لا تكوني غير عقلانية هكذا، بالطبع من حقك ارتداؤه، لكن لا تقلِّلي من شأن سلطة قوانين المدرسة وعاداتها. وخصوصًا في مدرسة مثل «مكلينز». إنها ليست مدرسة حكومية. نظامها مختلف تمامًا.

ـ إنهم لا يخيفونني!

يقول بابا مبتسمًا لي:

ـ اهدئي يا أمل. سنساندك، لكن عليك أن تفكري مليًّا في الموضوع. هل أنت متأكدة من استعدادك للتأقلم مع تغيير ضخم كهذا في حياتك؟

ـ ما المشكلة؟ إنها مجرد قطعة قماش.

تقول ماما بتذمُّر:

ـ منذ متى والحجاب مجرد قطعة قماش؟ نعرف أنا وأنتِ أنك متفائلة بعض الشيء يا أمل.

ـ وماذا في ذلك؟ أستطيع التعامل مع كل هذا الهراء... أريد أن أحاول... وأريد تلك الهوية. أريد أن أرتدي ما يعبر عن إيماني. أريد أن أعرف ماذا يعني أن أكون قوية بقدر يكفي للتحرك وأنا أرتديه وأتمسك بحقي في ذلك.

لا يقول والداي شيئًا لثوانٍ ثم تجذبني ماما وتحضنني:

ـ ما رأيك أن تجرِّبي ارتداءه حتى يوم الاثنين؟

أقول بسخط:

ـ كلاكما تعاملانني كطفلة. أنا كبيرة، أستطيع التفكير مثل الكبار أيضًا. ذلك بالضبط ما خططت له.

يحدِّق والداي فيَّ بحنان. ويقول بابا:

ـ لا تحاولي أن تكبري بسرعة يا أمل، ستتذكرين سنوات مراهقتك عندما تكبرين وتصيرين حكيمة، وستقدِّرين ذكريات أيام المدرسة. عندما كنت صغيرًا...

أقول بتنهُّد:

ـ بابا! سوف تخبرني للمرة المليون كيف كنت تقطع المسافة بين بيت لحم وقريتك في البرد القارس فقط لتصل إلى المدرسة.

يبتسم لي بفخر؛ لأنني تمكنت من تذكر قصة أسمعها، بمعدَّل مرتين في الأسبوع تقريبًا:

ـ ذلك صحيح! كنَّا نعيش تحت الاحتلال الإسرائيلي. كان المحتلون يصعِّبون علينا حياتنا حتى يجبرونا على الخروج، ولكنَّ والديَّ أصرَّا على ذهابي إلى المدرسة وقدَّرت هذا الامتياز!

أصيح متذمرة:

ـ ماماااا! قولي لبابا أن يريحني.

ترمقني باستنكار ثم تشيح ببصرها، وتبدأ كتفاها بالاهتزاز. يمسكها بابا فتنفجر ضاحكة:

ـ يا محمد، لو ترحمنا الليلة؟

يتظاهر بأنه مجروح فتبتسم له ابتسامة غزلية تُزعجني. يغمز لها بعينه ويضحكان وكأنهما في أول موعد غرامي أو ما شابه. إن رؤية والديَّ في حالة من الحب تسبِّب لي الغثيان.

تسألني ماما:

ـ إذن، ماذا لو خرجنا الليلة وقمنا بجولة اختبار؟

ـ لنذهب إلى «تشادستن».

يقول بابا متنهِّدًا:

ـ كيف عرفتُ أنك ستقترحين ذلك؟ إنه بيتك الثاني. يا جميلة، أمل تستغرق ساعة في العادة حتى تتهيّأ للذهاب إلى «تشادستن». وإذا كانت قادرة على التكيُّف مع «تشادستن» ستستطيع التكيف مع أي شيء.

إذا كنتِ في عمري وذهبت إلى مركز «تشادستن» للتسوق ليلة الخميس مع صديقاتك، فأنتن لستن هناك من أجل عروض التنزيلات على الجوارب. أنتن هناك لكي تعطين انطباعًا، ولكي تتلكّأن عند مركز «تايمزون» للألعاب الإلكترونية، ولكي تُغِظن حراس الأمن الذين ـ عندما يرون فتاة بفستان قصير أو ولدًا بلحية التيس ـ يعتقدون أنهما «مثيري مشاكل». لن أذهب لـ«تشادستن» أبدًا وأنا مرتدية البنطال الرياضي والبلوفر البشع الذي أرتديه وأنا ذاهبة إلى السوبر ماركت. الذهاب إلى «تشادستن» يعني المكياج، والملابس ذات الماركات العالمية، والشعر الرائع. لذا عليَّ في الأساس أن أستبدل الشعر الرائع بالحجاب الرائع في المعادلة وسأكون على أتم استعداد.

إن ارتداء «بروش» على شكل عنكبوت يبدو أقل إخافة من هذا حاليًّا.

أقرر أن أرتدي حجابًا أزرق كالبحر، وعصابة رأس قطنية لونها لبني وهما متوافقان مع الجينز والسترة الزرقاء أيضًا. أشدُّ شعري إلى الخلف وأعقده على شكل كعكة منخفضة الارتفاع ثم ألبس عصابة الرأس. أحتاج إلى العصابة لأن نسيج الحجاب حريري وينزلق من دون العصابة

تحته لتثبيته. ظلال الأزرق المتباينة أيضًا تُحلِّي المظهر قليلًا. أطوي الحجاب من منتصفه على شكل مثلث، ثم أسوِّيه فوق العصابة. ألفُّه حول رأسي ووجهي منتبهةً إلى عدم وجود تجعدات عليه، وإلى بروز الجزء الأمامي من العصابة. عندما أسوِّي هيئة الحجاب أثبِّته بدبوس صغير آمِن فوق عنقي. ألقي بذيليْ الحجاب بشكل متعاكس فوق كتفيَّ وأشبكهما بـ«بروش» من الخلف.

هذه هي مخاوفي الكبيرة الثلاثة، رقم (١) يجعلني غير قادرة على ضبط نفسي قليلًا بمجرد التفكير فيه، ورقم (٣) يسبِّب ارتعاشة في عيني:

١ ـ التعليقات خارقة الذكاء؛ مثلًا: (أقف على السلَّم الكهربي يصرخ فيَّ مجموعة من الأولاد «يا رأس البامبرز» أو أيَّ تعليق يشبهه).

٢ ـ الإحراج المضاعف؛ مثل: (ورق التواليت الملتصق بالحذاء، والتعثر والسقوط أمام الناس، تلك اللحظات المحرجة تكون أكثر إيلامًا إذا كان الشخص مميزًا أصلا كساندويتش «بيج ماك» في محل لبيع الطعام الصحي).

٣ ـ التحديق المثبَّت؛ مثلًا: (أحاول طلب بطاطس مقلية من كشك الطعام ولا تستطيع الفتاة المحاسِبة تسجيل أنني لا أريد صلصة؛ لأنها مشغولة جدًّا بأخذ صورة لي بالحجم الطبيعي).

إذن يمكنكم فهم مشيي في المحلات وكأني في حالة تأهُّب لقتال، متجنبةً التقاء عينيَّ بعيون الآخرين ومنتظرةً شيئًا يحدث. ولكنني عندما أدور ببصري في المحلات أدرك كم أنني أتصرف على نحو غير مريح وغير عقلاني، لأنه يبدو أن معظم الناس لا يأبهون في الحقيقة. أقصد، بالطبع هناك تحديق، ولكن ليس بشكل يعادل قائمة مخاوفي. هناك أحيانًا العيون

الجاحظة لكن معظم الناس ينظرون إليَّ نظرة واحدة من أعلى إلى أسفل، وأستطيع التعامل مع ذلك. أنا مجرَّد متسوقة أخرى في وقت متأخر من الليل، أو شخص آخر تصطدم كتفه مع أكتاف أخرى، ويتفاوض مع الحشود في طابور الانتظار ليتقدَّم. ماما لا تتصرف بتحفُّظ بسبب حجابها. تمشي وتتحدث وكأنها غير مدركة حتى إنها مرتدية الحجاب. ذلك يجعلني أحس بالحماية؛ لأنها واثقة من نفسها، ويحترمها الجميع. أتساءل كم سأستغرق حتى أحس وأتصرف بتلك الطريقة؟

بينما أمشي في محل الأغذية أمرُّ بثلاثِ نساء يرتدين الحجاب، مجتمعات حول مائدة، يتحادثن ويتناولن الآيس كريم. تلمحني إحداهن وتبتسم.

تقول، محيِّيَةً إياي بتحية الإسلام:

- السلام عليكم.

أُجيب، مبادلةً إياها الابتسامة:

- وعليكم السلام.

تسلِّم عليَّ الفتاتان الأخريان أيضًا وأردُّ السلام، ويبتسمن لي جميعًا بِوُدٍّ. يعاودن الحديث وأنصرف بابتسامة عريضة؛ لأنني الآن أعتقد أني بدأت أفهم أن الحجاب أكثر من مجرد احتشام. هؤلاء الفتيات غريبات بالنسبة إليَّ، لكنني أعرف أننا جميعًا نحسُّ برباط مدهش، وبإحساس أن هذه القطعة القماشية تربط بيننا بنوع من الأخوة الكونية.

أتمدد فوق سريري تلك الليلة وأعيد تشغيل المشهد في رأسي أكثر من مرَّة. إنني أكتشف هوية جديدة، وطريقة تعبير جديدة عمَّن أكون في الداخل، لكنني أعرف أنني لست وحدي. ما أقوم به ليس اكتشافًا جديدًا، فأنا أتقاسم

شيئًا مع ملايين النساء حول العالم ويبدو ذلك مثيرًا جدًّا. أعرف أن البعض سيجد صعوبة في التصديق، ولكنني عندما مشيت في «تشادستن» الليلة ساورني شعور بالحرية والثقة لم أخبره من قبل. شعرت بالأمان أن الناس لم يحاكموني ولم يضعوا افتراضات حول شخصي من طول تنورتي. أحسست أنني محميَّةٌ من كل ذلك الهراء حول الجمال والشكل. وبقدر ما كنت خائفة من المشي في المحلات وأنا مرتدية الحجاب، أصبحت أيضًا أشعر بالتمكُّن والحرية. أعرف أن أمامي طريقًا طويلًا. ما زلت أهتمُّ بالتأنُّق لأجذب الانتباه، وأستغرق وقتًا طويلًا في ضبط المكياج، والملابس والحجاب، لكنني لا أشعر أنني أتصالح مع نفسي بالرغبة في لفت الانتباه. إنني أبدو جميلة وأحس بذلك بطريقتي الخاصة، يا إلهي، كم يبدو ذلك مذهلًا!

* * *

يوقظني بابا لصلاة الفجر. لا أكون في أفضل حالاتي عند الفجر، وأحيانًا أُلقي بالمخدة وأطلب منه الخروج. غير أنني أصحو في معظم الصباحات للصلاة معهم. المشي إلى الحمام يكون دائمًا أشبه بتجربة خطوات الموتى الأحياء في أفلام الرعب. في بعض الصباحات أصطدم بالجدران، لكن ذلك في الواقع مفيد جدًّا لكي أصحو، ثم أقوم بالوضوء بغسل وجهي ويديَّ إلى المرفقين ومسح رأسي وقدميَّ إلى الكعبين، ثم نصلي. يؤم بابا الصلاة ويخرج صوته ناعمًا وشجيًّا وهو يقرأ القرآن. وهناك حيث أقف هذا الصباح ببيجامتي وحجابي إلى جانب ماما وبابا راكعة لله، ينتابني إحساس غريب من السكينة. أشعر أن لا شيء سيؤذيني، ولا شيء آخر يهمُّ. وهكذا عرفت أنني مستعدة.

(٤)

أستسلم للنوم سريعًا، حالمةً بيومي الأول في المدرسة. عندما يرنُّ المنبه باهتياج، أخبط زر الغفوة وأنزلق في نوم عميق، حيث أعرف أن لا شيء في العالم كله باستطاعته أن يقدم لي أي إغراء يجعلني أغادر سريري. بعد ذلك تنقضي أربع دقائق وتنطلق تلك الآلة بصرختها السادية مجدَّدًا. وإن لم يكن ذلك سيئًا بشكل كافٍ، تدخل ماما الغرفة وتقفز فوقي مقبِّلةً وجهي ورأسي:

ـ هيَّا يا أمل! أول يوم في المدرسة!

أقول بتذمر:

ـ خمس دقائق أخرى.

ـ يا أمل! هيا!

وبتصرف أشبه بإساءة معاملة الأطفال، تنتزع اللحاف عن جسدي على نحوٍ عديم الرحمة.

ـ ماماااا! اتركيني وشأني!

ـ حضَّرت لك إفطارًا شهيًّا. بداية جيدة ليومك الأول! يلَّا!

أتمكن أخيرًا من السقوط من السرير وأتجه إلى الحمام حيث تنتابني نوبة رعب بسبب ظهوري في المدرسة بالحجاب. ثم يلامس الشامبو عينيَّ. وينتقل الهلع من «ماذا سيقولون عن حجابي؟» إلى «هل سيسبب لي هذا الصابون العمى؟» وأخيرًا أنقذ عيني، وأجفف جسدي. أرتدي زيي المدرسي وأصفف شعري. ثم أجلس على حافة سريري وأدرس قائمتي. نعم، لا شك فيها، معظم الأشخاص في المدرسة يقعون في العمود الأيمن.

إنني على وشك القيام بعمل حاسم؛ تلك هي الطريقة الوحيدة لفعل ذلك. ارتديه ثم تعاملي مع العواقب في أثناء تواليها. إنه فصل جديد. سيكون أشبه ببداية منعشة لي. أحس بأني مستعدة، ولكن مخاوفي تتجمع ضد ثقتي وتحكم عليها قبضة قوية. في كل دقيقة ـ أو نحو ذلك ـ تتمكن ثقتي من الإفلات من قبضة المخاوف وتخرج لاستنشاق هواء منعش، لكنَّ مخاوفي بعد ذلك تعاود الهجوم، وأبقى عالقة محاولة أن أشعر بشعور واحد أو أكوِّن فكرة ثابتة أو موقف راسخ في وسط هذا الصراع.

يبدو الأمر وكأن هناك أشخاصًا يستغرقون أسابيع لكي يقرروا ما إذا كانوا سيقومون بالقفز بـ«الباراشوت» أم لا. ثم، أخيرًا، يستعدون نفسيًّا للقيام بذلك، لكنهم ينتهون إلى الوقوف في الطائرة التي ترتفع عن الأرض بمقدار عشرة آلاف قدم، متردِّدين بشأن ما إذا كانوا يريدون التقدم في هذا الفعل. إنها قفزة واحدة ويُنفَّذ القرار. لا التفات إلى الوراء. هكذا أرى الأمر. لا أريد أن أرتديه اليوم، ثم أجبن وأذهب إلى المدرسة من دونه. إنها ليست لعبة أو موضة أو تقليعة جديدة. الأمر أكثر جديَّة من ذلك.

لذلك أخرج حجابي من الدولاب وأقف أمام المرآة محدِّقةً في نفسي.

إنه مجرد شعر. خصلات موصولة برأسي الذي يتجعد أحيانًا على أيَّة حال. شعر، قطعة قماش، شعر مُغطًّى بقطعة قماش، لا ضير في ذلك. جميل.

أختار حجابًا أبيض غير مزخرف من الشيفون الناعم. أظن أن الأبيض سيكون أنسب ما يتماشى مع البنفسجي والأصفر، لونيْ زيِّي المدرسي. يتألف الزي من قميص بنفسجي مع تطريز أصفر وياقة صفراء. ولنا أن نختار تنورة بنفسجية ذات ثنيَّات أو بنطالًا بنفسجيًا مَخِيطًا. وبما أن التنورة قصيرة حتى الركبتين فإنني سأرتدي البنطال.

سوف يكون هذا الصباح واحدًا من تلك الصباحات السيئة؛ لأنني لن أتمكن من ضبط حجابي الآن. أريد شكلًا كاملًا، استدارة متناسقة حول وجهي. هذا يعني ألا تكون هناك تجعدات ولا ارتفاعات ولا انخفاضات ولا خيوطًا منزوعة. بينما أناضل أمام المرآة تدخل ماما وتعرض المساعدة، ولكن سواء كان الأمر يتعلق بكيفية ارتداء قميص أو جينز أو حجاب، فإن ذوقي في اللبس يقع خارج نطاق نصائح الأمهات. وبعد شدٍّ وتربيت الحجاب حول وجهي أحصل أخيرًا على الشكل الذي أريد، وأثبِّته بدبوس آمِن على عنقي. يأخذ مني ذلك خمسًا وأربعين دقيقة. حتى تصفيف شعري لا يستغرق كل هذا الوقت.

في أثناء الإفطار، وبين إكراهي على تناول البيض المقلي وتزويدي بالنصائح حول الاجتهاد في الدراسة والابتعاد عن المخدرات، يحدِّق بابا وماما في زيي وحجابي بفخر. أبتسم لهما، ولكن بينما أهمُّ بالالتفات ألمحهما يتبادلان نظرات قلقة.

أسألهما:

ـ ماذا؟ ما المشكلة؟

يقول بابا:

ـ للمرة الأخيرة، يا أمل، هل أنت متأكدة من هذا؟

ـ مائة بالمائة.

حسنٌ، كذبة بيضاء، لكنني لا أريد لأحد أن يعرف عن مجموعة الفراشات المهلِّلة في معدتي، ولا حتى والديَّ.

تسألني ماما:

ـ سيكون عليك أن تقابلي المديرة فورًا. تعرفين ذلك، أليس كذلك؟ لو أنك رتبتِ موعدًا معها.

ـ نعم، ولكن كيف كان لي أن أفعل ذلك؟ كانت المدرسة مُغلَقة.

ـ كانت مس «والش» في مكتبها في أثناء الإجازة، أمل، وتعرفين ذلك.

ـ نعم، حسنٌ... هكذا أفضل.

يقترح بابا:

ـ ماذا لو تتحدثين معها اليوم وترتدينه غدًا؟

أفقد أعصابي:

ـ أولًا، ذلك يجعل الأمر مفتوحًا للتفاوض ـ وهو ليس للتفاوض. ثانيًا، أريد أن أبدأ الدراسة واضحة بشأن الحجاب منذ اللحظة التي أدخل فيها بوابة المدرسة! وثالثًا...

ـ أخفضي صوتك وتحدثي معنا باحترام.

أحيانًا يعتقد الوالدان بصراحة أن العالم يتمركز حولهما.

* * *

مدرسة «مكلينز» عبارة عن امتداد شاسع من المساحات البيضاوية الشكل والأفنية وملاعب كرة السلة وحمامات السباحة والمساحات المشجرة المخصصة لتناول الغداء، مع مقاعد في الحديقة، وأسيجة جميلة الشكل، وشجيرات ورد، وقرميد مرصوف بشكل متناسق تمامًا. يمتلئ المكان عند البوابة الأمامية بالآباء والأمهات الذين يُنزلون أبناءهم من سيارات الدفع الرباعي و«البي إم دبليو».

لا أستطيع تحمُّل الشوق إلى مدرستي القديمة. بالطبع ليس هناك شيء جميل في مدرسة الهداية، لكنني، ويا للغرابة! أشتاق إلى الذهاب إلى مدرسة أجلس في صفها، وأشم رائحة التلوث المنبعث من المصانع المجاورة مخترقًا تجاويف كل نافذة. هناك حيث أقضي أوقات الغداء في الصراع من أجل إيجاد مكان في الملعب الصغير. كان هناك فناء أسفلتي واحد متعدد الاستعمالات بشكل كاف لاستيعاب مباراة «الكريكيت»، ولعبة كرة السلة، وركل التافهين. تستغرق نصف وقت الغداء في تفادي الكرات وأنت تشق طريقك من مكان إلى آخر في المدرسة. أحببت ذلك. أحببت ألفة ذلك. إنني أعرف اسم كل شخص وتاريخه. إنني أعرف أن المعلمين يشعرون أن عملهم أكثر من مجرد وظيفة، وأشعر أنهم يعيشون على ـ ويتنفسون فكرة ـ جعل المدرسة باتساع أحلامهم. لم يهمّ أنه لم يكن في المدرسة مراكز للرياضة البدنية، ولا أفنية، ولا حمامات سباحة، ولا قيادة خيول، ولا ملاعب لكرة التنس. كل ما كان يهمُّ هو جهدك في الدراسة وصداقاتك. وليست هناك مشكلة كبيرة حين لا تكون لديك أدنى فكرة عمَّن تكون لأنه لا أحد يسألك عن أي توضيحٍ على أية حال.

هناك شيء يتعلق بـ«مكلينز»، إنني فقط لا أحس بالألفة. كم يكسب والدك؟ كم سيارة لديكم؟ هل ورثتم أموالكم أبًا عن جدٍّ؟ السؤال عن

كل ذلك الهراء يعتبر مراسم استقبالك الأولى. ولكن حتى إذا طابقت المواصفات المادية المطلوبة، فإن هناك أشخاصًا طابقوا هذه المواصفات، ولكنهم ظلوا منبوذين. جعلت «تيا تاموَس» مع حاشيتها المكونة من فتاتين يحاولن تقليدها في كل شيء؛ «كلير فوستر» و«ريتا ماسون»، ذلك الأمر واضحًا جدًّا بالنسبة إليَّ في يومي الأول في المدرسة. كنت أتحدث مع فتاة أخرى وسألتني أين أسكن. سمعتُ «تيا» مصادفةً تهزأ مع حاشيتها منَّا أننا ربما نعيش من إعانات الحكومة. لَكَم وددت أن أحطم وجهها بارد الملامح كدمية خزفية! وهكذا قابلت «إيلين تانكا» التي أخبرتني بأن السخرية كانت مخففة في حالتي، فوالد «إيلين» طبيب عيون وأمها عالمة في الكيمياء الحيوية، وهما ـ بالنسبة إلى «تيا» والشلة ـ من الأيدي العاملة غير الأرستقراطية.

كلما دخلت البوابة الكبيرة أشعر كأني «أليس في بلاد العجائب»؛ حيث توجد تفرعات كثيرة في الطريق وما من قطة «تشيشاير» تدلُّني.

هذا الصباح، أمشي بمحاذاة سياج من الشجيرات المشذبة بشكل كامل، وأنا في طريقي إلى المكتب الرئيس لمقابلة المديرة والتحدث معها بشأن قراري. وبينما أمشي ألاحظ مجموعة من الأولاد، قد يكونون من مدرسة للصغار، واقفين بعضهم مع بعض يضحكون. أمرُّ بهم، وأقسم بالله إن الفراشات تهاجم معدتي، فراشات! بسبب مجموعة من الأطفال بحجم الفئران. يا لي من حمقاء! أريد خبط رأسي في الحائط! ينظرون إليَّ وكأنني عيِّنة يدرسونها في حصة الأحياء، ولكن أحدهم كان معه لعبة فيديو فلم يحدقوا فيَّ طويلًا.

عندما أصل أخيرًا إلى مكتب السكرتيرة، تكاد مس «دكلي» أن تختنق

وهي تشرب قهوتها. تستغرق بعض الوقت كي تستعيد أنفاسها وتسألني لِمَ لستُ في الصف.

ـ أحتاج إلى أن أقابل مس «والش».

ـ ألا يمكنك الانتظار حتى الاستراحة؟ قد لا يُسعد مس «والش» كثيرًا أن تتغيَّبي عن صفك.

أبتسم لها ابتسامة عريضة وأهمس على نحو تآمري:

ـ إنها لا تعرف أنني أرتدي الحجاب.

تنظر إليَّ باندهاش وتطلب مني أن أجلس.

يرن جرس المكتب فأدخل حجرة كبيرة ممتلئة بأثاث جميل من خشب الماهوجني وكراسي فخمة. الجدران ذات اللون العنابي مزخرفة بصور ضخمة للمديرين السابقين، وهناك صور لطلاب صفوف الثاني عشر السابقين معلقة على الحائط أيضًا، كما توجد كؤوس تذكارية موضوعة على أرفف ممتدة من الأرض وحتى السقف.

تجلس مس «والش» إلى مكتبها، رأسها منحنٍ وهي تواصل الكتابة. تومئ إليَّ بالجلوس على كرسي من خشب الصنوبر الأملس إلى جانب مكتبها. تفعل ذلك من دون أن ترفع بصرها. أمشي بحذر في اتجاه الكرسي، ثم أجلس على طرفه.

(يا رب، يا رب، يا رب. لا تدعها تثُر عليَّ.)

بعد نصف دقيقة تتوقف عن الكتابة. ويبدأ العد التنازلي في رأسي:

(ثلاثة):

«إذن، أمل، ما الشيء المهم الذي...»

(اثنان):

«... يجعلك تقابليني أولًا...»

(واحد):

«... اليوم...»

أفكِّر في الأغاني. أفكِّر في أغنيتي «تيك ماي بريث أَواي» (أذهلتني) و«إتس إن يور آيز» (في عينيك).

ثم تسعل. «أهه»، الصوت المريح لـ«إحم» خرقاء. عندما تكون في شكٍّ بشأن ردة فعلك، استغلّ بعض الوقت لبلع ريقك.

مرتان إذا كان ولا بد.

«إحم... إحم...»

ـ مرحبًا مِس «والش»، أعتذر عن إقحام نفسي من دون موعد، وبسبب الإجازة المدرسية لم أتمكّن من أخذ موعد وفكَّرت في أن أقابلك أولًا هذا الصباح، قبل أن أذهب إلى المدرسة، تعرفين ما أقول؟ لـ... لقـ... لقد قررت أن أرتدي الحجاب. تعرفين أنني مسلمة وكل شيء؟ حسنٌ، إنه جزء من ديني أن أرتدي الحجاب وأعتذر إذا فاجأتك على هذا النحو، ولكن الأمر كان تقريبًا وكأنه قرار تمَّ بين ليلة وضحاها... شيء من هذا القبيل...»

أتوقف عن الثرثرة المتقطعة وأنظر إلى كفيَّ بتوتر مرددة دعاءً صامتًا ألا تُصاب بنوبة.

يبدو كأن بها حاجة إلى مروحة تهوية. تسحب نفسًا هائلًا، تتكئ على كرسيها وتحدق فيَّ بتركيز:

ـ حسنٌ إذن، أمل محمد نص ـ نص ـ نصرو ...

أقاطعها. من المؤلم جدًّا مشاهدة ذلك. إنها لا تكفُّ عن التأتأة أبدًا عندما تحاول أن تنطق اسمي.

أكمل لها:

ـ محمد نصر الله عبد الحكيم.

أبتسم محاولةً إطلاق ملايين الذبذبات السعيدة مع كل ارتعاشة تشنجية لعضلات وجهي. لست تحت تأثير أي تضليل أنها ستقبل ذلك بسهولة. ومع ذلك، فهي مشهورة بتناولها أقراص مسكِّنة للألم إثر الصدمة التي تلقَّتها عندما رأت طالبًا يرتدي الجوارب الخطأ. والآن، ما مِن صيدلاني سيتمكن من تزويدها بمسكِّنات كافية.

بدلًا من ذلك، تبتسم نصف ابتسامة، تجفل نصف إجفال وتمرِّر أصابعها خلال شعرها. للحظة أشعر بالأسف لأجلها؛ لأنني لن أدعي أن ارتداء الحجاب مماثل للجوارب غير المتناسقة، أو لمشبك الشعر بلون خطأ. يبدو أن هناك شيئًا خارقًا في قطعة النسيج هذه على رأسي. ينظر إليها كثيرون وكأن لها قوى غريبة مَخِيطة في أنسجتها المجهرية. قوى تحوِّل الفتيات المسلمات إلى «أ. م. غ» أو أجسام مغطاة غريبة، تحوِّلهن من «نحن» إلى «هنَّ». ربما ترغب مِس «والش» في التعامل مع العقوبات، مع اجتماعات مجلس الإدارة، مع تغيير المناهج، وزيادات رواتب المعلمين، أمَّا أن تقرر كيف تتعامل مع فتاة مسلمة ترتدي الحجاب في مدرستها المملَّة القديمة، فإن ذلك قد يكون آخر شيء تتوقعه في مهامها الوظيفية. ولكن، وعلى الرغم من أنني أفهم وجهة نظرها إلا أنه عليَّ مساندة نفسي. وبقدر ما أحب أن أعيش حياة شخصية هزلية في كتاب، إلا أنني لا أفضِّل في الواقع أن أُعامل كـ«أ. م. غ».

ـ أمل... همم... لا أريد أن... أقصد... أريد أن أتطرَّق بحذر لهذا... الموضوع الحساس... همم... هل تحدثت إلى أي أحد بشأن ارتداء... بشأن التخلي عن زي مدرستنا؟

ـ لن أسمي ذلك تخليًا تمامًا.

تضيق عيناها. هناك معلومة عن المُعلمين والمديرين، وهي أنهم يكرهون أن يعارضهم أحد.

أعضُّ شفتي، قلقةً أن تثور، ثم أقول شيئًا بسرعة:

ـ كنت سأتحدث معك لولا أن اليوم هو أول يوم دراسي لي وأنا أرتدي الحجاب. اتخذت القرار في أثناء الإجازة.

ـ همم... حسنٌ، دعيني أرَ.

تضغط بأصابعها على صدغيْها:

ـ إذن، فرض عليك والداك ارتداء الحجاب بشكل دائم الآن؟ بدءًا من اليوم؟ أول يوم لك في الفصل الثالث. ألم تنتظري حتى الغد؟ بعد أن يتحدثا معي في الأمر؟

أحدِّق فيها مصدومة:

ـ والداي؟ مَن ذَكر والديَّ؟

يبدو صوتها محتالًا على نحو مزعج:

ـ الحجاب عزيزتي. إذن فُرِض عليك ارتداؤه منذ اليوم؟

ـ لم يفرض عليَّ أحد ارتداءه مس «والش». إنه قراري.

تعطيني إحم أخرى وتقول:

ـ حسنٌ أمل، لست متأكدة ماذا أفعل. أرجو أن تقدِّري أن هذه ليست مدرسة هِد.. هِدا.. مدرستك القديمة في «كوبرج». هذه مؤسسة تربوية حسنة السُّمعة. لنا أكثر من مائة عام من التاريخ الباعث على الفخر، تاريخ من الأعراف والتقاليد يا أمل، ومن الامتثال لقواعد هذه المؤسسة وسياساتها. لنا سياسة صارمة في الزي، وأنت جئت في أول يوم لك بعد الإجازة متجرِّئة على تغييره من دون إذن.

ـ ولكن مس «والش»، ليس الأمر وكأنني علَّقت حلقًا على حاجبي، أو قصصت شعري مثل الهنود الحمر «الموهوك»، أو صبغت زيي بالوردي. ما زلت أرتدي زي المدرسة. أعرف أنها أول مرة ترتدي طالبة الحجاب، ولكن ألا يمكنك أن تمنحيني استثناءً؟! أنا لا أقوم بذلك لأنني أحاول التمرُّد على القوانين.

تبدو غير مرتاحة وتتكئ مرة أخرى على كرسيها الجلدي:

ـ لكنك لم تبذلي أي جهد للحصول على إذن من المدرسة. هذا بالتأكيد لم يُناقَش في مقابلة تسجيلك، أتذكر والديك، كانا محترميْن وصريحيْن. أحس بخيبة أمل كبيرة أنهما لم يذكرا ذلك قطٌّ. رأيت أمَّك ترتدي الحجاب، لكنني لم أظن قطُّ أنك سترتدينه أيضًا!

ـ لكن مقابلة التسجيل مضى عليها أكثر من ستة أشهر! لم أبدأ في التفكير بجديَّة في الأمر إلا الأسبوع الماضي. وحتى في ذلك الوقت لم أكن متأكدة بعد. اتخذت قراري الأخير منذ أربعة أيام فقط!

ـ لِمَ لمْ تخبريني على الأقل عندما كنت تفكرين في الأمر؟ كان ينبغي أن تستشيريني أولًا.

أستغرق دقيقة كاملة لكي أدرك أن فكِّي مفتوح على مصراعيه:

ـ إحم... كان ذلك أمر شخصي...

ـ حسنٌ، في الحقيقة لا. إنه بالأحرى شأن عام، ألا تعتقدين ذلك؟ الشخصي هو الشيء المدسوس تحت قميصك، الشخصي هو المسبحة داخل جيبك. أؤكد لك يا أمل أن حجابك من بين جميع الأشياء ليس شخصيًّا. لا تفهميني خطأ؛ إنني أحترم دينك. نحن نعيش في مجتمع متعدد الثقافات، وينبغي علينا تقبُّل الناس والتسامح معهم مهما كانت عقيدتهم أو عرقهم أو لونهم، لكن يجب أن تعرفي أن عليَّ إدارة مؤسسة تربوية، وهناك تعليمات معينة. أنا متأكدة أن والديك سيقدِّران ذلك.

ـ لست أقوم بالوعظ أو شيء. إنه شيء... لنفسي.

تنظر إليَّ بارتياب.

ـ ليس لوالديَّ دخل في ذلك. اكتشفا الأسبوع الماضي. إنهما أيضًا قلقان عليَّ...

ـ قلِقان؟

ـ نعم، كانا قلقين ألا أكون مستعدة. في الواقع، هما قلقان أكثر بشأن ما إذا كنت قادرة على التكيف مع الحجاب، كوني الوحيدة التي ترتديه في المدرسة.

تجلس باستقامة على كرسيها:

ـ دعيني أفهم ذلك بشكل صحيح. كانا في الحقيقة معترضيْن على قرارك هذا بتغطية رأسك؟

- حسنٌ، ليسا معترضيْن. إنهما، فقط، لا أعرف، حذِران. قلِقان لأجلي. بسبب ردة الفعل التي قد أتلقّاها.

أنظر إليها، لكنها تتجاهل نبرتي، وفجأة تخلط الأوراق فوق مكتبها وتطلق لي ابتسامة ودودة كبيرة:

- حسنٌ، أمل. لنناقش ذلك لاحقًا، هل نفعل؟ لديك حصة لتحضريها.

تكتب ملاحظة تأخير وتسلمها إليَّ:

- تفضلي. والآن أتمنى لك يومًا ممتعًا وسأتحدث معك قريبًا.

تبتسم ابتسامة زائفة وتواصل الكتابة، أي إنها دعوة لي للمغادرة فورًا. أومئ برأسي، منتبهة إلى عدم إغلاق الباب بعنف ورائي وأنا أغادر.

أنتهي إلى دخول حصة اللغة الإنجليزية والكل قد أخذ مقعده بارتياح. أغلق الباب ورائي وأجدني، على الفور، في مواجهة صف صامت، وصفوف من وجوه تحدِّق فيَّ من خلف مقاعدها.

مستر «بيرز» يقف في مقدمة الصف. أستطيع القول إن حجابي فاجأه. أنتظر استجابته وأنا أحبس أنفاسي.

اطردني إذا كنت متأخرة، عاقبني، اصرخ، صِح، كن طبيعيًّا.

يرتفع حاجباه، ويطوي يديه فوق صدره؛ ويضرب بأصابعه على ذراعيه بنفاد صبر:

- إحم! تأخير في أول يوم في المدرسة يا أمل. آمل أن تكون لديك ورقة ملاحظة.

مستر «بيرز» لقد فزت بجائزة أفضل مدرس بالنسبة إليَّ.

- تفضل مستر «بيرز».

يقرأ الورقة ويبتسم لي، مشيرًا إليَّ باتخاذ مقعدي. صديقتاي، «سيمون» و«إيلين» تبتسمان لي بفخر. والباقون يحدقون وكأنني صبغت شعري بالأخضر أو حضرت إلى المدرسة وأنا ملفوفة في ورق المرحاض. تنظر إليَّ كل من «تيا تاموس» و«كلير فوستر» و«ريتا ماسون»، ثم يضحكن ضحكات نصف مكبوتة بينهن وبين أنفسهن. شيء متوقَّع. على أيَّة حال، إنهن يقعن في مقدمة العمود الأيمن في قائمتي «أرتدي أو لا أرتدي». وبينما أعبر بين المقاعد تلتقي نظراتي مع نظرات آدم ويبدو متفاجئًا. يتململ في مقعده، ويبدو فجأة مفتونًا بزاوية مقعده. أحسُّ وكأن أحدًا معه خرَّامة أخذ يخرِّم بها أحشائي كلها.

التقيت بـ«آدم كيان» في حصة الكيمياء عدة أسابيع في أثناء الفصل الأول. تمَّ تقسيمنا كشركاء في المختبر، وقد كُلفنا بأعمال معًا مرات كثيرة طوال الفصل. وبما أن هذه مدرسة ثانوية، فمن المهم فهم أي نوع هو. إنه ليس من النوع الانطوائي، ولا «الدَّحيح» وليس من النوع الذكي المغرور. إنه ليس من النوع الذي يتعاطى الحشيش، ولا من النوع المهووس بالبنات، أو الشاطر الذي يحبه المعلمون، وليس أيضًا من النوع الذي لا يحافظ على نظافته الشخصية. إنه مشهور جدًّا مثل أي شاب متميز في الرياضة عادة. بهذا المعنى هو من النوع الرياضي. إضافة إلى أن الكل يعرف أنه يريد أن يصبح طبيبًا، ويحتاج إلى أن يتفوق تقريبًا في كل مادة ليصبح كذلك؛ ولذا هو أيضًا من النوع الطموح لكن المحتفظ بهدوئه. إنه باختصار أحد أولئك الشباب الذين يبدون وكأن لديهم كل شيء. في ذلك الحين لم أكن معجبة به في الواقع. نتسكَّع في حصة الكيمياء، نتبادل التحية في الممر، وكان ذلك كل شيء. كانت بيننا «علاقة صفية»، من ذلك النوع الذي ينتهي بمجرد أن يرنَّ الجرس. لا نلتقي في الاستراحات أو وقت الغداء، لا شيء من هذا يحدث.

ثم في الساعة ٤٥ , ١١ تقريبًا، صباح يوم الجمعة ٢٤ مايو، بينما نحن في حصة الكيمياء وآدم يناولني قطعة شاش ومصباح بَنْزين، لاحظت فجأة أن كُمَّيْه مرفوعان ولمحت ساعديْه.

أقول لكم، أنا عادة من ذلك النوع من الفتيات الذي يُعجَب أولًا: بالابتسامة. ثانيًا: بالعيون. ثالثًا: بالبشرة. رابعًا: بعضلات البطن المشدودة. ولكن منظر ساعديْ آدم مع عروقه الناتئة من عضلاته وكُميْ قميصه المتوسِّلين للأكسجين يجعلانني أشعر بالدوار. بدأت ألاحظ عينيه؛ ذات زرقة بحرية عميقة. شعره؛ أشعث بلون أشقر يميل إلى البني والرملي. حسنٌ، هناك قليل من حَبِّ الشباب، ويبدو حاجباه وكأنهما واحد تقريبًا، لكن عيوبه هي ما يبقيني في حالة جيدة طوال تلك الجمعة وليلة السبت حيث رحت أتخيَّل معانقة ساعديه، وتمسيد شعره والاستماع إليه يخبرني أني أجمل فتاة في العالم.

إذن صرت في وضعية الافتتان الرسمي منذ ٢٤ مايو.

من هنا إذن أعاني من تقلبات المعدة والأمعاء بسبب تجاهله لي.

أجلس إلى جانب «سيمون» و«إيلين» وأنتظر أية ملاحظة خلال الحصة، لكن لم يقترب مني أحد ولم يقل لي أحد أي شيء، لذلك أنتظر أن يقول أحد شيئًا بين الحصص، لكنَّ أحدًا لم يفعل.

في حصة اللغة الإنجليزية تكتب «سيمون» و«إيلين» سيلًا من الملاحظات:

تبدين رائعة!

يا لكِ من شجاعة!

أخبرينا بالتفاصيل في الفسحة.

* * *

أجلس في أثناء الاستراحة مع «سيمون» و«إيلين» في الفناء الشمالي المطل على إحدى حلبات السباق. انسجمتُ أنا و«سيمون» منذ أول يوم لي في المدرسة، دخلتُ حجرة اللقاء ودنوت من أقرب مقعد فارغ بالقرب من فتاة فائقة الجمال ذات شعر فاحم وعيني قطة خضراوين. كانت تمتلئ غرورًا وجاذبية، رمقتني بنظرة وأخبرتني أنها تحجز المقعد لصديقة. إنها مثل جهاز المسح الضوئي (السكانر)، تعرفون، ذلك النوع الذي ينظر إليك من الأعلى إلى الأسفل، من الرأس وحتى أخمص القدم، ويقوم بذلك بوضوح تام. ولا يهم إذا كنت ترتدي نفس الزي يوميًّا، فهي ستظل تمسحك بنظراتها وكأنها تحاول استكشاف ما إذا زدت جرامًا من الدهون أو شيئًا من هذا القبيل. كما أنها مغرمة بتطاير شعرها الجذاب، الذي يذهب من جانب إلى آخر كلما تحدثت. من العجيب أن عنقها لا ينكسر. على كل حال، كانت «سيمون» تجلس في الخلف عندما لوَّحت لي. جلست بقربها وأخبرتني أن ذاك كان لقائي الأول مع «تيا تاموس»، المعروفة أيضًا بذات الرأس الدوارة، وسألتني عمًّا إذا كنت أشاهد «فريندز». ومنذ ذلك الحين أخذنا نتسكع معًا.

التقيت بـ«إيلين تاناكا» بعد حادثة «العيش على إعانة الحكومة» مع «تيا». والدا «إيلين» يابانيان. ليسا صينييْن، أو آسيويين، بل يابانيين. تضيق ذرعًا بالأشخاص الذين يبدون أكثر كسلًا من أن يفرِّقوا.

تقول «إيلين»:

ـ إذن، دعيني أفهم ذلك بشكل صحيح، لست مضطرة إلى ارتدائه أمام العائلة والأطفال والإناث؟

ـ ذلك هو في الأساس.

تقول «سيمون»:

ـ إذن، أنت لا ترتدينه طوال الوقت.

ـ ذلك صحيح. بالطبع... أرتديه في أثناء الاستحمام.

تقلّب كلٌّ من «إيلين» و«سيمون» نظراتهما في اتجاهي:

ـ وكأننا ساذجتان إلى هذا الحد، أمل.

ـ بجد أفعل ذلك. إنه فعال جدًّا مع البلسم.

ـ رجاء قدّمي لنا خدمة وتدرَّبي من أجل مهرجان «ملبرن» للكوميديا.

تسأل «سيمون»، وهي تعرض عليَّ عودًا من الكرفس:

ـ على أية حال، ماذا قالت مس «والش» عنه؟

أسألها:

ـ ماذا بشأن الكرفس؟

مكتبة أحمد

تقول بتذمر:

ـ حمية جديدة.

«سيمون» مفرطة في وعيها بجسدها بشكل لا يُصدَّق. لا تفهم أن كل المشكلة تكمن في تفكيرها. حسنٌ، مقاسها ليس ثمانية، وأضلاع قفصها الصدري لا تبين، ولا يبدو ساقاها مثل عيدان الأسنان. مقاسها أربعة عشر، وهي مثيرة ومستديرة وفاتنة ذات عينين زرقاوين واسعتين، وبشرة ناعمة ومشعَّة، وشفتين تبدوان وكأنها وضعت فوقهما أحمر شفاه دائم. وعندما تبتسم تتكور وجنتاها وتتلألأ عيناها. ولكن إذا قلت ذلك لها، فاستعد

للعراك لأنها عندما تنظر في المرآة لا ترى سوى كتلة كبيرة من الشحم. إنها تتبع حمية جديدة كل أسبوع تقريبًا، لكنها لا تستمر أبدًا في أي منها، ثم تمر بمرحلة الجوع المرضي وتعود صباح الاثنين بحمية جديدة لشخصية مشهورة تحصل عليها من مجلة «ويمنز ويكلي».

تسألها «إيلين»:

ـ بدون كربوهيدرات؟

تأخذ قضمة أخرى من عود الكرفس على نحوٍ كاره:

ـ ما أدراني؟ إذن أخبرينا أمل، هل انهارت؟

ـ كادت تُصاب بتمدد الأوعية الدموية. أخذت تهذي عن خرق التقاليد وتاريخ هذه المؤسسة الباعث على الفخر. لماذا يفعل جميع المديرين ذلك؟ يجعلونك تشعرين وكأنك في مستشفى الأمراض العقلية؟

ـ هل قال آدم شيئًا؟

ـ لا...

ـ انسَي الأمر وحسب. سيأتي بنفسه.

ـ نعم... أظن...

* * *

أنا في حاجة إلى مكان لأُصلي، لذلك أذهب إلى مكتب مستر «بيرز» في وقت الغداء. طوال العام كنت أؤدي صلاتي الظهر والعصر في البيت بعد المدرسة، لكنني كنت أفعل ذلك بسرعة أسرع من الصوت حتى لا أفوِّت مشاهدة حلقة من مسلسل «هوم آند أواي» (ذهابًا وإيابًا). لم أكن أشعر قطُّ

أنني أقوم بالشيء الصحيح، والآن أريد حقًّا أن أُصلي في الأوقات الصحيحة، كما يُفترض أن يكون الأمر.

يتكئ مستر «بيرز» على كرسيه ويحدِّق في مكتبه مستغرقًا في التفكير:

ـ والآن دعينا نرَ، هل يمكنك الصلاة في فصل فارغ؟ أستطيع تدبير واحد إذا كان ذلك مناسبًا.

ويقول:

ـ يمكنك استخدام غرفة التخزين المجاورة لمكتبي. ستكون لك خصوصيتك؛ لأنه مكان بعيد نسبيًّا، ويمكن الوصول إليه من مكتبي، لذلك ادخلي مباشرةً عندما تحتاجين إلى ذلك. كم تستغرق الصلاة من الوقت؟

ـ حوالي عشر دقائق.

ـ أوه! هل هذا كل ما في الأمر؟ إنه أمر جميل وبسيط إذن.

نعم، إنه معلمي المفضَّل، المفضَّل، المفضَّل.

(٥)

أول شيء أفعله عندما أصل إلى البيت، هو القفز فوق سريري والاتصال بليلى:

ـ يا إلهي! ارتديته! في المدرسة! مدرسة «مكلينز»! وكل شخص كان يحدِّق وكأنه مذهول ويتجنَّبني، وكان مستر «بيرز» رائعًا جدًّا ومس «والش»، حسنٌ، نعم، أُصيبت بدوار لكن ذلك كان متوقَّعًا، وكانت «سيمون» و«إيلين» مساندتيْن جدًّا، و«تيا» كشرت في وجهي وكأنني دخلت مغطَّاة بروث البقر، ولكنني، كنت سأشعر بالإهانة لو أنها تجاهلتني، ليلى، كان الأمر مدهشًا ومخيفًا و...

ـ أمل! بهدوء رجاءً!

أقول لاهثة:

ـ حسنٌ، حسنٌ، آدم تجاهلني يا ليلى!

ـ لم يفعل!

ـ كان ذلك قاسيًا!

ـ إذن واجهيه. أنت لستِ من النوع الذي يجلس ويبكي في زاوية.

ـ كم استغرق منك الأمر لتشعري بالثقة؟

ـ أحيانًا أكون متوترة؛ يعتمد الوضع على المكان الذي أكون فيه، لكنني تعودت على الأمر الآن. الحجاب جزء مني. عليَّ أن أتركك! ماما تناديني، إنها في نوبة غضب لأنني لا أستطيع أن أتحنَّط وأراقبها وهي تطبخ الليلة. أراك على خير!

أنهي المكالمة وأتصل بياسمين. كانت ردة فعلها أن راحتِ تزوِّدني بمحاضرة طويلة حول الأهمية الملحَّة لوضع المكياج:

ـ أخبريني هل وضعتِ كحلًا اليوم؟

ـ هل وجهك مكشر وأنت تنتظرين إجابتي؟

ـ نعم.

ـ أنا سعيدة لتخييب ظنك. الإجابة «لا» بالبنط العريض.

ـ إنك أكثر من مثيرة للشفقة يا أمل. ألا تفهمين أنك إذا وضعت الكحل وظل الجفون ستبدو عيناك فتاكة مع الحجاب؟ ثقي بي. رأيتِ ماما؛ عيناها تشبه عينيك، على الرغم من أن عينيك قد تكون أكثر ميلًا إلى الأزرق المخضر، ويعلم الله وحده لماذا تحصلين أنت على العينين الملونتين، بينما أنا التي تعرف كيف تضع مستحضرات التجميل...! عندما تزيِّن ماما عينيها تحت حجابها تبدو جذابة.

ـ ياسمين، مديرتي ستوقفني أمام طابور الصباح وتغسل لي المكياج بسلك غسيل الصحون إذا ما ذهبت إلى المدرسة بكامل أناقتي.

ـ أرأيت؟ أنت تعيشين في عالم اللاأناقة. على أية حال، لنعد إلى محاولتك ارتداء الحجاب من دون مساعدة كحل «ريفلن». أكره أن أخيِّب أملك، ولكن هناك عدد قليل جدًّا من النساء في هذا العالم ممن يستطعن الاحتفاظ بمنظرهن الطبيعي. ألا تقرئين مجلة «نيو ويكلي»؟ فضائح النجمات من دون مكياج...إلخ؟ أهلًا هل لديك عقد لتكوني عارضة أزياء ولم تخبريني عنه بالأمر؟ هل أنت ستمثلين في فيلم «براد بت» القادم؟ إذا كانت إجابتك على أيٍّ من هذين السؤالين هي لا، فاخرجي واشتري بعض منتجات التجميل فورًا.

نتحدث وقتًا طويلًا. أخبر ياسمين عن مس «والش» و«سيمون» و«إيلين» و«تيا تاموس» ومستر «بيرز» وآدم، وآدم، وآدم. تتخمني بالقيل والقال في مدرستها وتخبرني عن بعض الأشخاص من مدرسة الهداية الذين انتقلوا إلى هناك ويبعثون سلامًا إليَّ. نتحدث ونتحدث، إنني أفتقدها هي وليلى كثيرًا إلى حد الألم.

* * *

في أثناء العشاء يخبرني والداي أن مس «والش» اتصلت بهما وتريد رؤيتهما غدًا. اتفقوا على اللقاء في الخامسة. أنا شاحبة، ماما تريدني أن أهدأ، وبابا يريدني أن أتوقف عن نظريات المؤامرة.

أناشدهم:

ـ لا أرغب في خلعه، إذا استطاعت أن تجبرني على خلعه سأشكوها في المحكمة!

يقول بابا متذمرًا:

ـ كُفِّي عن هذه التراجيديا.

ـ حسنٌ، سأفعل!

تقول ماما ساخرة ـ وهي تبدو متسلية بالأمر كله:

لا أحد سيشكو أيَّ أحد في المحكمة، أو يوجِّه مثل هذه التهديدات.

ـ حسنٌ، جيد. سأتصل بصحف الفضائح، أنا متأكدة أنهم سيهتمون، أستطيع الآن تخيُّل موضوع الغلاف: «فتاة مسلمة بريئة ضحية تعصُّب مدرسة للقواعد».

يضحك والداي، مع أني لا أرى في الأمر ما يُضحك.

يقول بابا، واضعًا الشوكة والسكين بهدوء عند زاوية مناسبة من صحنه ومسويًا المنديل فوق حجره بطريقته المعتادة، التي توحي بأنه شخص غريب الأطوار، ويأكل دائمًا وكأنه في مطعم خمس نجوم:

ـ اسمعي، الأمر في غاية البساطة يا أمل. كل ما نريد معرفته أنا وأمك شيء واحد؛ هل أنت مقتنعة؟

ـ أعتقد أنني كذلك... أقصد، نعم بالتأكيد، كان الأمر في الواقع صعبًا في المدرسة، والكل كان يحدق فيَّ، وعرفت أن الجميع يتساءل عمَّا إذا أصابني الجنون. أعرف أن الأمر يبدو كما لو أنني أدفع بنفسي إلى الجنون. هل تعيان ما أقول؟ لا يمكنني وضع الحجاب والذهاب إلى مدرسة «مكلينز» متوقِّعة ألا يتعجب الجميع مما يحدث.

يقول بابا:

ـ بالضبط، هذه فكرتنا، لماذا ترتدين الحجاب وأنت تعلمين ما يترتب

على ذلك؟ هل أنت مستعدة ذهنيًّا لمواجهة التحديق والأحكام الجاهزة والأفكار الخاطئة من ذوي العقول الصغيرة؟

قبل أن أُجيب تقول ماما مقاطعة:

ـ تعرفين ردة فعل الناس تجاهي وكيف ينظرون إليَّ، في سنِّي هذه! أنت ما زلت صغيرة وفي بدايتك. أمامك الجامعة ثم البحث عن عمل. هل فكرت في كل ذلك؟

ـ ماماااا! أنا لست طفلة! قضيت كل دقيقة في الأيام الأربعة الماضية أفكر في كل الصعاب المحتملة. وتوقعت كل التعليقات الذكية التي سيقولها الناس عني. يا رأس البامبرز، أين الجمل؟ وجميع التعليقات الأخرى. نعم أنا خائفة. حسنٌ، هاكم، فرحتم؟ أنا مرعوبة. عندما أدخل الصف أرغب أن أتقيّأ من شدة توتري، لكن هذا القرار ينبع من قلبي، لا أستطيع تفسيره أو عقلنته. حسنٌ، إنني أقوم بذلك لأنني أثق أن هذا واجبي، ويميزني كفتاة مسلمة لكنه ليس وكأنه... لا أعرف كيف أعبِّر عن ذلك... إن الحجاب يعني لي أكثر من ذلك.

أرشف رشفة كبيرة من الماء؛ لأن ثمَّة غصة بدأت تعيق الطريق في حنجرتي، وآخر شيء أتوقعه أن يراني والداي أبكي. لذلك أبلع الماء في ثوانٍ، وأتمكن من تمديد زاويتي فمي لأرسل لهما ابتسامة صغيرة. على كل حال، الجميع يعرف أنك عندما تكون في السادسة عشرة لا تبكي أمام والديك، فأنت لا تريد أن تفتح موضوع «كفوا عن معاملتي كطفل» مرة أخرى.

يتبادل والداي نظرة سريعة ويبتسمان لي بدفء. تمدُّ ماما يدها وتضغط بقوة على يدي:

ـ نحن فخوران بك يا حبيبتي.

يقول بابا:

حسنٌ، يا أمل، نفهمك. هذا كل ما نرِيد معرفته يا حبيبتي. اتركِي الباقي على أمك وعليَّ.

تقول ماما:

ـ والآن ناوليني السَّلطة، وأخبِرينا كل ما نحتاج معرفته عن مس «والش» هذه.

* * *

نجري أنا وبابا قرعة لتحديد من سيرمي القمامة بعد العشاء أو سينظف المائدة. كان من نصيبي رمي القمامة.

بينما أصعد مشيًا إلى جانب البيت وأضع القمامة في الحاوية، لا أنتبه تقريبًا إلى السيدة «فاسِلي»؛ جارتنا في البيت. تجلس في شرفة بيتها الأمامية، وأسمع فجأة سعالًا حادًّا و«باسم الآب، والابن، والروح القدس».

إنها نكِدة، عندما تبتسم لها تعبس، وعندما تومِئ لها تلعنك. وإذا حاولت التحدث معها تتظاهر بعدم سماعك، وإذا تجاهلتها تشتمك باليونانية! أكره أن أكون في الخارج في نفس الوقت الذي تكون فيه هي في الخارج.

لا أعرف كيف يبدو مزاجها، لكنني أجاهد لرفع غطاء الحاوية وأصابعي مخدَّرة من البرد. إنه مساء شتوي نموذجي في «ملبرن» عندما تأخذ نفسًا من الهواء ويبدأ جسدك في التشنُّج وكأنك تأخذ رشفة سريعة من عصير فواكه مثلج من محل «سفن إلفن» فيتجمد رأسك من الألم.

أنظر في اتجاهها وألوِّح لها محيِّية وأنا متضررة؛ لأنني إذا لم أفعل

فقد تخبر والديَّ، ومن ثَمَّ سأخضع لمحاضرة «إنها امرأة عجوز، أظهري بعض الأدب».

أقول منادية:

ـ مرحبًا سيدة «فاسِلي».

ـ لمازا ترمين علبة السجائر في هَديكتي؟

لها لكنة ثقيلة، ولغتها العربية مكسرة، وصوتها يبدو كأنه ينفث غضب سنين.

ـ أنا لا أدخِّن يا سيدة «فاسِلي».

يبدو أن البرد وصل رأسها بشكل واضح.

ـ هه! متأكدة؟ ربما تُمثِّل أنك بريء أمام أبويك. لكن لا تستطيع أن تخدعني!

أقول بحزم:

ـ قلت إنني لا أدخِّن، ربما أحدهم كان يمشي في الشارع ورماها. ربما هبوب الريح ألقاها هنا. هناك مليون طريقة قد تكون انتهت بها في حديقتك، ولكن ليس من بينها أني أدخن!

ـ هاه!

تصدُّ بوجهها على نحو فظ، كإشارة إليَّ إلى أن المحادثة انتهت.

* * *

أدعو في الصباح التالي عند صلاة الفجر أن تسمح لي مس «والش»

بارتداء الحجاب!.. وأن تنمو بعض خلايا المخ لدى والديْ ليلى ويكفَّا عن الضغط على ليلى بشأن الزواج، وأن تنجح حمية «سيمون» القادمة، وأن نصبح أنا وآدم أعزَّ صديقين، وأن تسمح لي مس «والش» بارتداء الحجاب!.. أدعو أن يُمنح الفلسطينيون نفس الحقوق والحرية والكرامة التي يتمتع بها الإسرائيليون، وأن تمتلئ الشوارع بالإسرائيليين والفلسطينيين يمشون بسلام جنبًا إلى جنب، وأن تسمح لي مس «والش» بارتداء الحجاب!.. وأن تفقد «تيا» شعرها ـ أقصد أن تتجاوز طبعها المتسلِّط ـ وأن يكفَّ زملائي في الصف عن معاملتهم الصامتة لي، وأن تسمح لي مس «والش» بارتداء الحجاب!..

(٦)

أنا قلقة جدًّا في حجرة اللقاء المدرسية، وأيضًا في حصة اللغة الإنجليزية، ثم في حصة الرياضيات، ثم في الاستراحة. وعند الساعة الثالثة تتوتَّر «سيمون» و«إيلين» مثلي، وتتمكنان من قتل الوقت بالتهام رزمة كاملة من «الدُّونَتْس» بين الحصتين الأخيرتين بانتظار حلول الخامسة بالضبط.

تتمنيان لي حظًّا سعيدًا وهما تصعدان الأتوبيس. أخبر والديَّ أنني سأبقى في المدرسة ثم أغادرها معهما إلى البيت. يستحيل أن أنتظر في البيت بينما هما هناك مع مس «والش» يناقشان أهم شيء فعلته في حياتي. أنتظر بقيَّة النهار في المكتبة. أحاول أداء بعض واجباتي، لكن اسم مس «والش» كان يظهر في كل سطر أقرأه. لذلك أتوجه إلى قسم الموسيقى، وأضع السماعات وأستمع إلى ألبوم موسيقي، لكن اسمها أيضًا يقفز بين كلمات الأغنية كلها. لذلك أجلس وحسب، وأحدِّق في شجرة سنديان ضخمة خارج النافذة.

أسقط في أحلام اليقظة متخيِّلة جميع مَن في المدرسة يتجاهلني لأسابيع وأشهر. وأتخيل أنه في صباح أحد الأيام في أثناء الطابور المدرسي، وبينما تنقض مس «والش» على الميكروفون وتلقي محاضرة عن أضرار مضغ العلكة، تصلها رسالة أن أتوبيسًا صدمني، لا، لتكن

شاحنة، وأنني في العناية المركَّزة. تبدأ مس «والش» في البكاء، ويسقط الميكروفون ليتحطم بطريقة درامية، ثم تندفع إلى المستشفى مع حشد من زملائي في الصف ليمطروني بالزهور والاعتذارات. يقترب آدم من السرير ويمسك يدي، هامسًا أنه يريدني أن أصحو من غيبوبتي لأنه يحبني، ويرى أنني أبدو جميلة بالحجاب لأنه يبرز عينيَّ. أنغمس في حلمي إلى حدٍّ أن عينيَّ سرعان ما بدأتا تغيمان وجلدي كله اقشعر. ولا أعود إلى الواقع إلا عندما أحس بحنجرتي تختنق.

سرعان ما تصبح الساعة الخامسة والنصف، ثم الخامسة وخمسًا وأربعين دقيقة، ثم أبدأ في الشعور بالرعب. يقترب مني أمين المكتبة، مستر «تومسن»، ويخبرني أنهم يغلقون المكتبة في السادسة بالضبط. لذلك أُلملم أغراضي وأنتظر في الخارج على مقعد في الساحة الرباعية الزوايا، متسائلة، وأسناني تصطك وأنفي يحمر، عمَّا إذا كان الأمر سيَّان لو كنت انتظرتهما في البيت.

ثمَّ يرنُّ هاتفي، وتخبرني ماما أن أقابلهما عند موقف السيارات. وأركض، وهو أمر صعب بحقيبة ظهر تمتلئ بالكتب المدرسية والملفات، لكنني لا أهتم فأركض وحسب، وحجابي يرفرف مع الهواء.

يبحث والداي عني عند موقف السيارات. أنطلق نحوهما، وتوبخني ماما لأنني أركض بحقيبة ظهر ثقيلة، وتسألني عمَّا إذا كنت أريد أن أصير حدباء عندما أكبر. يحضنني بابا، ثم أقف أمامهما لاهثة ومتعرِّقة، والهواء البارد يباغتني.

ـ إذن، ماذا قالت؟ هل أستطيع ارتداءه؟

ولا أعلم لماذا، ولكنني أنفجر بالبكاء، ثم تحضنني ماما، وتخبرني أن

الأمر سيكون على ما يرام، أما بابا فكانت تلك فرصته ليتقمَّص شخصية مستر «برادي» المفضلة لديه ويخبرني أن الأمر انحلَّ، فأبكي وأبكي؛ لأنني حتى هذه اللحظة فقط لم أكن متأكدة مما أريد.

* * *

نذهب إلى مطعم ياباني في شارع «برونزويك». علينا خلع أحذيتنا، وبابا يحس بالحرج لأن ثمَّة ثقبًا هائلًا في جوربه الأيمن يبرز منه إصبعه الكبير. يندفع بسرعة مارًّا بالنادلة ويرتمي على الوسادة حتى لا يلحظه أحد.

أسأل بعد أن أخذت النادلة طلبنا:

- إذن، ماذا حدث؟

لم نتحدث عن الأمر في طريقنا إلى هنا. كل ما أخبراني به هو أنه مسموح لي بارتداء الحجاب. وكان ذلك كافيًا لجعلي في نشوة سعيدة طوال الطريق، نافذتي مفتوحة، ووجهي ينعشه النسيم الثلجي، بينما ينتفخ حجابي مع الريح. كان إحساسًا جميلًا.

يقول بابا:

- حسنٌ، كان غريبًا، ولكن يبدو أنها كانت تحت تأثير أننا لم نوافق على قرارك. لديك فكرة من أين أتى ذلك؟

- أخذت تلمِّح إلى أنكما وجهتما مسدسًا إلى رأسي لأرتدي الحجاب، وشرحت لها أنكما في الحقيقة كنتما قلقين عليَّ.

- عندما دخلنا كانت تريد أن تتحدث عن كيف يمكننا نحن الثلاثة أن نقنعك بالعدول عن الأمر.

أنظر إلى ماما وأنا مصدومة.

ـ لا لم تفعل؟

تواصل ماما:

ـ نعم، قالت إنها تتفهَّم قلقنا تمامًا واستدعتنا إلى الاجتماع لمناقشة طريقة ما لإقناعك بعدم الاستمرار في الأمر. فمك لا يزال مفتوحًا يا أمل، أغلقيه.

ـ وماذا قلتما لها؟

ينظر والداي بعضهما إلى بعض، ويبتسمان ابتسامة عريضة.

يأخذ بابا رشفة من المياه الغازية:

ـ حسنٌ، لنقل إننا أنهينا الأمر.

ـ و...؟

ـ تقول ماما:

ـ ليس من شأنك يا أمل.

ـ ماذا؟ إننا لا نطبِّق التعديل الخامس(*) هنا. يمكنكما أن تخبراني.

أبدأ بالمناشدة، لكنهما يرفضان إخباري بالتفاصيل؛ لأنهما يعتقدان أن ذلك قد يؤثر على علاقتي بمس «والش». يؤثر على علاقتي؟ ماذا تعتقدان؟ أنه كان بيننا علاقة في الأساس؟

يقول بابا:

(*) التعديل الخامس في الدستور الأمريكي يقضي بوجود الهيئة الاتهامية في المحاكمة التي تقرر مدى كفاية الأدلة في تحقيق ما. (م).

ـ إنها مديرتك، ويجب أن تكوني على علاقة جيدة معها.

تقول ماما:

ـ ولا تقلقي، كانت فقط تحاول فهم قرارك يا أمل، الوضع جيد الآن، شرحنا لها كل شيء.

يقول بابا:

ـ إن ذلك كان قرارك تمامًا وهو جزء من هويتك الدينية، وإنك سترتدين الحجاب بأي لون يرونه أكثر تناسقًا مع زيِّك...

أسألهم وأنا أتمنى ألا يكون اللون المتفق عليه هو البنفسجي أو الأصفر البشع من ألوان زيِّنا الرسمية:

ـ ما اللون الذي وافقتْ عليه؟

تجيب ماما:

ـ بنفسجي، ولا تكشري هكذا. ينبغي أن تكوني...

أقول بتذمر:

ـ شاكرة، نعم أعرف.

يصل الطعام ونشرع في أكل «تمبورا» الربيان والأرز بالبخار.

تقول ماما:

ـ أمامك حتى يوم الاثنين القادم لتبدئي ارتداء الحجاب بذلك اللون، سنذهب للتسوق يوم السبت.

ـ حسنٌ... إذن ما رأيكما في مس «والش»؟

لكنهما لم يجيبا، بل أخذا ينظران بعضهما إلى بعض ثم قالا:

- إحم.

* * *

يتم استدعائي إلى مكتب المديرة عبر مكبِّر الصوت في أثناء حصة الرياضيات في اليوم التالي. دائمًا تبدو على الجميع نظرة «هل أنت في مشكلة؟» عندما يحدث ذلك. يسمح لي مستر «لوفر» بالانصراف، وبعد خمس دقائق أكون جالسة على الكرسي الصنوبري الصلب في مكتب مس «والش» وأشاهدها تضغط على صدغيها مجدَّدًا.

تبدأ قائلة:

- أظن أن والديك تحدَّثا معك؟

- نعم، الليلة الماضية.

- قرَّرت أن أسمح لكِ بارتداء الحجاب.

- نعم، أعرف! شكرًا مس «والش».

- والآن، قررت أن ترتدي الحجاب باللون البنفسجي، سينسجم ذلك على الأقل مع باقي الزي. أمل، أحتاج إلى أن أسألك، حتى لا تكون هناك أيَّة بلاغات أخرى، عمَّا إذا كان هذا هو الرمز الديني الوحيد الذي تنوين إظهاره.

أشعر لحظة وكأنني أقف في منصة الشاهد، فبدأت أشعر ببعض الانزعاج من استجوابها، لكنني أحاول بعد ذلك أن أضع نفسي في مكانها وأفكر في الأمر من منظورها.

- ممم، نعم هو كذلك يا مس «والش».

ـ إحم... صحيح. أنا مسرورة أن الأمر قد انحلّ. سجّلت حالتك في موضوعات أجندة اجتماع الهيئة التدريسية الليلة حتى نشرح موقفك للمُعلمين. لا شيء يستدعي القلق من ناحيتك. إن ذلك سيساعد ببساطة على تهدئة فضولهم وسيمنحهم أيضًا الفرصة لمناقشة كيفية التعامل مع الأمر.

ـ التعامل مع ماذا؟

ـ أمل، أرجو أن تقدّري أن هذا شيء... غير مألوف نوعًا ما. أحترم قرارك وحقك في ممارسة عقيدتك، لكنك تبدين مختلفة الآن يا عزيزتي. لا أريدك أن تفسري ذلك بشكل غير صحيح، ولكن يا أمل لا بد أن تدركي أنني أحيد عن طريقي لأسهّل لك الأمر. أنا متأكدة أن هناك مدارس للقواعد في أستراليا ستمنعك من ارتداء الحجاب بسبب قواعد الزي الصارمة.

ـ أوه! لم أعرف.... أنا... أم... أقدّر مساندتك، مس «والش».

ـ أعرف ذلك يا أمل. أرجو أن تقدّري أيضًا أنني يجب أن أفكّر في الأمور من منظور أوسع. كل شيء يمكن أن يحدث في عالم اليوم. فإذا ما سمع الإعلام عن كلمة حول الأمر، أنا متأكدة أنه سيكون مهتمًا. تُعدُّ مدرسة «مكلينز» هي إحدى أرقى مؤسسات «ملبرن» وهي معروفة بنظامها الصارم جدًا.

ـ نعم، أعرف...

ـ على أية حال، أنا متأكدة أنه لن تكون هناك مشكلة، لكنني أحتاج إلى أن أنصحك يا أمل، بأنك الآن تحملين على عاتقك مسؤولية أكبر لتمثلي هذه المؤسسة بإخلاص. بسبب حجابك ستكون العيون كلها عليك خارج المدرسة، لذلك أنا واثقة من أنك لن تعرّضي سُمعتنا لأي ضرر. مفهوم يا أمل؟

ـ نعم.

ـ حسنٌ جدًّا. تستطيعين العودة إلى صفك الآن. يومًا سعيدًا.

ـ شكرًا.

لا أذهب إلى صفي مباشرة. أذهب إلى الحمام وأجلس على أحد المقاعد لكي آخذ نفسًا عميقًا.

تنفسي.

أنا ضمن موضوعات أجندة؟ الإعلام؟ ما الذي وضعت نفسي فيه؟

تنفسي.

لا بأس. يبدو أنها تقف في صفي. إنها ليست بالسوء الذي تخيلته.

تنفسي.

باستثناء هذا، بجدٍّ، ما المشكلة بينها وبين كلمة مؤسسة؟

* * *

إنه الأربعاء. «سيمون» و«إيلين» الوحيدتان اللتان لم تستغربا حجابي، أوه! و«جوش جولبرج». «جوش يهودي»، له أبناء عم يهود أرثوذكس، لكنه ـ حسبما أرى ـ يهودي علماني. ومع ذلك، لا أعتقد أن حجابي غريب حقًّا بالنسبة إليه. اليهوديات الأرثوذكسيات أيضًا يغطِّين شعورهن، وهناك أطنان من الأشياء المتشابهة بين دينهم وديننا. ننسجم منذ الأسبوع الأول في «مكلينتز».

أما بالنسبة إلى باقي الصف، فقد مضى يومان كاملان منذ بداية الفصل

ولا يزال هناك تهذيب غير مريح بيني وبين الآخرين. حسنٌ، لن أسمِّي ذلك تهذيبًا مع «تيا» و«كلير» و«ريتا»، اللاتي ما زلن في روتين الضحك المكبوت، وهذا جيد، أستطيع تدبر هذا الأمر. إنهما على الأقل تعترفان بوجودي، ولكن الآخرين يعاملونني بتهذيب مبالغ فيه.

وعندما يتعلق الأمر بالأولاد، حسنٌ، بعضهم يتصرف كأنه خائف مني تقريبًا. كما لو أنه غير مسموح لهم التحدث إليَّ، أو كأنني سأنبح في وجوههم لو قالوا شيئًا. اصطدم بي أحد الأولاد، اسمه «تيم ماني»، مصادفةً عندما كنَّا نخرج من الصف، ثم تلعثم واعتذر وابتعد مسرعًا، وكأنه لا يريدني أن أعتقد أنه يدعوني للتحدث إليه. منذ أول يوم لي هنا لم أسمع ولدًا يعتذر لبنت اصطدم بها أبدًا. كنت على وشك إلقاء مزحة حول الأمر، للتخفيف من التوتر، لكنه كان قد وصل إلى منتصف الطريق في اتجاه المدخل.

ثم كان هناك آدم. لم يتفوَّه لي بكلمة منذ بداية الفصل، إنه فقط يبتسم على نحو أخرق إذا التقت عيوننا، ويشيح بنظره بسرعة، إن ذلك شنيع! عندما يتجاهلني هكذا يبدو الأمر وكأن أحدًا معه مقشرة البطاطا ويقشِّر بها طبقات جلدي بشكل تعذيبي. هذا الصباح، عند المدخل، أسمع البنات مصادفة يتحدثن عني بجانب الخزانات. إحداهن تقول كلمة «مضطَهَدة» والأخرى تقول شيئًا عني يبدو مثل الروث. لا أستطيع الذهاب إليهن؛ لأنهن سيعرفن لحظتها أنني أسترق السمع، لذلك أمضي ببطء، شاعرةً كأني غلاية ماء على وشك الصفير والصراخ.

بودي لو أقول إنني رجعت إلى الخزانات وغرست نفسي أمام أولئك البنات. بِودِّي لو أقول إنني حدقت في عيونهن وأعطيتهن ردًّا لاذعًا مدمِّرًا يصدمهن ويخرسهن. ولكن ألا تكرهون أنفسكم عندما تفكرون دائمًا في

الرد المُفحِم بعد فوات الأوان؟ على كل حال، في الوقت الذي ستواتيني فيه الشجاعة في مجرد التفكير في العودة، يكون الجرس قد رنَّ واللحظة فاتت.

لذلك أواصل المشي وحسب.

* * *

في استراحة الغداء أتسكَّع مع «سيمون» و«إيلين» في القاعة العامة للصف الحادي عشر. نتمكن من الاستئثار بالمكان؛ لأن اليوم مشمس ورائع والجميع في الخارج. لكن «إيلين» تشكو من مغص وترفض الابتعاد عن السخان المثبت على الجدار. «سيمون» وأنا في مزاج عابث بشكل كبير، ونتبادل الأدوار في تقليد المعلمين الذين نكرههم. أنا سيئة تمامًا عندما أقلِّد الأصوات، ولكن «سيمون» محترفة. تستطيع تقليد النغمة والنبرة بشكل يقترب من الكمال. يمكنها القفز من تمثيل شخصية مس «والش» إلى «مايكل جاكسون» إلى «أوستن باورز». يمكنها تقليد أية نبرة أو أي تعبير على وجهي. تكون «سيمون» عادة متحفِّظة وهادئة، وينتابك شعور أنها تتمنى لو تختبئ خلف ستارة. ولكنها عندما تكون في هذا المزاج، يشع منها هذا الجانب الواثق المدهش، عاصفًا بي وبـ«إيلين».

نحن اليوم في حالة هيستيرية بينما تؤدي «سيمون» تمثيلًا رائعًا جدًّا لشخصية مستر «تايلور»، أستاذ مادة الدراسات القانونية وهو يخبرنا كيف أن حياتنا بأكملها تعتمد على تقديرنا للدستور الأسترالي. ومستر «تايلور» لديه عادة توكيد فكرته باستخدام ثلاث صفات أو ثلاثة أفعال مصفوفة في صفٍّ واحد.

تبدأ «سيمون» بصوت رتيب، مُطوِّحةً بذراعيها بقوة عند كل مقطع:

ـ أيها التلاميذ، يجب أن تعرفوا، أنكم إذا فشلتم في أن تفهموا، في أن تدركوا، في أن تحسوا بقوة كلمات الدستور، فإنكم ستخسرون، ستفقدون، ستتنازلون عن قدرتكم على التمكُّن البارع من فهم معنى هذه الوثيقة الأكثر أهمية. يجب أن تقرأوا بذهن منفتح حتى تغذوا وتهتموا وترعوا مواطنتكم. هل ما قلته واضح، ومقتضب ومفهوم؟

نسقط نحن الثلاث فوق المقاعد ضاحكات عندما نسمع فجأة شخصًا في الخلف. تلوذ «سيمون» بالصمت فورًا، ونلتفت لنرى «جوش» واقفًا عند الباب، وابتسامة عريضة على وجهه.

أسأل:

ـ «جوش»! من أين أتيت؟!

ـ كنت آتيًا لآخذ كتاب. لم أرغب في مقاطعة أداء «سيمون». تقليد ممتاز يا «سيم».

تنظر إلى كفيها، وتبدو تعابير خوف فوق وجهها المحمر. تغمغم مشيحة بوجهها بسرعة وهي تتظاهر بلملمة كتبها:

ـ شكرًا.

لا يبدو أن «جوش» لاحظ حرجها:

ـ لقد قلدته بالضبط. إنه هكذا يستخدم ذلك الصف الثلاثي للكلمات. لديكِ موهبة!

تنظر «سيمون» إلى الأعلى ثواني وتبتسم بخجل، مشيحةً بعينيها بسرعة عن وجهه المبتسم.

يقول ملوِّحًا بيده بشكل عرضي عند خروجه:

ـ أراكنَّ لاحقًا.

ألتفت أنا و«إيلين» إلى «سيمون» باندهاش.

ـ ناداني «سيم»...

أقول:

ـ أعرف! كم بدا ذلك جذَّابًا!

تقول «إيلين»: يا لها من جرأة! إنه لطيف جدًّا! أظن أنه مغرم بك يا «سيم».

تنظر إلينا «سيمون» بخزي:

ـ هل تمزحان؟ وكأنه نظر مرتين! إنه يتصرف... بلطف وحسب... كم كان الأمر محرجًا... أوه يا إلهي، لقد رآني أقفز هناك مثل حمقاء... ربما كانت ذراعاي تترجرجان و... أُخخخ..

تنظر إلى جسدها بتقزُّز وتهز رأسها. أبدأ أنا و«إيلين» بتسديد قذائفنا.

ترد «إيلين» بحدَّة:

ـ أوه! لأجل الله يا «سيمون»! أنت لست سمينة! توقفي عن التصرُّف وكأنك بحجم أحد قصور ضاحية «توراك». لقد رأيتُ كيف ينظر الشباب إليك وأنت تمشين في الشارع.

ـ تعتقدين ذلك حلمي؟ أن ينظر الشباب إليَّ؟ الشباب سينظرون على مصباح في الشارع إذا كان فيه ثديان!

أقول:

ـ سيمون، اهدئي وحسب، امنحي نفسك استراحة، هل تفعلين؟

ـ هل تحاولين التلميح إلى أنني أحتاج استراحة، وأنه ينبغي عليَّ أن أتناول كيت كات؟

أقول ضاحكة:

ـ بالطبع، ذلك هو، كنت ألمِّح إلى أنك بقرة سمينة وينبغي أن تذهبي وتقتحمي محلًّا كبيرًا للشوكولاتة.

ـ جيد، لأن آخر ما أحتاجه من كل منكما الشفقة!

تقول «إيلين»:

ـ حسنٌ، لن تحصلي عليها لأنه لا شيء فيك يثير الشفقة، باستثناء فشلك في استعمال بعض التفكير وإدراك أنك لست...

تقول بتذمر:

ـ حسنٌ، حسنٌ! القصد مفهوم! أُحب نفسي. سعيدتان؟ إنني فقط متحمسة جدًّا. أنا فوق القمر؛ لأن ذاك الشاب الجذَّاب دخل لتوه ورآني أقفز مثل ديك رومي مشوي في عيد الميلاد يرقص رقصة «الراب»!

ترفع «إيلين» حاجبيها لي:

ـ همم، من الجيد الحصول على القليل من الحكمة الآن. ألا توافقين يا أمل؟

ـ كلا، لا أوافق.

تقول «سيمون» بانتصار:

- شكرًا لكِ!

- أقصد، بالتأكيد يا «سيمون»، تبدين مثل دجاجة محشوَّة. بل مثل ديك رومي في عيد الشكر. لحمك سيجعل الديك الأحمر متوفرًا في السوق شهورًا.

- لماذا لا تذهبان أنتما الاثنتان وتحقنان بعض السعرات الحرارية في خلاياكما المصابة بفقر الدهون؟

أقهقه أنا و«إيلين»، وتُخرج «سيمون» لسانها لنا.

* * *

أمشي صباح السبت إلى محل بيع الحليب؛ لأبتاع صحيفة نهاية الأسبوع لوالديَّ وآخر إصدار لمجلة «كوزمو». أنا متعصبة حقيقية لـ«كوزمو»، وبارعة جدًّا في حل ألغاز «كوزمو». وبحسب «كوزمو»، أنا وآدم نناسب بعضنا بعضًا تمامًا، على الرغم من أن عدد يونيو أعطانا علامة منخفضة في التوافق الجسدي، ولذلك رميت ذلك العدد.

جميع أعداد «كوزمو» مكدَّسة تحت سريري؛ لأن ماما تكره أن أقرأ مثل هذه «المجلات البذيئة» التي لا تحوي شيئًا سوى الجنس والفتيات النحيفات. تعتقد أنني حينما أقرأ هذه المجلات سأقضي معظم ليالي السبت أثب كالكرة داخل السيارات وأتقيّأ غدائي. حسنٌ، لقد ضبطتني أنا و«سيمون» الشهر الماضي ملتصقتين بصفحة في المجلة عن أجزاء جسم الذكر. يا إلهي كم كان ذلك مُحرجًا! وكم استبدَّ بها الغضب! أجلستني لمحاضرة كبيرة بين أم وابنتها حول الجنس والحميمية وكيف تفسد المجلات والأفلام العلاقة الأثيرة بين الرجال والنساء وإلخ، إلخ،

إلخ. كان ذلك تعذيبًا. على كل حال، إذا اكتشفت أني اشتريت عدد هذا الشهر، الذي يتضمن مقالًا حول ما يحبه الشاب حقًا في الفتاة، فسوف تعلقني في الخارج لأجفَّ مع الغسيل.

في طريق عودتي من محل بيع الحليب، ومعي «كوزمو» محشورة داخل سترتي، أرى السيدة «فاسِلي» تقف في الخارج تسقي ورودها. ترتدي جوربيها الأسودين الكثيفين اللذين ترتديهما على مدار العام، وتنورة ذات ثنيات، وكنزة صوفية، وحذاء تلميذة مدرسة. إنها تلبس على هذا النحو في أوج الصيف أيضًا.

أصيح:

ـ مرحبًا سيدة «فاسِلي».

آلية دفاع أخرى لتجنب محاضرة. تتوقف ضاغطة على خرطوم الماء من المنتصف. تعبس في وجهي، ثم تلتفت لتسقي نبتة أخرى. وبينما أستدير في اتجاه الطريق المؤدي إلى بنايتنا تندفع فجأة ناحية سياجنا وتبدأ الصراخ فيَّ.

ـ خبِّري بائع جرائد لا يرموا السُّهُف فوق هَديقتي!

تندفع عائدة إلى منزلها.

أصيح وأنا أغلق الباب الأمامي بعنف وأندفع إلى المطبخ، حيث ماما تعدُّ الإفطار:

ـ يا للعجوز المتذمِّرة!

تسأل ماما:

ـ ما الأمر؟

ـ تلك العجوز الشكاءة مجنونة. كنت أمشي في اتجاه البناية وجاءت ناحية السياج وبدأت بالصراخ فيَّ.

ـ ماذا فعلتِ؟

ـ لماذا يتسرَّع الوالدان دائمًا في افتراض أنه لا بدَّ أن يكون أبناؤهم مَن فعل شيئًا خطأ؟

ـ اهدئي؛ لأنني أمك وأستطيع افتراض أي شيء أريد.

أغمغم:

ـ جميل، أحدث شكاويها القوية الضخمة أنه عند توصيل الصحف إلينا في أثناء الأسبوع، فإنها تُلقَى أحيانًا فوق حديقتها. إن هذا العمل الظالم يحرقها. يا إلهي، كم أتمنى أن تكون لديَّ مشاكلها! الصحف تلامس حديقتها الثمينة.

ـ لا تقولي ذلك يا أمل. إنك لا تعرفين أية مشاكل لديها.

ـ نعم، أعرف. إنها امرأة موسوسة ومتذمِّرة وتعيسة وتريد أن تفرض مزاجها السيِّئ على كل الناس.

أندفع إلى خارج المكان، وأخبط الأرض بقدمي بكل ما أوتيت من قوة وأنا أصعد الدرج.

(٧)

صباح الاثنين. وأخيرًا يقرر تلامذة صفي مواجهتي بشأن حجابي. أوشك على القفز من الراحة. أستطيع تحمُّل إهانة أو استجواب، لكنني لا أستطيع تحمُّل التحوُّل من التعامل مع كل الناس، مع الاستثناء الواضح لـ«تيا» وصديقاتها، إلى أن أكون منبوذة اجتماعيًّا.

بطريقة ما، بعد الغداء وبين الحصص، يجد كل شخص فجأة الجرأة للاقتراب مني، راغبين في معرفة ما الخطب بشأن شكلي الجديد.

تسألني «كريستي»، باندهاش ورعب:

ـ هل أجبرك والداك؟

ـ أخبرني بابا أنني إنْ لم أرتده سيزوِّجني من رجل عمره ستة وخمسون عامًا ويملك جملًا في مصر.

ـ لا!

إنها في الحقيقة مرعوبة.

تضيف «إيلين»:

ـ لقد تمت دعوتي إلى حفل الزفاف.

ـ حقًّا؟!

أعتقد أن المسكينة وقعت على رأسها وأثر ذلك على عقلها.

يصيح «تيم ماني»:

ـ هاي! أمل! ما حكاية الشيء الذي فوق رأسك؟

ـ لقد أصبحت صلعاء.

ـ تمزحين!

ـ إنني أخضع لبرنامج متقدم في معالجة الشعر.

لثوانٍ تومض عيناه من الصدمة. ثم يلكمه «جوش» على كتفه:

ـ هزمتك!

يقول «تيم» والارتباك بادٍ عليه:

ـ وكأني صدقتها.

يسألونني:

ـ ألا يسبب لك الحرَّ؟

ـ هل أستطيع لمسه؟

ـ هل تستطيعين السباحة؟

ـ هل تلبسينه في أثناء الاستحمام؟

ـ هل الأمر إذن مثلما عند الراهبات؟ هل أنت متزوجة عيسى الآن؟

إنه شيء لا يُعقل. الكل يسألني عن قراري ويبدو مهتمًّا بصدق بسماع ما سأقول. يحتشد الجميع حولي وأصير سعيدة جدًّا وأنا أشرح لهم كيف أرتديه، ومتى عليَّ ارتداؤه. ثم يزرع آدم نفسه أمامي ويبدأ مشاركة الآخرين. أودُّ لو أزرع قبلة ضخمة على وجهه لولا أن ذلك سيلغي في الحقيقة مقصدي من رحلتي الروحية بأكملها الآن، أليس كذلك؟

يسأل:

ـ هو خيارك إذن؟

أجيب:

ـ آه نعم! مائة في المائة.

ـ رائع! فكيف إذن يبدو مختلفًا عليك؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ هناك بعض النساء يغطين وجوههن، وبعضهن يرتدين قطعة حجاب شفافة جدًّا ويضعن ذلك اللون الأحمر فوق أيديهن. هل كلهن إسلاميات أيضًا؟

ـ تقصد مسلمات.

ـ هاه؟

يقول «جوش»:

ـ ما تقصده، أنَّ الدين هو الإسلام، والتابعين له هم المسلمون. مثلما لا يمكنك أن تنعت شخصًا باليهودية أو الكاثوليكية. فهمت؟

يومئ آدم برأسه:

ـ صحيح. إذن هل هنَّ مسلمات، مثلك؟

ـ نعم هن كذلك. ولكن كل فتاة تفسِّر الحجاب بشكل مختلف. يعتمد الأمر على ثقافتهن أو حسهن في الموضة، تعرف؟ لا يوجد زي واحد للحجاب.

يقول آدم:

ـ فهمتك.

أقول مواصلة:

ـ كثير من الإفريقيات يرتدين تلك الملابس، وقطع الحجاب الملتفة الملونة، أما النساء الأكثر تزمُّتا فيغطين وجوههن، لكن ذلك غير مطلوب في الإسلام. إنه خيارهن.

يسأل آدم:

ـ هل ستُغطين وجهك يومًا؟

ـ لا! مستحيل!

ـ حسنٌ... رائع!

نتابع جميعًا الحديث حتى تدخل مُعلمة الكيمياء، مس «صمويلز»، وتعلن أنها ستختبرنا لترى ما إذا كنا درسنا خلال الإجازة. نتورَّط في امتحان مفاجئ، وتمرِّر لي «كريستي» ملاحظة تملؤها بعلامات تعجب ووجوه مبتسمة.

أنا سعيدة فعلًا أن والدك لم يكمل موضوع العرس!!:):

لطف منها. لكن نظرية السقوط على الرأس في الصغر تتأكد.

* * *

أقول في أثناء الاستراحة بينما أنا و«سيمون» و«إيلين» نجلس في الخارج على الحشيش:

ـ حسنٌ، إنه وقت السؤال الشخصي يا «سيمون»، ما رأيك في «جوش»؟

تقول متنهدة وهي تأخذ قضمة من جزرتها:

ـ حالم بشكل لا يصدَّق!

تقول «إيلين»:

ـ لقد جعلتِه يضحك، هذه دائمًا إشارة جيدة. أظن أنه مغرم بك.

ـ جوش؟ مغرم بي؟ هناك إمكانية أكبر أن تزيل مس «والش» شعر شفتها العليا من أن يحدث هذا.

أتذمَّر:

ـ أوه رجاءً!

تقول «سيمون»:

ـ بما أننا نناقش موضوع الفتيان الجذابين بشكل يعاقب عليه القانون، ما الجديد بشأن آدم؟ هل لاحظت كم كان رائعًا عندما كان الكل يسألك عن حجابك؟ يكون عادة هادئًا وجادًّا.

تهتف «إيلين»:

ـ أعرف! بدا مهتمًّا بالفعل.

أبتسم لهما ابتسامة تجعل شفتيَّ تميلان إلى الجنب:

ـ إنه جذاب جدًّا.

تقول «إيلين»:

ـ ليحضر لي أحد ما كيس القيء، صديقتاي العزيزتان تطلقان نِكاتًا مبتذلة!

تقول «سيمون»:

ـ لا تقلقي، سنحاول أن نجد لكِ من تُفتَنين به أيضًا.

نضحك جميعًا ونتذمر من العادات المقززة للذكور في صفنا. ثم تميل «سيمون» ناحيتي:

ـ حسنٌ، سؤالي الافتراضي لأمل.

ـ اسألي ما شئت.

ـ لنقل إنه طلب منك الخروج معه. هل ستكونين رفيقته؟

أميل إلى الخلف وأتكئ على يدي وأبتسم لهما:

ـ لا، تعرفانني، لا أهتم بكل تلك الأمور عن الرفيق والرفيقة.

تسأل «سيمون»:

ـ ولا حتى مع آدم؟ بالتأكيد أن الله سيتغاضى! أقصد أنه الشخص الذي فُتِنتِ به في مدرستك الثانوية. الشخص المفتونة به. الشخص الذي ستتحدثين عنه سنوات قادمة، عندما تصبحين عجوزًا مترهلة يغزوك الشيب، وتخبرين زوجك وأطفالك عن أيام المدرسة السعيدة، وكيف كان «آدم كيان» الأكسجين الذي تتنفسينه في الصف الحادي عشر!

تضيف «إيلين»:

ـ ذلك صحيح يا أمل! هل تقولين لنا إنك لن تفكري في ليِّ القواعد؟

ـ بصدق، إنني أفكر في الأمر كل الوقت. كأن أتخيلنا زوجين، وأن توضع «تيا» في إحدى مستشفيات المجانين بسبب زواجي من أشهر شاب في المدرسة.

تقول «سيمون» وهي تقهقه:

ـ سوف تحتاج إلى العلاج بالصدمة.

ـ لا تفهماني خطأ، لست جافة أو أي شيء! يا إلهي كم أتمنى أحيانًا أن يكون آدم رفيقي، وإذا ما واعد أخرى أقسم إني سأُصاب بالفتْق، وقد أبدأ في تدبير كمائن مميتة لفتاته. لكنني أعرف في أعماقي أنني لن أتجاوز الخطوط الحمراء، مهما كان الأمر مغريًا. حسنٌ، حسنٌ، أنتما تفكران أنني أصلح لأخذ لقب معقدة وغريبة الأطوار؟

ـ رائع!

تمزح «إيلين» فأضربها على كتفها.

ـ ولكن، تعرفان أنه لا يمكنني ذلك في الإسلام. تعرفان كل ذلك عن أنه ما من جنس ولا علاقة حميمية جسدية قبل الزواج.

تقول «سيمون»:

ـ نعم نعرف، أخبرتِنا.

أقول:

ـ وليس في الإسلام فقط، تعرفان، المسيحية، اليهودية، الهندوسية، البوذية.

تقول «إيلين» بتنهد:

ـ حسنٌ، فهمنا، أخبرتِنا من قبل. ليس عليك أن تستمري في محاولة المقارنة بالديانات الأخرى للحصول على بعض الشرعية. يا ساتر عليك!

ـ هل أفعل ذلك يا «سيمون»؟

تومئ «سيمون» برأسها.

ـ حسنٌ إذن. لا تفكران أن السبب هو والداي. إذا أردت رفيقًا أستطيع فعل ذلك بسهولة من وراء والديَّ. إنهما يثقان فيَّ كثيرًا، فإذا تحدثت مع ولد على الهاتف فترات طويلة كل ليلة وقلت لهم هو مجرد صديق سيصدقانني، ولن يسألاني. أستطيع التملُّص بالقول إني خارجة مع صديقاتي، ثم ألتقي برفيقي من دون أية مشكلة، لكن الأمر لا يتعلق بهما.

تقول «إيلين»:

ـ قد يُصعق والداي إذا ما أخبرتهما أنني أخرج مع شاب، يمكن أن يكونا صارميْن جدًّا في أمور كهذه. وعلى الرغم من ذلك، أعتقد أنهم قد يرحبون بشاب ياباني مهذب وعلى قدر كافٍ من الثقافة وله عقل عالم نووي!

تقول «سيمون»:

ـ ستسعد ماما إذا ما خرجت مع أي شخص وحسب. إنها تتوق إلى أن يكون لي رفيق وأن أكون طبيعية، على الأقل هكذا ترى الأمر.

تسأل «إيلين»:

ـ إذن يا أمل، هل أنت سعيدة بكونك صديقة فقط لآدم؟

ـ أوه نعم! ولكن هذا هو الجزء المحيِّر. انظرا، أنا سعيدة لكوننا فقط

صديقين مقربين وكوني مغرمةً به من دون أن يحدث أي شيء في الواقع، ولكنني أريد أن أكون أعزَّ صديقة له. هل تفهمانني؟ أريد أن أعرف أنه يثق بي ويتحدث إليَّ وينتبه إلى رأيي أكثر من رأي أية فتاة أخرى. سيكون هذا أفضل شيء. أما الأمور الجسدية فسأتخيلها!

تقهقهان على كوني ملتزمة من الخارج ومنفلتة في الداخل. «سيمون» وأنا نناقش ما إذا كان ينبغي على «جوش» استخدام جِل أقلّ لشعره عندما تهمس لنا «إيلين» أن نخرس لأن آدم يقترب منَّا. وقبل أن تجد «سيمون» وقتًا لدفع جزرتها داخل حقيبتها ـ تكره أن يعرف الآخرون أنها في حمية ـ كان آدم واقفًا أمامنا يحمل ثلاثة كتب، كالعادة.

ـ أمل، ماذا عن ذلك السؤال لتحديد صيغة جزيئية للهيدروكربون؟

أقول وأنا أهم بالوقوف وأنظر إلى الصفحة التي يشير إليها:

ـ ألا تتوقف عن الدراسة أبدًا؟

تضيف «إيلين»:

ـ نعم، ألا تأخذ استراحة؟ غداء؟ رياضة؟ هواء نقي؟ أن تخضع عقلك وجسدك للدراسة أربعًا وعشرين ساعة هذا أمر غير صحي أبدًا.

ـ ليس لديَّ وقت للاستراحة.

ـ تلك هي فكرة الاستراحة برمتها. عندما لا يكون لديك وقت فأنت في حاجة إلى استراحة.

يتوقف وينظر إليها ببطء:

ـ ينبغي أن تصنعي إعلانا تجاريًّا للشوكولاتة من تلك العبارة.

تنظر كل من «إيلين» و«سيمون» بعضهما إلى بعض ثم تطلقان ضحكات خجولة.

تقول «سيمون»:

ـ إذن أنت تنكِّت؟

يجيب، وفمه يرتعش وهو يلتفت ناظرًا إلى الصفحة:

ـ لا.

ـ أووف! هذا الكتاب ثقيل! ماذا لو جلست معنا؟ على الأقل سنكون مرتاحين بما أنك ضيعت وقت غدائي في الكيمياء.

أحبس أنفاسي انتظارًا لرده وأتجنب التقاء نظراتي مع نظرات «إيلين» و«سيمون».

يقول:

ـ حسنٌ، فقط إذا توقفت «إيلين» عن نصائحها الاستشارية وعرضت «سيمون» عليَّ جزرة.

تقول «تيا» متذمرة:

ـ أخخ! أشعر أني بدينة ومقززة!

وتمسك ببطنها الذي لا وجود له، وهي تختلس النظر إلى «سيمون» حيث نقف داخل الصف منتظرين وصول معلم الأحياء.

ـ أكلت ساندويتشًا كاملًا. أشعر بأني منتفخة جدًّا. قد أقتل نفسي من الإحساس بالذنب!

تقول لها «كلير» بثقة:

ـ لا تبدين بدينة!

تقول «ريتا» في حماس:

ـ نعم، تبدين فاتنة.

تقذف «تيا» بشعرها الأسود الفاحم الطويل اللامع إلى الجانب وتبعث لهما ابتسامة تحت رعاية معجون «كولجيت» للأسنان.

ـ لا، بصدق يا فتيات. أحس بطني كالقِدر. انظرن.

ترفع قميصها ليكشف عن بطن مسطح مثل لوح التقطيع:

ـ ما رأيك يا «سيمون»؟

تبدو «سيمون» مرعوبة وتقف فاغرة فاها، ومثبتة عينيها على بطن «تيا». إن عدم وجود أي ملليمتر من الدهون في بطن «تيا» أسكت «سيمون» تمامًا.

أقول بنبرة لطيفة بشكل واهن:

ـ أنت محقَّة يا «تيا».

تحدجني بنظرة مميتة، عيناها تضيقان وهما تمسحاني من الأعلى إلى الأسفل.

ـ عذرًا؟

ـ لقد زاد وزنك. ينبغي أن تحافظي على نفسك، هل كنت تتناولين كثيرًا من الأملاح مؤخرًا؟ وجهك كله متورِّم، تستخدم عمتي الحامل علاجًا جيدًا خاصًّا باحتباس الماء. هل تريديني أن أعرف لك اسم الدواء؟

تبتسم باحتقار فألتفت عنها لآخذ مقعدًا.

ستنتقم مني لاحقًا في الصف.

ـ لا أعرف ماذا كنت سأفعل من دون شعري الطويل!

تقول لـ«كلير» و«ريتا» بصوت مرتفع بشكل كافٍ لنسمعه:

ـ أقصد، ما تكون المرأة من دون شعر؟ يجب أن يكون لك وجه عارضة أزياء لكي تظهري جميلة بالحجاب. ألا تعتقدان ذلك؟

تومئان مثل جروين مطيعين وأطلق تنهيدة مبالغًا فيها.

أقول:

ـ إنني فقط لا أعرف ماذا كنت سأفعل من دون عقل يا «سيمون»! أقصد، ما يكون الإنسان من دون عقل؟

* * *

تهمس «سيمون» لي ولـ«إيلين» في أثناء حصة التاريخ يوم الجمعة:

ـ لنأخذ قهوة في «لاونج رووم» الليلة؟

«إيلين» موافقة، لا أعرف ما إذا كنت سأذهب. «لاونج رووم» مقهى أنيق في شارع «بورك»: طاولات قهوة طويلة تتمركز بين الكراسي والكنبات السويدية الكبيرة في الردهة، المصابيح المعتمة وشاشات التلفزيون التي تعرض قناة «إم تي في» وحلقات «فريندز» المُعادَة. كان ملتقى تسكعنا خلال إجازة منتصف العام، حيث ننمُّ ونأكل تورتة الفراولة ونتحدث عن المدرسة والآباء والأمهات وأفضل خمسة أفلام بناتية وما إلى ذلك. ولأنني أُفضِّل أكل لحم متعفِّن على أن يصفوني بالجبن، أتصنَّع ابتسامة كبيرة وأخبرهما أني مستعدة تمامًا.

أتراجع بِجُبن.

أخجل أن أصرِّح بذلك، ولكنني أهاتف «سيمون» و«إيلين» بعد العشاء وأخبرهما أنني لا أستطيع؛ لأن معنا زوَّارًا. تصدقانني. ولِمَ لا؟ يفترض أن أكون تقية وأخاف الله. ولست جبانة كاذبة، منافقة، ومثيرة للشفقة. أتمدَّد على الفراش وأستمع إلى أغنية «كريج ديفيد» «آي آم واكينج آوي» (أنا أرحل).. في الإعادة.

ما الذي يحدث لي؟ ألم أقرر ارتداء الحجاب لأني أفتخر بمن أكون؟ وفجأة أكون أكثر جُبنًا من أن أذهب إلى مقهى؟ لا أعرف نفسي. أنا التي أخرجت رأسها من نافذة أتوبيس المدرسة العام الماضي وصاحت في الأولاد الذين كانوا يرمون علبة مياه غازية على أتوبيسنا نحن «الوُجز». أنا من وقفت في المناظرة بين المدارس في الصف التاسع وأخبرت الجمهور أن فريقي لا يقدِّر همسات الفريق الآخر بأنه ينافس «الإرهابيين». وعندما كنا في العيادة الطبية وسألت السكرتيرة ليلى عمَّا إذا كان باستطاعتها ملء استمارة بالإنجليزية، كنت أنا من أشارت إلى أن ليلى لم تضع قدمها خارج أستراليا قطُّ، وأنها تحصل على امتياز في الأدب الإنجليزي وغيره.

فإذا كان كل ذلك أنا، فمن تكون هذه البنت التي تختلق الأعذار لتتجنب الخروج إلى مقهى؟!

(٨)

تقول «سيمون» متأوِّهة ونحن في طريقنا إلى بيوتنا في أتوبيس المدرسة:

ـ إنني أتضوَّر جوعًا!

أقول:

ـ أعتقد أن عندي تفاحة في حقيبتي، أتريدينها؟

ـ شكرًا، سأتحمَّل، لقد مللت من الفواكه والخضراوات. ألست جائعة يا أمل؟

ـ لا، تناولت ساندويتشًا كبيرًا في الغداء.

ـ لا أفهم عالم النحيفين!

أدفعها بكوعي:

ـ لا تكوني حمقاء.

ـ ولكنكم أنتم أيها النحيفون تأكلون شريحتين من الخبز محشوتين بطعام الأرانب في منتصف النهار، وتكونون «على وشك الانفجار» حتى العشاء. أنا دائمًا جائعة، بصدق يا أمل.

ينخفض صوتها ليصبح هامسًا:

ـ لا تضحكي، لكنني أحيانًا أكون منشغلة بتناول غدائي وأفكر فيما سأتناول في العشاء!

أقول:

ـ ذلك طبيعي.

ـ ألن يعاقبك الله على الكذب؟

أدفعها مرة أخرى.

نجلس صامتتين بعض الوقت، ونحدِّق عبر النافذة. تستدير «سيمون» ناحيتي بعد حين:

ـ خناقة كبيرة بيني وبين ماما بالأمس.

ـ ماذا حدث؟

ـ تشاجرتْ معي كي ألتحق بالنادي الرياضي معها. إنها تمارس رياضة «البيلاتس»، وهي تلح عليَّ باستمرار أن أخفف من وزني وتقول لي كيف كانت ترتدي مقاس ستة عندما كانت في عمري، ولا تصدق كيف أصبحتُ هكذا. هل جسمي بهذا السوء حقًّا يا أمل؟

ـ ما الذي ترمي إليه؟ مقاسك أكبر مرة واحدة فقط من مقاسي أنا و«إيلين» ولديك إمكانات معينة؛ معظم الفتيات قد يقتلن للحصول عليها!

ـ ماما تقول إن هذه الإمكانات هي الشيء الوحيد الجيد فيَّ، وإنني أحتاج إلى كثير من العمل لأجعل باقي جسدي جذَّابًا.

ـ لم تقل ذلك!

ـ بل قالت الأسوأ، صدقيني. قالت إنها تقول ذلك لأنها «تحبني وتهتم بي» ـ أوععع! ـ وإن ذلك فقط لمصلحتي ـ أوععع!

ـ «سيمون» أنت فاتنة. شعرك أشقر بالطبيعة، ومن أكثر ألوان الشعر المطلوبة في العالم، ولديك عينان مدهشتان، ولا تظهر على وجهك بثور أبدًا، وجسدك يملأ القميص. لذلك فإن قفصك الصدري لا يكون معروضًا ليراه الآخرون، وهذا ممتاز.

ـ يا أمل يفترض على الأصدقاء الأعزاء قول أشياء كهذه. إنها أشبه بالإطراء من الوالدين ـ حسنٌ، ليس والديَّ فهما خارج هذه الحسبة. أقصد أننا ما كنا لنكون صديقتين عزيزتين لو اعتقدتِ أنني قبيحة ومملَّة، أليس كذلك؟ ما تشعرين به حيالي لا علاقة له بكيفية رؤية الآخرين لي. سأكون دائمًا «سيمون» السمينة. وكما قالت «تيا» ذلك اليوم، إنني قد أصرف على ساندويتش «البيج ماك» أكثر مما تصرف هي على عضويتها السنوية في النادي الرياضي.

ـ هراء ما تقول! السافلة!

تهزُّ «سيمون» كتفيها:

ـ نعم، حسنٌ، قد يكون ذلك صحيحًا... أحيانًا أبدأ حمية ثم أفتح عددًا في مجلة «كوزمو» أو «كليو» فأجد مقالات عن النجمات الحوامل اللاتي يفقدن ثلاثين كيلو في شهرين أو ثلاثة، وأنا أصارع هنا لكي أفقد كيلو جرامًا واحدًا؟! لذلك أتوقف وأنقض على إصبع من شوكولاتة «مارس». أو عندما أرى كل هذه الصور الملتقطة للفتيات الفاتنات العارضات على الشاطئ وعظامهن تكاد توخز يدي وأنا أقلب الصفحات وأفكر «ما الفائدة؟» حتى لو فقدت عشرة كيلو جرامات وكان طولي وعرضي متناسبين، سيظل الناس

يعتبرونني سمينة. أتمنى لو أُصاب بمرض فقدان الشهية. كم يبدو ذلك مثيرًا للاشمئزاز، هه؟ لكنني لا أتمتع بضبط النفس لأتمكن من العيش على خسة واحدة في اليوم. وجربت الأكل بشراهة مَرضية لكنني لم أتقيأ. إنني مثيرة للشفقة! وغير طبيعية!

ـ تعرفين ماذا؟ مَن يهتم بما هو «طبيعي» يا «سيمون»؟ لنقم بمعارضة. منذ الآن فصاعدًا، نحن ضد الطبيعي، ضد الوسط، ضد القاعدة. يمكنك الأكل متى تشائين، سأرتدي ما أشاء، وسنموت وفي يدك كيس من البطاطس وعلى رأسي مفرش مائدة.

تسألني «إيلين» على الهاتف الخميس التالي:

ـ إذن، هل تستطيعين الذهاب إلى المقهى الليلة؟

لا أستطيع تحمل الجلوس ليلة أخرى أسوِّي أظافري وأصبغها وأستمع إلى «كريج ديفيد»، لذلك قلت نعم.

يقلُّني بابا بسيارته، وأتوسل إليه أن يخفض صوت ألبوم «أعظم أغاني القدس» ونحن ننعطف عند الزاوية في اتجاه شارع «بورك».

يقول وهو يقرص خدي:

ـ كنت تحبين هذه الموسيقى لمَّا كنت طفلة!

ـ بابا! مستحيل، أنا الآن في السادسة عشرة. انس طفولتي!

لكنه يبدأ غناء أغنية عن اللقاء بحبيبته في السر تحت شجرة في بساتين الزيتون.

يقول بينما أهمُّ بالخروج من السيارة:

ـ فقط تذكري، قبل «كايلي» و«ريكي مارتن» وهؤلاء الأولاد الشُّقر الذين يغنون كالببغاوات، كنت تغنين أغاني عن حدائق الزيتون والجبال أيضًا.

أنظر إلى أعلى في سأم.

ـ ابتهجي يا أمل، ولا تتأخري. إنها ليلة مدرسية، ينبغي ألا تصلي ثانية واحدة متأخرة عن العاشرة والنصف وإلا اتصلت برقم النجدة. لن أتصل بهاتفك النقَّال، بل بالنجدة.

كأن أحدهم سيجرؤ على اختطافي وهم يعتقدون أنني قد أحمل بندقية «أك ـ ٤٧» داخل الجاكيت الجينز.

تنتظرني «سيمون» و«إيلين» أمام المقهى. يسلِّم بعضنا على بعض وننتظر في الطابور. هناك حشد كبير الليلة. يبدأ الرعب، ويتدفق الدم في عروقي بادئًا من عنقي. على الأقل حجابي يغطيه. من يحدث له كل ذلك بسبب الذهاب إلى مقهى؟ كنت أنا و«سيمون» و«إيلين» خلال إجازة منتصف العام الدراسي نتسكع هنا، ونضحك مع «بدرو»، المالك الإيطالي العجوز، أو ندردش مع «راي»، النادل الجريء. والآن يداي تتعرقان، كما أني قلقة بشأن تناسب حجابي مع الجينز ومقتنعة أيضًا أن المكياج قد تلطَّخ.

تقول «إيلين» بقوة مقاطعة نوبة الرعب التي تملَّكتني وممسكة ذراعي مشجعة:

ـ هاي؟ استرخِ.

أقول ضاحكة بتوتُّر:

ـ نعم، أعرف.

تقول «سيمون»:

ـ سُحقًا! الكل نحيف جدًّا. انظرا إلى تلك الفتيات الثلاث الواقفات هناك. يبدو وكأنهن كنَّ في وليمة هائلة؛ ثلاث حبات بازلاء ونصف فلفلة!

تعبث بقميصها بقلق وتشده إلى الأسفل وتعدِّل بنطالها.

ـ يبدو عليهن وكأنهن في حاجة إلى دعم من الجمعيات الخيرية؛ بدولار في اليوم، علينا أن نكفلهن.

لكنني أيضًا أعبث في قلق بقميصي متسائلة عمَّا إذا كان مظهري يبدو جيدًا، وعمَّا إذا كنت قادرة على الصمود بالحجاب بين جميع هؤلاء الناس الرائعين.

تقول «إيلين» وهي واقفة أمامنا:

ـ أنتما الاثنتان تبدوان وكأنكما على وشك القفز من طائرة من دون حمل مظلة هبوط، استرخيا أنتما الاثنتان. هؤلاء الناس لا يشكلون شيئًا لحياتيكما. كلاكما فاتنتان وتبدوان جذابتين وأنا أتوق إلى قطعة من كيك الشوكولاتة لذلك أوقِفا نوبات رعبكما ولنبحث لنا عن طاولة.

تبتهج «سيمون» على الفور:

ـ أوه! مممم، كعكة الشوكولاتة.

أقول:

ـ أنا بخير، أنا بخير، فأنا أتخيلهم جميعًا عراة.

تقول «إيلين» بينما نشق طريقنا إلى المدخل:

ـ أليست تلك خطيئة؟

ـ أنا متأكدة أن الله سيعتبر هذا استثناءً.

أدور بنظري في المقهى ونحن ننتظر إرشادنا إلى طاولة. ربما كان من الغباء أن آتي. أبدو كأنني لا أنتمي إلى المكان أبدًا، أقصد، أنني أرتدي كل الملابس والإكسسوارات بحسب الموضة، ولكن أن أضيف عليها الحجاب؟! قد أرتدي أيضًا تنورة أسكتلندية ولا فارق!! أستطيع أن أرى بعض الأشخاص يضيِّقون عيونهم عندما يرفعون أنظارهم في أثناء محادثاتهم ويلاحظونني.

تخيَّليهم عراة. تخيَّليهم عراة.

يظهر «راي» فجأة أمامنا، ويصوِّب نظره مباشرة في عيني. على نحوٍ ما، لا أعتقد أن الله سيعتبره استثناءً.

يجازف بالسؤال:

ـ أمل؟

ستعتقدون أنني صرت غريبة الأطوار. لديَّ خياران: إما أن أكون ضعيفة وجبانة، وسلبية حمقاء، وإما أن أكون واثقة أكثر من اللازم، ومغامِرة مثل فتيات مسرحية «بريسلا كوين» ـ الذين هم في الأصل رجال متنكرون!

أصرخ بلطف مبالغ فيه:

ـ أهلًا «راي»! كيف حالك؟

يبدو حائرًا، ينبغي أن يكون كذلك. طبقة صوتي عالية جدًّا لدرجة أنها قد تكسر زجاج النافذة.

ـ لا أشكو من شيء.

ـ ذلك ممتاز! إذن ما الجديد؟

ـ لا شيء.

ـ ولا بالنسبة إليَّ! لا جديد تحت الشمس.

تنقذه «إيلين» و«سيمون» من معاناته وتسألانه عن طاولة في الرَّدهة.

يقول:

ـ سأتأكد ممَّا إذا كانت ثمة واحدة متوفرة.

ـ اتبعنني.

نتبعه، وأحافظ على رأسي مرفوعًا متجنبةً التقاء عيني بعيون المحدقين فيَّ ونحن نعبر بين الجالسين. نجلس إلى طاولة في الرَّدهة ويسجل «راي» طلبنا. يبدو رسميًّا جدًّا، لا نُكت، لا محادثة، فقط «هل تردن شرابًا مع ذلك؟» ثم يغادر فجأة ليضع طلبنا.

تقول «إيلين» غارقة في الضحك:

ـ أمل! لقد سببت له الدوار. قد يتساءل بأية طائفة دينية التحقت!

ـ أفضل من الطائفة التي التحق هو بها. ماذا فعل بلحيته؟ يبدو كأنه حلق في الظلام.

تقول «سيمون» مقاطعة وهي تتنهد:

ـ تورتة الفراولة وشراب شوكولاتة خالي الدسم وساخن، ذلك سيقلِّل حقًّا من تأثير ما استهلكناه من سعرات حرارية!

نتحدث طويلًا، عن كل شيء: المدرسة، الشباب، السياسة، أهلنا،

ما نريد فعله عندما ننتهي من المدرسة، وعمَّا إذا خضعت الممثلة «كاثرين زيتا ـ جونز» لعملية جراحية.

عندما آوي إلى فراشي لاحقًا تلك الليلة، يخطر ببالي أن كل ما يحتاجه الأمر بضع صديقات جيدات وكثيرًا من الشوكولاتة لأنسى أنني «الفتاة التي ترتدي الحجاب». لذلك أخرج ألبوم «كريج ديفيد» من مشغل الـ«سي دي» «آي آم واكينج آوي» (أنا أرحل) إلى الفراش وأنا أستمع بدلًا من ذلك إلى أغنية فرقة «ديستينز تشايلد» «آي آم أَ سرفايفر» (سوف أبقى).

* * *

أشكو لياسمين على الهاتف:

ـ أحتاج إلى ملابس جديدة!

أستطيع تقريبًا أن أحس بعينيها تشرقان في الطرف الآخر.

تقول، بنبرة «لننزل إلى العمل والتسوُّق»:

ـ حسنٌ، «بريدج رود»، «تشابل ستريت» والمدينة. غدًا نلتقي في شارع «بريدج» ونبدأ الجولة من هناك. ارتدي حذاء مريحًا، انظري ما لديك من ألوان من الإيشاربات حتى ندمج وننسق، وأيضًا الحقائب. يجب أن تتناسق حقائبك مع حجابك. تعرفين ماذا، اكتبي قائمة بجميع ألوان الإيشاربات والحقائب التي لديك، والأحذية إن رغبت أيضًا، لكنني أقترح ثلاث كلمات نعطيها الاهتمام الكامل الذي تستحق.

ـ ماذا تعنين بثلاث كلمات بالله عليك؟

ـ نبيهة جدًّا! إنه جنون شراء الأحذية طبعًا.

ـ تحتاجين إلى مساعدة!

ـ لا يا عزيزتي، أنت مَن تحتاجين. وسنساعدك في تغيير شكلك. سأخبر ليلى. احصلي على قسط كافٍ من الراحة الليلة. أراك غدًا.

* * *

يُلغَى مشروع جنون التسوق؛ لأن أم ليلى استيقظت هذا الصباح وقررت أن تفقد جميع خلاياها العقلية على أن تعيش على الغشاء السائل الموجود بالمخ وحسب.

كانت ليلى تبكي خلال مكبر صوت الهاتف طوال الصباح بينما نستمع إليها أنا وماما. ترفض أمها السماح لها بالخروج معنا لأن: أولًا: هناك أعمال منزلية ينبغي القيام بها. ثانيًا: لديهم ضيوف هذا المساء، يبدو أن أحدهم أعزب و«لُقطة». ثالثًا: أنها «عار» على العائلة؛ لأنها تريد أن تتسكَّع في الشوارع بحجابها.

ماما غاضبة، لكنها تبذل جهدها لتهدئة ليلى. وأنا على وشك أن أبلغ عن أم ليلى في دائرة الهجرة:

سبب الترحيل: الغباء.

الدولة البديلة: لا توجد. لا تستحق أية جنسية. أرسلوها إلى المريخ.

أبكي بعد أن ننهي المكالمة وأقول:

ـ لا أفهم!

تقول أمي مطلقةً تنهيدة ثقيلة:

ـ ولا أنا يا حبيبتي.

ـ كيف يمكن لأحد مغفل إلى هذا الحد أن ينجب شخصًا مثل ليلى؟

ـ لا تكوني فظة يا أمل. «جولشن» أكبر منك سنًّا وينبغي أن تتكلمي عنها باحترام.

ـ كوني جادة! لا تستحق ذلك!

أتمشى في غرفة المعيشة جيئة وذهابًا وأنا في غضب عارم. «عار»، أقول محاكية:

ـ آه، يا لها من فضيحة! ليلى تذهب للتسوق! يا للهول! حصلت على تذكرة من الدرجة الأولى لدخول جهنم الآن!

تقول ماما بلطف فاتحة ذراعيها لي:

ـ تعالي هنا.

أتنهَّد، ملقية بنفسي على الكنبة ودافنة رأسي في صدرها، تسحبني إليها وتحضنني.

ـ أمل، من السذاجة أن نفكِّر أن شخصًا ما سيِّئ بسبب جهله. أشعر بليلى كثيرًا؛ لأنني أعرف أنها تفهم أنه بمقدورها أن تكون ما تريد، ليس على الرغم من الإسلام، بل بسببه.

ـ إنه خطأ أمها الغبي.

ـ أمل، كل ما تفعله «جولشن» أنها تحاول أن تربي ليلى بالطريقة التي تعرفها فقط. تزوجت صغيرة، ولم تسنح لها الفرصة قطُّ لتحصل على تعليم، ولا تستطيع القراءة، ولا تستطيع الكتابة. كان عالمها دائمًا هو تربية أطفالها والاعتناء ببيتها. لا خطأ في ذلك، إذا كان هذا ما اختارته.

ـ نعم، ولكنها تفرض ذلك على ليلى!

ـ وهو خطأ. ولكن حاولي أن توسعي ذهنك وتفكري في الأشياء من وجهة نظر الآخرين. كل شيء نسبي، إذا أردت فهم مشكلة انظري إلى السبب، لا تنظري إلى أعراضها.

ـ كيف من المُفترض أن يجعل ذلك ليلى تتحسن؟

تتنهَّد، وهي تلعب بشعري:

ـ الله أعلم... أحيانًا، يا أمل، يكون الناس مشلولين بعاداتهم وتقاليدهم. إنها كل ما يعرفون، لذلك لا يمكنك محاكمتهم بشأن ما يتبعون وما يؤمنون به.

ـ توقفي عن قول ذلك ماما! أي أبله سيعرف أنها تتبع ثقافة قريتها وليس الإسلام. لذلك أن تذهب وتخبر العالم أن هذا هو الإسلام فإن المقابل الدقيق لذلك هو الغباء!

ـ نعم أعرف ذلك. ولكن من وجهة نظرها أرى أنها تعتقد أنها تحاول ببساطة أن تحمي ليلى.

ـ تحميها من ماذا؟ إنها مجرد جولة تسوق!

ـ كل شخص يخاف مما لا يعرف يا أمل.

أميل برأسي إلى الخلف وأقلب ناظريَّ في ماما، وترمقني بنظرة سخط في المقابل. وتقول:

ـ ما زال أمامك كثير لتتعلميه يا حبيبتي.

ـ رجاء لا تقولي هذا الكلام يا ماما!

تبتسم وتحضنني أكثر.

لا يهمني أن أفهم أم ليلى، لست مهتمة بكل ذلك الهراء حول علم النفس.

وحسب علمي، إذا أردت أن تعتقدي أنك ستدخلين الجنة؛ لأنك تظنين أن الأولاد ينبغي أن يذهبوا إلى المدرسة ويفعلوا ما يحلو لهم، ولكن البنات يبقين في البيت حتى يكنَّ مستعدات للزواج، فاغربي عن وجهي. لا يهمني لماذا لا تعرفين أفضل من ذلك. عندما تكون لديك ابنة تعرف عن دينك أكثر مما تعرفين، وذكية بقدر كافٍ لأن تكون ما تريد، فإنك في نظري تخسرين حقك في الأعذار.

أسأل ليلى:

ـ إذن، ماذا حدث بشأن العريس؟

ليلى مدعوة في بيتنا على العشاء الليلة، وبحسب شرط أمها، ألا نترك البيت أو نتصل بالشباب.

ـ كان في الواقع لطيفًا حقًّا.

ـ أنت جادة؟

ـ نعم، لطيف، مُسلٍّ، إنجليزية ممتازة، أنهى لتوه دراسة الطب في الجامعة الأمريكية ببيروت.

ـ أوه! إذن هو مؤهل كـ«عريس لُقطة».

ـ تقريبًا.

ينظر بعضنا إلى بعض في عدم تصديق.

تقول ليلى بلطف:

ـ إنها فقط لا تفهم.

أطمئنها وأنا أضغط على يدها:

ـ أعرف يا ليلى.

ـ عمري ستة عشر عامًا لأجل الله! لست في إحدى القرى في الجبال حيث لا شيء آخر يمكن فعله سوى الزواج. تعتقد أنه بسبب رغبتي في أن أكون محامية فلن أتزوج أبدًا. يا أمل، هل تذكرين عندما أرادت أن تخرجني من مدرسة الهداية في نهاية الصف العاشر؟

ـ وكيف أنسى؟ مستر عزيز تحدث إلى والديك، أليس كذلك؟

ـ جاء إلى البيت وقضى الليل بأكمله يضرب رأسه في الجدار محاولًا تغيير رأيها، وقد نجح الأمر. كان مديرًا رائعًا.

ـ لماذا في اعتقادك هي كذلك؟ لا أفهم.

ـ مَن يعرف؟

ـ حسنٌ... كيف كان جداك؟

ـ فقيران. تمكّنا من إرسال واحد فقط من أبنائهما إلى المدرسة، خالي الأكبر تمكَّن من الذهاب وبقية أخوالي وخالاتي لم يتمكنوا.

ـ متى تزوجت أمك؟

ـ أعتقد أنها كانت في السادسة عشرة تقريبًا. أتوا إلى هنا بعد أن ولدت «حاقان». لماذا ينبغي عليَّ بحق السماء أن أحيا حياتها المثيرة للشفقة؟

ـ إنها حياة سيئة للغاية.

ـ أقصد، أي طريق تسلكين؟ بحسب ماما، الشيء الطبيعي أن تتزوجي؛ بحسب الكل في الخارج، الشيء الطبيعي أن تشربي، وتفقدي عذريتك مع شخص تتحدثين معه مرة واحدة في حفلة، وتصبحين «متحررة» أو ما شابه، أي شيء.

أهزُّ كتفيَّ.

ـ وما يجعلني أغضب أكثر أن كل شيء أفعله مما يثير جنونها ترجعه إلى تفسيرها المتخلف للإسلام. تريدين وظيفة! يا لك من الفتاة المسلمة السيئة! لا تريدين الزواج! كيف تصيرين زوجة صالحة؟ ترتدين الحجاب لكنك تتحدثين مع الصبيان في المدرسة! إنها تعتقد أن أصير محامية يعني شرًّا وطموحًا مشوهًا. تعتقد أنني أرغب أن أكسب مالًا من الكذب.

ننظر إلى الأعلى في عدم تصديق ونتأوَّه.

تواصل:

ـ هل أبدو لكِ مثل جميلة غبية؟ لم أرتدِ الحجاب لأنها هي التي تريدني أن أفعل ذلك. إنني أتصرف حسبما أراه صحيحًا وأعرفه عن ديني. وكأنني سأتبع حقًّا شيئًا يقفل عليَّ في البيت لأطبخ وأنظف.

ـ هل تعرفين أن ماما لم تقرأ القرآن حتى؟ تعيش حسبما قالته لها أمها، وحسبما قالته لها أمُّ أمِّها. ذلك هو كتابها المقدَّس.

تبتسم لي ابتسامة كالحة:

ـ إن الأمر أشبه بالتحدث إلى شخص من كوكب آخر.

ثم تهمس قائلة:

ـ إنها هي من يُسيء إلى الإسلام، ولست أنا.

(٩)

اكتشف بابا النِّكات المنشورة في الإنترنت والرسائل المتبادلة عن طريق البريد الإلكتروني، فصار مهووسًا.

ألتهم رقائق الذرة أمامي محاولةً إنهاء إفطاري قبل وصول الأتوبيس. يدخل هو، ويُقبلني قبلة صباح الخير، ثم يبدأ في تحضير بعض الخبز المحمَّص لنفسه. ماما ذهبت إلى عملها بالفعل.

يبتسم لي ابتسامة عريضة:

ـ اسأليني عمَّا إذا كنت سأذهب إلى العمل هذا الصباح.

ـ هه؟

أُفلتها من فمي الممتلئ بحبوب «الكورن فليكس».

ـ اسأليني إذا كنت سأذهب إلى العمل.

ـ هل هذا سؤال مخادع؟

ـ لا! اسأليني وحسب.

ـ حسنٌ.. بابا، هل ستذهب إلى العمل اليوم؟

يقف متحمِّسًا:

ـ قد أعمل أيضًا. أنا في مزاج سيِّئ على أية حال.

يكاد يسقط من الضحك، ثم يراني أنظر إليه وكأن أذنًا ثالثة قد نبتت له:

ـ ألم تفهمي؟

ـ وصلك إيميل عمي طارق عن القط «جارفيلد»، أليس كذلك؟

ـ بلى! إن ذلك رائع. هل سبق أن مررتِ بيوم من تلك الأيام التي يكون باقيًا في ذهنك برج واحد، ويأتي أحد ليطيره؟ و...؟

أقول وأنا أضع صحني في المغسلة:

ـ نعم، لكنه كان صباحًا واحدًا.

ابتسم لي ابتسامة عريضة وانصرف إلى اللعب بشعري.

ـ بابا! أتلفت حجابي!

أركض مذعورة إلى المرآة الموجودة عند المدخل حيث أكون في مهمة إنقاذ الجزء الأمامي المستدير.

يقول:

ـ يبدو أن الذي بقي من دماغك برجان وهذا ثانيهما.

ويضحك آخذًا قضمة من الخبز المحمص.

* * *

في كل شهر نعقد منتدى للنقاش، حيث يترأَّس ممثلو مجلس اتحاد الطلاب اجتماعًا للصف الحادي عشر وجميعنا يكثر من التذمُّر، ونناقش أشياء مهمة تحدث في المدرسة.

رائدة مدرستنا فتاة من الصف الثاني عشر تُدعى «لارا». و«بول» من الصف الحادي عشر، هو نائبها. «بول» مشهور جدًّا ولطيف، مولع بالرياضة، يحصل على علامات جيدة، وينسجم عمومًا مع الكل. «لارا»، في المقابل، مغرورة بشكل لا يصدَّق ويبدو أنها تعتقد أن ترؤسها مجلس اتحاد الطلاب يعادل منصبًا في مجلس النواب. كما أن لديها أيضًا عادة انتقاء الأشخاص «لتبادل الآراء» من بين باقي أعضاء المجموعة كلما برز موضوع للنقاش، الأمر الذي لا يتناسب مع الخجولين الهادئين الذين يجلسون أبعد ما أمكن في الخلف؛ حتى يتجنبوا أن تسألهم عن آرائهم حول وضع أجهزة ملطفات الهواء في غرف النادي الرياضي.

تعلن في منتدى النقاش لهذا اليوم أن مسابقة المناظرة بين المدارس التي تنظمها جمعية «فكتوريا» للمتناظرين تبدأ خلال شهرين، وأنهم بصدد اتخاذ القرار بشأن أي الفِرق ستمثل الصف الحادي عشر.

جمعية «فكتوريا» للمتناظرين هي مسابقة مناظرة قائمة على مستوى الولاية؛ حيث تسجل المدارس في مناظرة تنافسية بين بعضها وبين بعض. هناك خمس مناظرات في المُجمل، والمسابقة متاحة للصفوف من السابع إلى الثاني عشر، وتُنفَّذ مرة في الشهر في مدرسة يتم اختيارها على مستوى «ملبرن». الجمعية هي من يحدد الموضوعات التي يمكن أن تتراوح بين «هل ينبغي منع مضغ العلكة في المدرسة» و«هل للأسماك ذاكرة؟» إلى ما إذا كان ينبغي لأمريكا أن تغزو العراق. تُلصق «لارا» ورقة

فارغة على لوح الإعلانات في حجرة اللقاء المدرسية لكل من يرغب في تسجيل اسمه.

لو كنت في عصر ما قبل الحجاب لكنت جريت وسجلت اسمي في القائمة، لكنني الآن لست متأكدة تمامًا.

يقترب مني آدم فيما بعد وأنا أهمُّ بجمع كتبي. ويسأل:

ـ هل تناظرين؟

ـ قليلًا. كنت ضمن فريق الصف التاسع في مدرستي الأخرى. وماذا عنك؟

ـ نعم، إذن هل ستسجلين اسمك؟

ـ ربما. عليَّ أن أفكر في الأمر.

ـ لماذا؟

ـ فقط... لأن...

ـ لأن ماذا؟

ـ إن الأمر معقَّد قليلًا بالنسبة إليَّ.

ـ لماذا؟

ـ لأن... حسنٌ، تعرف...

أُحس بالاحمرار يدبُّ من عنقي إلى وجنتي وأتوسَّل له أن يتوقف، أن يستنزف قوته.

يبدو حائرًا:

ـ لا، ماذا بِك؟

أسعل وأحاول أن أشرح:

ـ حجاب...ي.

يحكُّ رأسه:

ـ لا، عذرًا، لقد توَّهتِني، هل هي خطيئة أن تناظري أم ماذا؟

أنفجر ضاحكة:

ـ لا! بالطبع لا!

ـ ماذا إذن؟

ـ حسنٌ، إنني... متوترة نوعًا ما.

ـ أنتِ؟ متوترة؟ يا إلهي، أنت أكثر جرأة من أية فتاة عرفتها!

أقول، رافعة حاجبي له:

ـ عرفت بعض الفتيات الغريبات إذن.

ـ حسنٌ يا عضلات. لديك الجرأة أكثر من أية فتاة عرفتها. عجبًا! ما الذي يخيفك؟

يعتقد أنني جريئة! لولولولوييي!

ـ تعرف كيف تُجرى هذه المناظرات؟ لا أعرف إن كنت مستعدة للوقوف أمام جمهور يتكون من المدارس الخاصة الأخرى الغنية! سوف يحدقون فيَّ فقط، ولن يستمعوا إلى كلمة مما أقول؛ لأنهم يحاولون الخروج من صدمة أنني أعرف الإنجليزية.

ـ إذن!

ـ ماذا تقصد بإذن؟

ـ ولماذا تهتمين؟

ـ لأنني أهتم وحسب.

ـ حسنٌ، إذن أثبتي لهم خطأهم. إذا كان ثمَّة مَن يستطيع أن يفعل ذلك، فهو أنتِ.

ـ هل هذا ما تعتقد؟

ـ لا، إنه ما أعرف.

آه! قلبي! ليأتني أحد بِبخَّاخ الربو، مع أنني لا أعاني من الربو حتى.

* * *

تسألني «إيلين» لاحقًا تلك الليلة عندما أزورها في بيتهم من أجل جلسة دراسية:

ـ هل تعرفين ماذا ستدرسين في الجامعة؟

ـ ليس تمامًا. ربما شيء له علاقة بالعلوم؛ ربما أن أصبح شرطية مرور. من يدري! لا أستطيع أن أقرر بعد، إنه أمر مرهق جدًّا. ماذا عنك؟

ـ والداي يريدانني أن أدرس تجارة واقتصاد.

ـ وهل تريدين هذا؟

ـ أبدًا، أريد أن أقوم بشيء إبداعي. مثل «الجرافيكس» أو الفن، أو تصميم الأزياء.

ـ ستصيبهما نوبة، صحيح؟

ـ أوه! نعم، سوف يصابان بخيبة أمل إذا لم أبحث عن «وظيفة محترمة»، كما يقولان، مثل الطب أو الصيدلة. طموحاتي مجرد مضيعة للوقت والمال. أمل، إن بعض الأشخاص، مثلك، ربما سيكون عليهم محاربة العالم ليصلوا إلى ما يريدون، وبعضهم الآخر، مثلي، عليهم أن يحاربوا أهلهم. هراء، لا أعرف أيهما الأسوأ.

أقول:

ـ سوف تقنعينهما، أنت قوية جدًّا و... وثابتة.

ـ ماذا تعنين؟

ـ أحيانًا تخطر لي فكرة خلع الحجاب. أعتقد لأن الأمر لا يزال جديدًا عليَّ، كم يبدو هذا متناقضًا!

ـ لا تكوني حمقاء. هناك أوقات أفزع فيها من فكرة الامتحانات والجامعة وجميع الأشياء المشابهة. وهناك أوقات أخرى أكون مستعدة للعراك مع والدي، ومملكة الخضراوات والحيوانات، والنظام الشمسي، والكون كله. لا أحد يستطيع أن يكون جريئًا طوال الوقت. تخيلي كم سيكون الإنسان بغيضًا لو تصرف هكذا طوال الوقت.

«إيلين» محقَّة. كنت قوية ومتحدية في بعض المواقف وجبانة تمامًا في أخرى. مثل اليوم الذي تغيبت فيه عن المدرسة كي أتجنب اللعب في نهائي كرة السلة التي كنت أتهرب منها. ومن الناحية الأخرى، أتذكر حضور حفلٍ راقص في مخيم الصف السادس مرتدية فستانًا بينما الجميع كان مرتديًا الجينز والأحذية الرياضية.

خططت كل الفتيات للتأنُّق، ثم تغيرت الخطة بطريقة ما دون علمي.

تعاركت مع ماما لتشتري لي فستانًا وحذاءً، وعلى الرغم من تحذيرها لي أن لا أحد سيرتدي فستانًا في مخيم زراعي، صمَّمتُ وصرفت حوالي مائة دولار على ثوب واحد. شعرت بذنب كبير أن جعلتها تدفع كل ذلك المال إلى حد أنني قررت ارتداء الفستان في كل الأحوال. لن أنسى أبدًا ضحك الكل عليَّ عندما دخلت المزرعة بحذائي ذي الكعب، وفستاني المنقط بالأبيض والأسود. كان هناك قش على الأرض، بينما تدوِّي أغنية من أغاني فرقة «سبايس جيرلز»، وفي كل زاوية أرى الجميع مرتديًا الجينز. كانت تلك إحدى الذكريات المخزية التي ستبقى محفورة في ذهني إلى الأبد.

لكن الفكرة هي: قد يكون على الناس أن يمروا بمتلازمة الأسد والفأر في مراحل مختلفة من حياتهم. شيء واحد يبدو أكيدًا: إن كنتُ قد اجتزتُ تجربة الفستان المنقَّط في مخيم المدرسة الابتدائية، فإن هناك شيئًا يخبرني أنني أستطيع أن أصمد في ارتداء الحجاب.

* * *

صباح الأحد بابا وأنا غارقان في قائمة من أعباء التنظيف الوسواسية التي كلفتنا بها ماما حتى تتمكن من التركيز على طبخ مأدبة لعشاء الليلة مع أخيها الأصغر، خالي «جو» وعائلته. هذه المرة يتورَّط بابا في ترتيب أسطوانات الـ«دي في دي» وأشرطة الفيديو حسب الحروف الهجائية. لكنه يكتفي بتنظيمها في فئات.

فيما بعد، أساعد ماما في المطبخ، وتقشير الخضار، ولفِّ ورق العنب، والقيام بأي شيء تحتاج إلى مساعدة فيه.

كلما دُعي شخص إلى بيتنا، تطبخ ماما كأنها ستُطعم نصف الكرة الأرضية الجنوبي بأكمله. لا توجد نسب مئوية للتقليل من محتويات الدهون،

ولا توجد صلصة خالية من الكربوهيدرات، ولا تتجرئي حتى على اقتراح خلطة سلطة ذات نسبة سكَّر منخفضة. ماما تحب أن تعطي انطباعًا عندما تطبخ، وعليه فإن حميتها الغذائية لا يصبح لها وجود كلما كان عندنا ضيوف.

خالي «جو» وخالتي «ماندي» يُضحكانني كثيرًا. رائع! خالي «جو» على النقيض من ماما تمامًا. كان اسمه إسماعيل عندما وُلِد، وخالتي «ماندي» كان اسمها عائشة. ما زلت أحاول معرفة من أين جاء اسما «جو» و«ماندي».

إنهما لا يهتمان بالإسلام والثقافة العربية مثلنا. إنهما أكثر اهتمامًا بتغيير اسميهما، ومعالجة شعريهما بالأكسجين، والتصرف كما لو أنهما وُلِدا في «واغا واغا» بأستراليا وليس في القدس. هما ينزعجان دائمًا من كوننا «متعصِّبين». مثلًا، في رمضان، يعتبراننا «مجانين» عندما نصوم. وعندما يحين وقت الصلاة، يسألاننا لماذا نهتم بذلك. وعندما نشتري طعامًا حلالًا نكون «متطرفين جدًّا». أتذكر مرة عندما ذهبنا إلى بوفيه عشاء وسألت ماما الشيف عمَّا إذا كان لحم الخنزير مقطَّعًا على نفس لوح التقطيع الذي يُقطَّع عليه لحم الخروف. كان خالي «جو» على وشك أن يصاب بتشنجات، وغضب من ماما لكونها «محرِجة» هكذا. لكن ماما ضحكت في وجهه، وذهبت إلى المديرة وأخبرتها أن أخاها، الرجل صاحب السلاسل الذهبية الثقيلة الذي يأكل سلطة البطاطا، يتساءل عمَّا إذا كان من الممكن أن يبدأوا في استخدام لوح تقطيع منفصل احترامًا لأولئك الذين لا يأكلون لحم الخنزير. اتجهت المديرة مباشرة إلى خالي «جو» وبدأت تتملقه وتعتذر له قرابة عشر مرات خلال دقيقة واحدة. شحب وجه خالي «جو».

ابنا خالي هما: «سمانثا» في سنتها الجامعية الثانية، و«جورج» في التاسعة؛ وهو من الممكن إلى حد بعيد أن يكون أكثر البشر إثارة للغضب في العالم.

بمجرد دخوله بيتنا الليلة أخذ يقلِب جفنيه ويخرج لسانه في وجهي، ثم يصيح بأن «سمانثا» كانت تعاني من الإسهال يوم الثلاثاء. يجب أن يكون هناك مركز للبحث العلمي يوافق على إجراء دراسة عن هذا الطفل.

«سمانثا» وأنا قريبتان جدًّا بعضنا من بعض. أراها فقط في التجمع العائلي؛ لأنها تقضي تقريبًا كل نهاية أسبوع متسكِّعة مع رفيقها مارتن. التقيت به عدة مرات. إنه نشيط بحق، بجدٍّ، عشرة على عشرة. إنهما مجنونان بعضهما ببعض. على الرغم من أن والديها غير مهتمين في الحقيقة بالدين والثقافة، إلا أنهما لن يقبلا أبدًا أن يكون لـ«سمانثا» رفيق. لذلك، كلما خرجت «سمانثا» مع «مارتن» تقول لوالديها إنها في بيت إحدى صديقاتها للدراسة.

لأننا جميعًا عائلة، فإنني لا أرتدي الحجاب عندما يأتون لزيارتنا. لذلك، وحتى وقت العشاء، كنت ما زلت قريبتهم بخصلاتها المنسابة ومظهرها الطبيعي.

الليلة بذلت ماما كل ما في وسعها لتقدِّم أفضل ما عندها. أعدَّت طبقًا فلسطينيًّا يسمى مَنْسَف، وهو في الأساس عبارة عن أرز مخلوط مع قطع من الدجاج وحبوب الصنوبر، تُضاف إليه شوربة اللبنة الحارَّة. وُضِع في صحن كبير. حضَّرت أيضًا إناءً ضخمًا من الفتوش: سلطة تتوِّجها قطع من الخبز المغموس في زيت الزيتون، مع أطباق جانبية من الخيار المخلَّل، والفجل والفلفل، ومعجنات اللحم المفروم وورق العنب، الذي هو عبارة عن أوراق عنب محشوة بالأرز المتبَّل. الجميع يشرع في الأكل عندما تعلن ماما أنني قررت ارتداء الحجاب.

تندب خالتي:

ـ ولكن لماذا؟

يصيح خالي جو:

ـ نعم يا جميلة، لماذا تسمحين لها بفعل ذلك؟ ألا يكفي أن ترتديه أنت، حتى تدفعي ابنتك إلى ارتدائه أيضًا؟

ـ ماذا؟ لم يجبرني أحد! كان قراري بكل ما في الكلمة من معنى.

يهمس خالي بنبرة يبدو واضحًا من خلالها أنه يتجاهلني:

ـ جميلة!

تقول ماما مقلِّبة ناظريها فيه، وتتناول حصة أخرى من الطعام:

ـ آه يا إسماعيل، اصمت.

يقول «جورج» مقاطعًا، ويضرب بشوكته على الطاولة معترضًا:

ـ بابا اسمه «جو» يا عمتي!

تقول «سمانثا» بتذمُّر:

ـ أوه! اخرس من فضلك!

ـ ماااما!! «سمانثا» تشتمني!

ـ «سمانثا» لا تكوني فظة مع أخيك.

ـ خالي «جو»، قلتُ إنه قراري! أوه! ضع جوربًا في فمك يا «جورج»!

تقول خالتي بنبرة تشي بالحماية على نحوٍ سقيم:

ـ ولكن يا أمل يا حبيبتي، لماذا تخفين شعرك؟ لك شعر رائع.

ـ حسنٌ، خالة «ماندي»، لأكون صادقة تمامًا معك، إنني أفقد شعري.

أخبرني الطبيب أن خلايا شعري لا تتحمل التعرض الزائد للشمس، وإن لم أغطه سأصبح صلعاء في حفل تخرجي من الصف الثاني عشر.

ينهج بابا من الضحك، لا يبدو أن خالي وخالتي متسليان. يخرج «جورج» لسانه في وجهي فأنظر إليه شزرًا. بعد العشاء أغلق أنا و«سمانثا» علينا باب غرفتي في الأعلى ونجلس على إفريز النافذة. «سمانثا» تدخن، لذلك نحرق شموع البخور، ونضع معقِّم الفم على مقربة منًّا، وكذلك علبة معطر الهواء، ونفتح النافذة على اتساعها. وترتدي «سمانثا» قفازات أيضًا حتى لا تعلق الرائحة بيديها. لقد جعلنا روتين ما بعد العشاء كاملًا تقريبًا.

تستنشق «سمانثا» الدخان، ثم تخرج رأسها من النافذة بسرعة موجهة الدخان الذي تزفره نحو الهواء.

ـ تأخذين نفسًا؟

ـ لا.

ـ متأكدة؟

ـ لا، أنا على ما يرام. وعلى كل حال، ماما وبابا سيشمان الدخان فيَّ حتى لو نقعت نفسي في مطهِّر.

ـ أعتقد أن والديَّ يعرفان أني أدخن.

ـ نعم، وأحسب أنهما ينكران فقط.

ـ جدًّا.. إذن أخبريني يا آنسة «أنا واقعة في الحب»، ماذا عن آدم؟

تأخذ نفسا أخيرًا وتغلق النافذة، ثم ترش جسدها بالعطر وغرفتي بمعطر الهواء. نقفز فوق سريري ونتمدد.

ـ إذن، ماذا عن آدم؟

ـ لا أعرف! لا أستطيع أن أحدد!

أسند رأسي على رأس السرير:

ـ إنه ذكي وطموح ولطيف حقًّا، وهناك كثير من الشباب مثله، ولكنني شعرت في أحد الأيام بذلك الارتباط وبعد ذلك... لا أعرف، بدأت ألاحظ أشياء عليه.

ـ مثل؟

ـ مثل.. عندما كنت أنتظر الأتوبيس بعد المدرسة ورأيته يمشي في الساحة الرباعية الزوايا. كانت فتاة من المرحلة الإعدادية تركض ثم سقطت على الأرض، ساعدها آدم على النهوض ونفض غبار الأسفلت عن ركبتيها، وجعلها تضحك في ثوانٍ. كان الأمر مختلفًا كثيرًا عمَّا هو عليه عادة، تعرفين، مختلف عن التصرفات الرجولية والعنيفة في الصف مع الشباب.

تميل «سمانثا» برأسها ناحيتي وتبتسم:

ـ ذلك بلا ريب أسخف شيء قلته! آع!

أقول متذمرة:

ـ أعرف! يا إلهي، أحس أني سخيفة طوال الوقت! يسلِّم عليَّ وأحس أني أطير بقية اليوم. هذا مثير للاشمئزاز! لكن آدم جذاب جدًّا.

ـ نعم، نعم. أفهمك، هكذا أنا و«مارتن» أيضًا. صحيح! لن تصدقي ما حدث نهاية الأسبوع الماضي!

ـ ماذا؟

ـ لقد ضُبِطت!

ـ بسبب ماذا؟

ـ عدت إلى البيت بعد الرابعة. ليست مشكلة كبيرة، لكن ماما وبابا كانا ينتظرانني، وكان الأمر كما تشاهدين في الأفلام. كانا جالسين على الأريكة، كل منهما واضعًا رجلًا على الأخرى، غاضبين جدًّا، وعلى أتم استعداد للخناق. دخلت وكان أول شيء أردت فعله هو أن أضحك؛ لأن بابا كان يرتدي ذلك الروب الساتاني الأسود وعليه قلوب.

ـ يا إلهي! يا للفضيحة!

ترتعد:

ـ لا تذكريني.

ـ ماذا حدث إذن؟

ـ بعض الحمقى أخبروا ماما أنهم رأوني في حانة مع شاب. صُعِقَتْ. أخبروها أنهم رأونا يحضن أحدُنا الآخر. لا بد أنه كان وصفًا فاحشًا لأنها راحت تقول أنا خجلة جدًّا من ترديد التفاصيل! كان ذلك محرجًا جدًّا يا أمل. خمِّني مَن أخبرها؟

ـ من؟

ـ تذكرين «راؤول»؟ الشاب الذي تخلصت منه لأنه كان يجعلني أدفع لكل شيء واستدان مني مالًا ليشتري لي هدية عيد ميلادي! ماما تعرف أمَّه. هيَّا، تعرفينه!

ـ في كل وقت نخرج معًا ينسى محفظته في السيارة أو ينتظر صرف شيك من العمل؟!

ـ نعم، ذلك الأبله. يبدو أنه كان في نفس الحانة، رآنا هناك، هاتف أمَّه وذكر لها ذلك مصادفةً! وفي ثوانٍ كانت تجعجع بكل شيء لماما على الهاتف!

ـ مستحيل! وماذا قال والداك؟

ـ جُنَّ جنونهما.

ـ هل أغضبهما أنك كنت في الحانة؟

ـ لا، يعرفان أني أشرب، تلك ليست مشكلة بالنسبة إليهما. مشكلتهما أني كنت مع «مارتن»!

ـ ثمَّ، تخيلي هذا، أخذ بابا يطلق نظريته الثقافية عليَّ. راح يتحدث عن أن هذا ليس من ثقافتنا. لم أحتمل عند هذه النقطة. أقصد، لا يمكنه أن يستخدم الجدال الثقافي فقط كلما ناسبه ذلك. لعقدين ونحن نتلقى المحاضرة الفارغة «يجب أن نندمج»، ثم وفي دقيقة تكون لنا فجأة جذور عربية وتوقعات ثقافية.

ـ خالي «جو» قال ذلك؟

ـ أتصدقين؟ هذا يصدر عن الرجل الذي يعتقد أن كلمة «أجنبي» سُبَّة في عصرنا. طوال حياتنا أنا و«جورج» يحشو أدمغتنا بفكرة أن علينا نسيان ثقافتنا، وأن نعيش كأستراليين، أيًّا يكن معنى ذلك. ولكن عندما أفعل شيئًا لا يعجبه، يتحول ١٨٠ درجة.

ـ لا أصدِّق ذلك.

تقول متذمرة:

ـ ما زلت مصدومة. على كل حال، لنغيِّر الموضوع. صحيح يا أمل، لاحظتُ أن بابا حاصرك بنصيحته الكبيرة باتباع خطاه والتخصص في تقنية

المعلومات. يا إلهي! إنه لا يتوقف عن الحديث عن كيف أن العائلة بأكملها تعتمد عليك في الحصول على درجات عالية وتحقيق فخر لها.

أقول:

ـ وكأن نصائح والديَّ غير كافية لأتحمَّلها.

ـ إنه يتكلم بحماسة بالغة عن ذكائك ومكافآت المناظرات التي تحصلين عليها، وأنك لن ترضي أبدًا بمجرد شهادة فنون مثلي.

أظن أن «سمانثا» لم تسمع خالي «جو» يخبرني أنه يعتقد أن لا أمل لي فيَ المستقبل إذا واصلت ارتداء الحجاب. وبحسب نظريته، من الأفضل للمسلمين في ظروف هذه الأيام أن يتراجعوا ويخفوا هويتهم، ليس لأنهم في حاجة إلى الاندماج فحسب، بل لكي يتقدموا في المجتمع أيضًا.

يا إلهي هل يوقع ذلك في نفسي الذعر؟! حسنٌ، أعرف أني قلت إنني أستطيع التحمُّل، ولكن عندما يختبر راشد قدراتي تضطرب معدتي فجأة. هل خالي «جو» محق؟ بالتأكيد، أنا أحيانًا أحس بإغراء شديد نحو التراجع والانسحاب إلى أمان عدم الكشف عن الهوية. بنقرة سريعة على دبوس آمِن يسقط حجابي من على رأسي وسأبدو مثل أسترالية غير أجنبية.

ولكن كما حذرني خالي «جو» من «الاندماج مع الحشود»، فإن إحساسًا غريبًا بدأ يثور داخلي. لم أعرف ماذا كان: تحدٍّ؟ غضب؟ فخر؟ لا أستطيع تحديده. سواءٌ اخترت أن أكون رائدة فضاء، أم ربَّان، أم ضابطة مرور، أم عالمة، أم عارضة لمنتجات «تَبروير» المنزلية، ستكون قطعة القماش هذه معي، سواء أَحبَّ خالي «جو» ذلك أم لا.

(١٠)

تسأل ماما خالتي «كساندرا»، ناظرةً إليَّ وإلى ياسمين وعيناها تلمعان، بينما نجلس في الغرفة المليئة بالضجيج ليلة الجمعة بعد عشاء عائلي:

ـ تذكرين أيامنا الأولى في أستراليا؟

بابا وعمي طارق يجلسان في المصطبة يلعبان الشطرنج. لدى عمي طارق غليون، يأخذه معه أينما ذهب، ويدخن تبغًا بنكهة التفاح. توسلت إليه أن أجرِّب، لكن بابا أخبرني أن طعمها سيتغير بعد الموت ـ أي بعد أن أموت بسببه.

خالتي «كساندرا» وعمي طارق ليسا قريبين لي، ولكننا ننادي أغلب الكبار في الثقافة العربية من أصدقاء العائلة أعمامًا وخالات، وأولادهم «أبناء العم». يصنع ذلك عائلة ممتدة وكبيرة جدًّا.

تقول خالتي «كساندرا»:

ـ طبعًا أتذكر.

ـ لم تكوني لتجربي ذلك يا «كساندرا»، ولكن يا للمشاكل التي واجهتني

مع الإنجليزية! كثيرًا ما شعرنا بالعجز. أتذكر عندما ذهبنا إلى السوبر ماركت وطلبنا كيلو لحمًا مهروسًا. لم يستطع الولد فهم ما كنت أقول، فنادى أحدًا ما لمساعدته. بقيت مصرَّة على أني أريد لحمًا مهروسًا. وعندما أدركا أخيرًا أني قصدت لحمًا مفرومًا لم يتمالكا نفسيهما من الضحك عليَّ. شعرت بالحرج كثيرًا.

نضحك جميعًا.

ـ نعم، إن الأمر مضحك الآن، لكننا كنا صغارًا وجديدين في المكان، وكان الناس ينظرون إلينا وكأننا غرباء. وبعضهم لم يكونوا صبورين معنا ومع عائق اللغة.

تقول خالتي «كساندرا»:

ـ كان هناك أشخاص لا يفهمون لكنتي الإنجليزية.

تقول ياسمين:

ـ لذلك من الصعب فهمك أحيانًا، ماما!

ـ ذلك لأن لك أذنًا تختار ما تريد سماعه. عندما أعرض عليك محفظة من المال تفهمينني تمامًا، ولكن عندما أطلب منك ترتيب سريرك أكون فجأة غير مفهومة!

تبتسم لنا خالتي «كساندرا» ابتسامة عريضة.

ـ على أية حال، أتذكر أشخاصًا فظين معي ويدعونني بالمهاجِرة اللعينة، ويقولون إنني أرطن كلامًا غير مفهوم. وحقيقة أنني كنت أرتدي الحجاب ـ حسنٌ، القبعة ـ ومتزوجة من باكستاني رفعت كثيرًا من الحواجب أيضًا.

تهزُّ ماما رأسها.

ـ أوه! تسلَّينا أيضًا. نتبادل القبل أمام الناس ونجعلهم يشعرون بعدم الارتياح.

تصيح ياسمين:

ـ يععع!

تخبرنا ماما:

ـ أحيانًا يكون الأمر مضحكًا جدًّا، لن أنسى أبدًا عندما أخذني محمد إلى حديقة كي نشوي اللحم لمَّا كنَّا مخطوبيْن. جاء يركض مذعورًا، ومصدومًا أن هناك أشخاصًا يأكلون الكلاب، وأنهم يأكلونها ساخنة. لم أفهم ما يقصد حتى رأيت عائلة تقف عند «الباربكيو» تتحدث عن شيٍّ «الهوت دوج». كنَّا مرعوبيْن. وعندما عرفنا لاحقًا ما «الهوت دوج»، أُصبنا بهيستيريا من الضحك.

لا نستطيع التوقف عن الضحك وماما تفرك عينيها، بينما تنهمر الدموع على وجهها من شدة الضحك.

ـ لعنَّا هذه البلاد البائسة التي يأكل فيها الناس الكلاب، وتساءلنا عمَّا لو كانت القطط وجبات أيضًا!

تقول خالتي «كساندرا»:

ـ كان عليَّ أن أتعود على الطعام ذي نكهة الكاري! أصبحت متكيِّفة جدًّا مع الطعام الحارِّ والمتبَّل، حتى إنني بدأت أحمل معي أكياس الفلفل الصغيرة في حقيبة يدي في تلك الأوقات التي أتناول فيها طعامًا جاهزًا. تخيلوا تلك الفتاة الإنجليزية التي تربَّت على أكل السُّجُق والهريس،

تطبخ فجأة سمبوسة متبَّلة وخبز «روتي» الهندي وتضيف الفلفل الحار للبطاطس!

تقول ماما:

ـ لقد أخذنا وقتًا لنتعوَّد، أليس كذلك «كساندرا»؟ كان أبوك يا أمل يقول لي: إذا غاظك أحد فقط فابدئي بسبِّهم بالعربية. على الأقل ستتخلصين من الإحباط.

تبتسم خالتي «كساندرا» ابتسامة عريضة:

ـ هذا بالضبط ما كنت أفعله. عندما كان يغيظني أحدهم، كنت أسبهم بالأوردية فلا تكون لديهم فكرة عمَّا أقول.

أقول:

ـ ماما! كيف يشجعك بابا على السب، إنه يتشنَّج إذا...

ترمقني ماما بنظرة قاسية:

ـ لم يكن يرى ذلك فظًّا؛ لأنهم لم يكونوا يفهمون ما نقول.

تضيف خالتي «كساندرا»:

ـ وكان الزمان مختلفًا آنذاك.

تقول ماما:

ـ بالضبط، كنت ألعن شوارب الناس!

تسأل خالتي «كساندرا» بارتياب:

ـ الشوارب؟؟

ـ إنها سبة عربية نموذجية. الله يلعنك ويلعن شواربك.

أقول بتذمُّر:

ـ لأن ذلك سيجعلك تغضبين، أليس كذلك يا ياسمين؟ أوه! أحس بإهانة كبيرة.

تقول ماما:

ـ وُلدتِ هنا، لن تفهمي ذلك.

لكنني أجد ذلك مضحكًا جدًّا. أقصد، أن تهين شخصًا بسبب شعر وجهه؟ لا بد أن ثمة خطأ في الترجمة. السبة العربية الأخرى التي تجعلني أنفجر بالضحك تلك التي يستخدمها والداي كلما غضبا مني. فبدلًا من لعني أنا، يلعنان نفسيْهما! عندما يصيح بابا: «الله يلعن أبوك» أحك نفسي كالمصاب بالجدري تمامًا؛ لأقول له إنه في الحقيقة قد أخطأ الفكرة. واستخدمت ماما مرة لعنة «الله يلعن أمك»؛ لأنني غضبت عليها غضبًا شديدًا لمَّا ألقت بجميع أعداد مجلة «كوزمو» في صندوق النفايات. وعندما أشرت إليها أنها في الحقيقة تلعن نفسها، أبدت ردة فعل عنيفة. أسمعتني محاضرة عن احترام الوالدين، والرد بفظاظة، والغطرسة، وكان عليَّ أن أسمع كل شيء عن كيف كانت تتحدث مع والديها، وكيف كان هما يتحدثان مع والديهما. يا إلهي كنت منهكة عندما انتهتْ.

تواصل ماما:

ـ على كل حال، تعوَّدت أن أسبهم في وجوههم، ثم أعود إلى البيت وأدعو الله أن يغفر لي لأنني لعنت أهلهم!

تقول خالتي «كساندرا»:

ـ اسمعن يا بنات، كنَّا صغارًا وكانت لنا تحدياتنا في التأقلم مع المدينة الجديدة. لقد تمكنَّا من التأقلم، ولن تكون لديكما أية مشكلة لأنكما ولدتما هنا. تستطيعان التأقلم مع أية عقبة تقف في طريقكما.

تقول ماما:

ـ بالضبط.

تقول ياسمين:

ـ نعم، ولكن استطعتما أن تسبا!

أضيف:

ـ ذلك صحيح، لقد حُرِمنا من سلاحكما السحري رقم واحد.

تنظر أمهاتنا إلينا، تبتسمان ابتسامة عريضة، ثم تقولان لنا، خالتي «كساندرا» بالأوردية وماما بالعربية، أن نكبر.

* * *

في أثناء الأسبوع أدرك القطار إلى بيت ليلى. كانت ياسمين هناك عندما وصلت. في كل مرة نلتقي نحن الثلاث، نتبادل الأحضان ونصرخ مرحِّبات وكأننا لم نرَ بعضنا بعضًا منذ أشهر.

تصرُّ أم ليلى فور وصولنا تقريبًا أن نأكل «وجبة خفيفة»، وتبدأ بحشو حلوقنا بالطعام.

توبخني:

ـ أمل، لم تأكلي دجاجًا.

ـ هذه قطعتي الثانية خالتي.

أم ليلى شبه خالة أيضًا.

تقول متنهِّدة:

ـ لا تُحبِّي دجاجي!

مكتبة أحمد

ـ إنه لذيذ، بصدق.

ـ إذن، خذي قطعة أخرى.

تضع حصة أخرى من الطعام في صحني، مضيفةً الأرز والسلطة؛ لأنني أعتقد أن هذه المرأة لن تستيقظ غدًا إذا لم آكل الدجاج من دون الأرز والسلطة.

ـ ياسمين، تريدين خبزًا؟

وقبل أن تجيب ياسمين، تضع أم ليلى خبز «بايد» التركي على صحن ياسمين. نتبادل، أنا وياسمين، النظرات بسخط، وتعول ليلى وترجو أمَّها أن تكفَّ عن إطعامنا وكأننا أوقفنا لتوِّنا مجاعة الأربعين ساعة.

تقول أم ليلى، وهي ترمق ياسمين بنظرة حادة:

ـ أمل بنت جيدة، تلبس الحجاب. بنت جيدة.

تتجاهل ياسمين النظرة المحدِّقة وتتابع الأكل.

أقول وأنا أصرُّ بأسناني:

ـ إنها مجرد قطعة قماش يا خالتي، ما في قلبك هو ما يهم.

وكأنني أتحدث بالإسبانية. تضع ملعقة أخرى من السلطة على صحني، تربت على كتفي وتقول:

ـ لماذا لا تلبسينه أنت أيضًا ياسمين؟ كوني بنت جيدة مثل أمل.

تقول ياسمين وهي تأخذ قضمة من الطعام:

ـ عندي حساسية!

ـ هراء! لا عذر. مكافأة زيادة لك. ألا تريدين أن تكوني بنت جيدة وتذهبي إلى الجنة؟

تصيح ليلى:

ـ ماما! توقفي عن مواعظك المزيفة، ألن تفعلي! اتركي ياسمين وشأنها، لأجل الله!

ـ لا تصرخي في وجهي ليلى! أنت فظة جدًّا. فظة جدًّا أحيانًا. يا الله! أرجوك احفظ بنتي واجعلها بنتًا جيدة! لا تعاقبها! سامحتُها يا الله! تجعلني أبكي كل ليلة! تسبب لي صداعًا نصفيًّا! أوه! صداع نصفي كبير! لكنني أسامحها! لا تعاقبها أرجوك!

تختلس نظرة إلى ليلى، لكن ليلى تزدرد طعامها بشرب المياه الغازية، وتقلِّب في دليل التلفزيون.

تنصرف أمها إلى حجرة الجلوس، وهي ما زالت تندب بسبب الصداع النصفي.

بعد ذلك بقليل، يُفتَح باب المطبخ ويدخل أخو ليلى، «سام»، الذي كان اسمه «حاقان» عند مولده، لكنه أخذ يسمِّي نفسه «سام» منذ المدرسة الثانوية.

يغمغم، مومئًا برأسه نحونا وهو يفتح الثلاجة:

ـ هاي!

نقول:

ـ أهلًا!

وينتهي حديثنا فجأة.

ـ ماذا يوجد للأكل ليلى؟ إنني أتضور جوعًا. حضّري لي صحنًا.

ـ إنه على الموقد أمامك. هناك دجاج وأرز وسلطة.

يلتفت ببطء لينظر إليها:

ـ لا تتذمري، ولا تظني أنك جيدة لأن صديقتيك هنا. قلت حضري لي صحنًا، سأذهب لأغيِّر ملابسي، ضعي صحني في الفرن. وأين قميصي الأزرق؟ من الأفضل أن تكويه يا ماما. عليَّ أن أكون في المدينة خلال ساعة.

يرمقها بنظرة تهديد وينطلق صاعدًا الدرج.

تغمغم ليلى:

ـ أحمق!

وتنهض لتحضِّر له صحنًا، ووجهها متورِّد من الإحراج:

ـ وجه خنزير. يا الله، لا أعرف لِمَ أنتمي إلى هذه العائلة الحمقاء!

لا نقول شيئًا، نجلس إلى الطاولة وحسب، نلعب بطعامنا بشكل أخرق.

تهمس ليلى:

ـ سأعطيه جميع قطع الأرجل لأنه يحب الصدر، سأخبئ الباقي داخل الثلاجة في الخلف. إنه أكثر كسلًا من أن يبحث هناك على كل حال، ولا يحتاج الطماطم والخيار في السلطة، سأخرجها من السلطة وأُبقي

له الخس فقط. أسرعا يا بنات واشربا المياه الغازية. لا نريد أن نترك شيئًا الآن، أليس كذلك؟

تلتفت إلينا وتبتسم ابتسامة عريضة:

ـ أستطيع استعادة «الكوكا كولا» الخاصة بي. لا تقلقا!

بعد خمس دقائق نذهب إلى غرفة ليلى، نقبض بطوننا ونتذمر كيف أننا أكلنا مثل الجواميس.

تخبرنا ليلى:

ـ كانت ستبكي لو أنكما رفضتما حصة أخرى من الطعام، إنها متعتها الوحيدة في الحياة: أن تطعم الناس. الحمد لله أن لي جينات جيدة وإلا لكنت وصلت إلى المدرسة في شاحنة.

تجلس ياسمين على الكيس القماشي المملوء بحبات الفول الاصطناعية وتلعب دور الـ«دي جاي» باستريو ليلى.

أم ليلى تناديها:

ـ ليلى!

ـ نعم ماما؟

ـ تعالي اكنسي.

تردُّ ليلى بإنهاك:

ـ ألا يستطيع «حاقان» فعل ذلك؟

تردُّ بنزق مندفعة إلى الغرفة:

ـ إه؟ لماذا يفعل أخوك ذلك وعنده أخت؟

ـ لأنني آخر مرة رأيته لم يكن مصابًا بالشلل الرباعي، وسيكون جيدًا معرفة أن يفعل شيئًا هنا غير تصفح القنوات!

ليلى مهتاجة، وعيناها جاحظتان من الغضب. ياسمين وأنا ننظر بعضنا إلى بعض. إنه من غير المريح دائمًا الجلوس في بيت أحد بينما يتعاركون في منطقة الحرب العائلية.

ـ لا تكلميني بإنجليزية صعبة. تعتقدين أني لا أفهم ما تقولين... أنت تضرطي أيضًا.

نفجر جميعًا بالضحك وترفع أم ليلى حاجبيها لليلى.

ـ اكنسي الآن.

تخرج، وتلكم ليلى مخدتها.

ـ انظرا ماذا عليَّ أن أتحمل؟

نضحك، ونحن نعرف أن لا شيء هناك نقوله عدا أن نطمئنها أن كل شيء سيكون جيدًا، حتى لو كنا غير متأكدتين من ذلك.

(١١)

في اليوم التالي في المدرسة، في أثناء استراحة الغداء، أتوجَّه إلى حمامات البنات لأتوضأ للصلاة. وبينما أغسل قدميَّ تدخل «تيا» مع «ريتا ماسون». أتجاهلهما.

تسألني «تيا» بنبرة ساخرة:

ـ ماذا تفعلين؟

ـ ماذا يبدو لك الأمر؟

ـ لا أعرف. إنك لا تمشين في الصحراء، تعرفين، لدينا أحذية في هذه المدينة.

أتجاهلها:

ـ إنني أغتسل للصلاة.

ـ أوه! يبدو الأمر معقدًا قليلًا. إنك في الواقع تغسلين قدميك، لكي تستطيعين وحسب، آه، ماذا كان ذلك، الصلاة؟

أقف بكامل طولي، مرتدية أحد الجوارب والآخر لم أرتده بعد، بكل شرف.

ـ ذلك صحيح. أترين يا «تيا»، إنني أغسل قدميَّ خمس مرات في اليوم. وهذا يعني أن قدميَّ، في أي وقت طوال اليوم، أكثر نظافة من وجهك.

تصيح مزمجرة:

ـ أوف!

وتندفع خارجًا مع «ريتا».

أسأل «سيمون» بينما كنا نتجه إلى بوابة المدرسة في انتظار الأتوبيس:

ـ هل ستسجلين اسمك للمناظرة؟

تهزُّ «سيمون» رأسها:

ـ لا! لا! هذا عمل مجهد جدًّا. لدينا ما يكفي من العمل. والوقوف أمام جميع أولئك الناس يوقع في نفسي الذعر، خصوصًا الرد بالحجة والدليل. أكره ذلك! مثلًا، عليك أن تخرجي بطريقة تهزمين بها حججهم خلال خمس دقائق. سأكون منشغلة جدًّا بذعري من أن ترجف يداي أو أن يتقطَّع صوتي.

ـ أوه هيَّا! أنت ممتازة في الإنجليزية والدراسات القانونية.

تقول والارتباك بادٍ على وجهها:

ـ مستحيل!

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف. إنني أُحرَج كثيرًا. الكل يحدِّق في البنت السمينة وهي تناظر.

أقول بتذمر:

ـ «سيمون»! لا تقولي ذلك عن نفسك! ذلك كله في رأسك فقط. لا أحد يفكر فيك هكذا. عليك أن تتعلمي كيف تحبين نفسك!

تتظاهر «سيمون» وكأنها تختنق:

ـ أمل، استعيدي صوابك. أنت لست أوبرا.

ـ حسنٌ، إذن كفّي عن عادتك تلك في الادّعاء أنك بدينة مثل شخصية «روزيان» في المسلسل.

ـ ولستِ الدكتور «فِل» أيضًا. لماذا لا تسجلين أنت للمناظرة؟ لك لسان طويل لذلك على كل حال!

ـ شكرًا «سيمون»، حجة مقنعة بحق.

نضحك وتلكزني على الجنب. ثم تتوقف فجأة عن التهريج وتهمس لي:

ـ «جوش» قادم في اتجاهنا... يا إلهي، هل شعري مرتب؟ هل أبدو بمظهر لائق؟

أقول بسرعة:

ـ بالطبع أنت كذلك!

نتظاهر بالاستغراق في الحديث ونبدي تفاجؤنا لمرآه عندما يقترب منّا.

يقول مبتهجًا:

ـ هاي يا بنات!

نقول معًا بتناغم:

ـ أهلًا «جوش».

ـ الشكر لله، اليوم هو الجمعة، أليس كذلك؟

ـ أعرف.

تنقل «سيمون» حقيبتها إلى الكتف الأخرى:

ـ مضى هذا الأسبوع ببطء.

يقول متذمِّرًا:

ـ نهاية هذا الأسبوع ستكون ثقيلة عليَّ!

أسأل:

ـ لماذا؟

ـ عرس أختي.

تقول «سيمون»:

ـ رائع، ينبغي أن يكون ذلك مسليًا.

ـ تعتقدين؟ سيقبِّلني مجموعة من الأقارب المسنين أصحاب الأنفاس الكريهة وأصحاب الآراء السيئة حول أي لون من الجوارب ينبغي أن أرتدي مع بذلتي.

أقول:

ـ ذلك سيئ!

ـ وسوف يضايقونني باستمرار بالأسئلة عن المدرسة والامتحانات. ما الدرجات التي أتمناها لدخول الجامعة، وأي الجامعات أستطيع الالتحاق بها وكل هذا الهراء.

يقلِّب ناظريه:

ـ وستسلط جدتي وشلتها عليَّ.

أرجف:

ـ أكره عندما يشكِّل المسنون عصابة ضدك!

تصيح «سيمون»:

ـ أعرف. هناك أشخاص من نادي اليخت الذي ينضم إليه والداي يشكلون عصابة ضدي! يسألونني بلكنتهم البريطانية الزائفة عمَّا إذا كنت سأتبع خطى ماما، وكأنني أريد فعلًا أن أكون ربة بيت غنية تقود سيارة الـ«فور باي فور» إلى السوبر ماركت، وتقضي يومها تمارس رياضة «البيلاتس»، أو تصرف كل ما في بطاقة الائتمان على مناديل مائدة مصنوعة من «الأورجانزا» الخضراء لأن «سارة مردوخ» أو غيرها من عارضات الأزياء المشهورات صاحبات الذوق تعتقد أنها مناديل أنيقة جدًّا.

ينفجر «جوش» ضاحكًا ويتورد وجه «سيمون» قليلًا.

أسأل بارتياب:

ـ ولكن لماذا لكنتهم زائفة؟

ـ يأخذون إجازة في لندن، ويعودون من هناك وفي اعتقادهم أن لكنتهم أصبحت جذابة مثل «ديفيد بيكهام»! يا لهم من فاشلين!

ألاحظ كيف تلمع عينا «جوش» وهو ينظر إلى «سيمون»، في حين يشرق وجهها للغاية.

أسأل:

ـ إذن، ما الذي سيفعله لكَ نادي الجدات؟

ـ بالتأكيد سيحققن معي حول رأيي في جميع الضيفات. هل عندي رفيقة؟ أي نوع من الفتيات يروقني؟ هل أحب الشعر الطويل أم القصير؟ أرثوذكسية أم علمانية؟ هل عليها أن تحافظ على الطقوس الدينية يوم السبت؟

تسأل «سيمون»:

ـ إذن، هل يحضرون لك رفيقة؟

يقول بسرعة:

ـ لا! مستحيل! حاولوا لكن ذلك مستحيل! إنهم لا يعرفون النوع الذي يروقني على أية حال.

أستطيع أن أُقسم إنه نظر إليها عندما قال ذلك، وقفز قلبي من الفرح لها. أردت أن أغادر وأتركهما يتحدثان، ولكن قبل أن أختلق عذرًا لأفرَّ تكسر «سيمون» الصمت. أعرف أنها محرجة وغير واثقة من نفسها.

تسأله:

ـ ومَن تتزوَّج أختك؟

يبدو مشوَّشًا، لكنه يهزُّ رأسه ويبتسم:

ـ لا تسألي!

أسأل:

ـ لماذا؟ ألا تحبه؟

ـ إنه في الواقع متديِّن!

يتوقف وينظر إليَّ بخجل:

ـ آسف، لم أقصد مضايقتك!

أبتسم له وأقول:

ـ لا تكن أحمق. إذن، هل هو يهودي أرثوذكسي؟

ـ يا إلهي! إنه أرثوذكسي متطرِّف، وعائلتي يهودية علمانية. لطالما كانت «تمارا» مرِنة عندما يتعلق الأمر بالدين، لكنها أصبحت الآن صارمة بحق.

تسأل «سيمون»:

ـ ماذا تقصد؟

ـ منذ أن صارا مخطوبيْن، تكون عدوانية فعلًا عندما لا نتبع طقوس يوم السبت.

أشرح لـ«سيمون»:

ـ اليهود المتمسكون بالدين لا يقومون بأي شيء يعتبر عملًا في يوم السبت.

ـ هذا صحيح؛ لذلك لا يستخدم خطيبها الكهرباء. إنه لا يشعل الضوء ولا يفتح التلفزيون أو أي شيء من هذا القبيل. لا يقود السيارة، لا يكتب، لا يحلِق، لا يحمل أي شيء، ولا يمزق ورق المرحاض حتى!

تقول «سيمون»:

ـ نعم، سمعت بذلك.

ـ إنه يأخذ لفة من ورق المرحاض قبل السبت بيوم ويجعلها جاهزة لليوم التالي. «تمارا» تحاول اتباع ذلك أيضًا، تجلس أمام التلفزيون ليلة الخميس وتقطع ورق المرحاض وتكومه، وبابا يطلق عليها نكات تجعلها تجنُّ.

أقول:

ـ نعم، أظن أنها ستُجنُّ إن كانت هي الوحيدة في عائلتها التي تمارس دينها، هل سترتدي الشعر المستعار؟

تصحِّح «سيمون»:

ـ تقصدين الباروكة.

يقول «جوش»:

ـ واو! كيف عرفت ذلك؟

أتبجَّح:

ـ «سيمون» تعرف كثيرًا من المعلومات عن الديانات الأخرى، أليس كذلك «سيمون»؟

تسعل وترمقني بنظرة حادة:

ـ آآ... أحاول. عليها أن ترتديه بمجرد أن تتزوج، صحيح؟

يقول «جوش»:

ـ نعم، «سولومون» خطيبها، يريدها أن تفعل ذلك حقًّا.

تقول «سيمون»:

ـ أحد ما يلوِّح لك هناك، في تلك السيارة.

يلتفت ليرى، ثم يلتقط حقيبته من على الأرض:

ـ ابن عمي، إنه فتَّان كبير أيضًا. والآن سترثر كل العائلة.

يبتسم لي ابتسامة عريضة:

ـ عندنا عشاء عائلي الليلة احتفالًا بـ«تمارا». ستكون ليلة مثيرة بلا ريب.

أسأل:

ـ لماذا ستثرثر العائلة؟

تضيف «سيمون»:

ـ نعم؟ ما المثير جدًّا في الأمر؟

يقول:

ـ أنا أتحدث مع فتاة مسلمة وهذا أمر مثير في عائلتنا.

ألقي نظرة عجلى على ابن عمه، الذي يعقد حاجبيه ويبدو حائرًا.

تقول «سيمون»:

ـ هذا بالإضافة إلى أنها فلسطينية.

أسأل:

ـ هل تريدينني أن ألوِّح؟

ـ نعم يا أمل، رجاء افعلي!

يمضي «جوش» في اتجاه السيارة، وبينما ألوِّح له تلتقي نظراتي بنظرات ابن عمه المحدِّقة وفمه المفتوح. أبتسم بحبور غير أن ابن عمه يتفادى نظرتي، مشيحًا بوجهه إلى النظر خارج النافذة. يقف «جوش» أمام الباب وبينما هو على وشك الركوب يركض عائدًا إلينا.

ـ هاي «سيمون»، هل تمكنت من كتابة تلك الملاحظات الخاصة بكتاب «أورويل» «١٩٨٤»، في حصة اللغة الإنجليزية اليوم؟

تقول متلعثمة:

- إر... نعم... نعم. هل تحتاجها؟

- سجلتها، لكن يا إلهي كان مستر «بيرز» يتحدث بسرعة كبيرة، لذلك لم أسجلها كلها. هل تعتقدين أنه بإمكاني مراجعتها معك يوم الاثنين في أثناء الاستراحة؟ الامتحان قريب وأنا مرتبك جدًّا. الملاحظات التي سجلتها سيئة جدًّا.

- نعم... أكيد... لا مشكلة.

- رائع!

يركض مسرعًا ويركب السيارة، خابطًا ظهر ابن عمه مازحًا بينما يسحب النافذة إلى الأسفل.

ينادي:

- يا بنات!

- نعم؟

- سنواصل نقاشنا عن العمليات الإسرائيلية السرية في الضفة الغربية يوم الاثنين، ويمكنكما إكمال تسريب معلومات عن منظمة التحرير الفلسطينية! تمنياتي لكم بعطلة نهاية أسبوع رائعة!

ننفجر في نوبة قهقهة، بينما يزداد وجه ابن عم «جوش» تكشيرًا، ويضغط بعنف على دواسة البنزين وينطلق.

نتبادل أنا و«سيمون» النظرات، ثم نبدأ بالنطِّ والصراخ مبتهجتين مثل طفلتين أمام محل بيع الآيس كريم.

(١٢)

حدث ذلك وحسب. أصبح آدم و«جوش» جزءًا من مجموعتنا الصغيرة. ليس في كل استراحة ولا في كل فترة غداء، ولكنهما عندما لا يكونان في المكتبة أو يمارسان الرياضة مع الشباب، يجلسان معنا أحيانًا. أركِّز على كلمة أحيانًا لأنه ليس هناك ثمَّة روتين ما أو نظام معيَّن؛ ولذلك، كلَّما رنَّ جرس فترة الغداء أحتاج إلى حبة أسبرين بسبب ملايين الأفكار التي تتدافع في رأسي. ثلاثة من هذه الملايين هي كالتالي:

١ ـ (الجرس يرنُّ) هل سينضم آدم إلينا؟ هل سينضم آدم إلينا؟ هل سينضم آدم إلينا؟ ما الهدف من العيش إذا لم ينضم آدم إلينا؟

٢ ـ (الجرس يرنُّ) هل سيكون لديَّ وقت لأضع ملمِّع الشفاه، وأصبغ أهدابي ثم أكون في الردهة؟ وإذا فعلت هذا، هل سألحق به في الردهة أم سيمشي عندما لا يجدني هناك؟

٣ ـ (الجرس يرنُّ) ماذا لو أنني آكل ساندويتشي ويحدث أن ينضم هو إلينا في اللحظة التي أقضم فيها قطعة كبيرة؟ ماذا لو كان هناك طعام ملتصق بأسناني؟ (أمس قررت أنا و«سيمون» و«إيلين» أن نستخدم

شفرة لمساعدة بعضنا بعضًا؛ فإذا قلنا «بيج برذر» فإن ذلك يعني أن هناك حاجة ملحَّة إلى أن تنظفي أسنانك، وإذا قلنا كلمة «سرفايفر» فهذا يعني أنك في أمان.)

وبعد إعادة النظر، ربما أحتاج إلى أكثر من حبة أسبرين.

«إيلين» غائبة اليوم لأنها مريضة، لذلك أجلس أنا و«سيمون» وحدنا في فترة الغداء تحت شجرة بالقرب من ملعب كرة القدم. كل انتباهنا منصبٌّ على مقال في مجلة عن «تخطِّي العقبات الموجودة في جسمك» وكيف «ينبغي ألا تشكل ذراعاك المترهلتان عقبة في حبك لنفسك». وكتعزيز إضافي لحكمة هذه المجلة المصغَّرة، يعرض المقال صورة عارضة أزياء مرتدية بيكيني بمقاس ستة، ولديها ترهلات مثل الموجودة لدى جنين! يقترب منَّا آدم و«جوش» فجأة عبر الملعب، وتهمس «سيمون» بسرعة:

ـ بيج برذر.

أقوم ببعض التنظيف السريع والمثير للإعجاب لأسناني وأبتسم لها ابتسامة كبيرة، تومئ برأسها مؤكدة نجاح المهمة، ويواصل قلبي نبضه المعتاد. بعد ذلك يغرس «جوش» وآدم نفسيْهما بقربنا، ونضع أنا و«سيمون» المجلة جانبًا.

يسأل «جوش» «سيمون»:

ـ هل يمكنني أن أرى؟

ـ هل أنت جادٌّ؟ إنها مجلة «كوزمو».

ـ نعم، وماذا إذن؟ تعودت أختي أن تضع أعداد المجلة في كل أرجاء البيت.

تفتح «سيمون» المجلة وتناولها له.

ـ آدم، يا رجل، انظر إلى هذه الفتاة!

يميل آدم على الصفحة وينظر إلى «سيمون» التي تبدو فجأة غير مرتاحة وخجولة.

يقول آدم:

ـ نعم، إنها فاتنة!

يصيح «جوش»:

ـ هراء! تبدو كأنها ستنقسم إلى نصفين. يا رفيق، يمكنك أن تعطس في ضاحية أخرى وستسقط هذه الفتاة ممدة على الأرض من التأثير.

إنه من المضحك كيف لجسم الإنسان أن يتجاهل الرسائل الداخلية. أنا شبه متأكدة أن «سيمون» تأمر فمها بصمت أن يبقى حياديًّا، لكنه يتجاهلها بعناد ويتسع في ابتسامة عريضة.

يسأل «جوش»:

ـ هل لديهم اختبار من تلك الاختبارات؟

تقول «سيمون»:

ـ نعم، لكن اختبار هذا العدد يسألك إن كنت اجتماعية كفراشة أو انطوائية كزهرة مرسومة على ورق الحائط!

ـ حسنٌ، اسأليني الأسئلة ولنرَ أية علامة سأحرز.

يسأل آدم لاكمًا «جوش» في ذراعه:

ـ يا إلهي، ماذا تفعل؟

يقول بطبقة صوت عالية، مطرِفًا رموشه لآدم بغزل:

ـ أتواصل مع جانبي الأنثوي.

ـ لنرَ ما ستكون علامتك إذن!

تقول «سيمون» وهي تفتح المجلة:

ـ حسنٌ، «جوش»، السؤال الأول: كعبك العالي يسبب لك بثورًا موجعة. هل: ١ ـ تجلس. ٢ ـ تذهب إلى البيت. ٣ ـ تستمر في الاحتفال؛ فلا شيء يمكنه منعك من الوقوف على حلبة الرقص!

يقول آدم:

ـ لقد جلبته لنفسك!

ثم يأتي ويجلس بقربي، تاركًا «سيمون» و«جوش» معًا مستغرقيْن في المجلة.

أقول محاولةً أن أبدو هادئة ومتمنية لو كنت وجدت فرصة لوضع ملمِّع الشفاه:

ـ إذن يا آدم، ما حكايتك الحقيقية بخصوص مهمتك في أن تصبح «آينشتاين» القادم؟ أقصد، أعرف أنك تريد أن تدرس الطب، لكنك تبالغ كثيرًا في الدراسة، ألا تظن ذلك؟

ينظر إليَّ ويهزُّ كتفيه:

ـ لا تعامليني تلك المعاملة التحليلية يا أمل. لا يوجد سر خفي ومخيف وراء طموحي.

ـ تقريبًا في كل استراحة أو فترة غداء لا تثير حديثًا من دون أن تذكر الجزيئات والإلكترونات. ينبغي أن توجد لنفسك مبرِّرًا وإلا فإن كلمة «عبقري» ستلتصق بك قريبًا.

يميل إلى الخلف ساندًا يديه على النجيلة:

ـ ما الذي تريدين معرفته؟ أنني أتبع تقاليد العائلة؟ أنني غرقت تقريبًا عندما كنت طفلًا وألهمني هذا الموقف أن أعيش من أجل إنقاذ حياة الآخرين؟

أضحك بصوت عالٍ غير مصدِّقة.

ـ أعتقد أنني لطالما عرفت ما أريد أن أكون.

ـ محظوظ! ما زلت لا أعرف! ألا يعطيك والداك جلسات نصائح عن الوظيفة كل ليلة؟ في بيتنا لا يكتمل العشاء من دون محاضرات عن كيف أن مستقبلي بيدي وأن هذا القرار سيؤثر على مسار حياتي إلى الأبد.

ـ إذن يجلسك والداك ويعطيانك محاضرات طويلة عن الوصول إلى أعلى من توقعات الآخرين المنخفضة، وعن الصعود إلى قمة الجبل وكل هذا الهراء؟

ـ تقريبًا.

يبتسم ابتسامة عريضة، هازًّا رأسه:

ـ يا إلهي! ذلك مجهِد. لقد نجوت من كل ذلك.

ـ محظوظ!

ـ ليس لدى بابا وشريكته وقت لإعطائي محاضرة، لذلك أنا مُعفى من كل هذا الهراء.

ـ تقصد أن أباك وأمك يتركانك وشأنك؟

ـ «تشارلين» ليست أمي!

ـ أين أمك؟

بمجرد خروج الكلمات من فمي أدرك كم أبدو فضولية وأودُّ لو استرجعتها بقوة.

لم يبدُ عليه أنه يمانع الحديث فيتابع:

ـ تركتنا أمي عندما كنت في السابعة، وهي تعيش في هولندا الآن مع رفيقها.

ـ أوه!

ـ لسنا مقربيْن بعضنا من بعض. لديها أطفال، وأتلقى منها بطاقة بريدية في عيد ميلادي.

ـ صحيح... هل أنت منسجم مع «تشارلين»؟

ـ نعم، الوضع ممتاز. إنهما يعيشان معًا منذ فترة طويلة.

لا أصدِّق أن بيننا هذا الحديث الشخصي وأنني مرتاحة جدًّا هكذا. عليَّ أن أعترف أن جزءًا مني يرتعد من حقيقة أني أجلس على النجيلة مع آدم، ونتحدث وكأننا صديقين عزيزين منذ زمن بعيد. أضف إلى ذلك، هناك هالة من الجاذبية محيطة بالجانب الذي يجلس فيه آدم من الملعب.. أعتقد أنني أحتاج إلى مهدئ أعصاب! لكن عليَّ أن أقول إنني أبلي بلاء حسنًا على الرغم من هذه الظروف.

أسأل:

ـ إذن، أنت الابن الوحيد؟

ـ نعم.

ـ وأنا كذلك.

ـ هل كنت تريدين أختًا أو أخًا؟

ـ كنت سأحب أيًّا منهما. لكن ماما لا تستطيع إنجاب طفل آخر.

ـ «تشارلين» لا تريد أطفالًا؛ لأنها تكره تبديل الحفاظات، ولا ترغب أن ينفجر وركاها من السمنة. إنها في الواقع ليست من النوع الأمومي على كل حال؛ فهي تعمل في مكتبها حتى الليل وإلى الأبد، مثل بابا. إنهما مناسبان جدًّا بعضهما لبعض فعلًا.

ـ هل أنت على وفاق مع أبيك؟

ـ أظن.. لست قريبًا من أيٍّ منهما. إنه على الأقل لا يتدخل في أي شيء. ولا يضايقني بكل ذلك الهراء عن «أصدقاء السوء»، والاجتهاد في الدراسة وما إلى ذلك.

ـ هل أنت جادٌّ؟

ـ نعم، يعرف أنني جرَّبت المخدرات ولم يغضب لذلك...إلخ، لذلك أظن أنه يثق في أنني أستطيع أن أربي نفسي بنفسي.

تخرج عيوني من وجهي مثل أفلام الكارتون:

ـ يعرف أنك جرَّبت؟

ـ العام الماضي. كنت أدخِّن الحشيش مع زملائي في البيت ودخل هو!

ـ إذا حدث الأمر معي لكان أهلي دفنوني على عمق عشر أقدام تحت الأرض قبل أن تنتهي السيجارة.

ـ لا، كان عاديا. قال أسطوانة «يا بني، أعرف أنك تجرِّب. كنا في سِنك وجربنا من قبل، ولكن لا تتمادى كثيرًا يا بُني». ثم كان عليه أن يذهب إلى اجتماع ولم يُذكَر الموضوع بعدها أبدًا.

أهزُّ رأسي غير مصدِّقة:

ـ كان والداي يدخنان، ومرة ضبطني بابا عندما سرقت سيجارة من علبته وأشعلتها في الحمام. جعلني أدخِّن نصف العلبة حتى أُصبت بالغثيان طوال أسبوع. كان ساديًّا جدًّا، لكنني لم ألمس سيجارة واحدة منذ ذلك الحين، وتوقف هو عن التدخين في الحقيقة بعد شهر من ذلك. أما بالنسبة إلى المخدارت؟ فمجرد التفكير في ردة فعلهما يصيبني بالقشعريرة.

ـ هل يدسُّ والداك أنفيْهما كثيرًا في حياتك؟

ـ همم... نعم، أظن. أقصد، مقارنة بك، قد تعتقد أنني مقيَّدة! لكنني لم أشعر قطُّ أنني مخنوقة أو أي شيء. إن... لا أعرف... أحس بالاستقلالية، وأعرف أن لي الخيار أن أكون ما أريد. هناك قواعد وحدود، لكنني لا أحس أني محرومة. لا تقل لهما ذلك بالطبع.

يضحك ويومئ برأسه.

ـ ولكن أن أتعاطى المخدرات، أو أذهب إلى نادٍ ليلي، أو أسكر في نهاية الأسبوع مع صديقاتي، كل تلك الأفعال تأتي مصحوبة بشهادة وفاتي بصراحة. لكنني لست مهتمة بكل ذلك على أية حال. هل أبدو مملة وأليفة؟

ـ لا، أبدًا. أقصد، أنت غريبة بحسب مقاييس المراهقة، لكنك غريبة بطريقة جيدة. أعني، إنها حياتك، كبدك، خلايا دماغك. من الغريب ألا نحترم الاختيار. سواء اخترت الإدمان أو الاقتصاد في الشرب، أو الثمل من التبغ أو الشوكولاتة، كلٌّ يقرر خياره بنفسه.

ـ أظن.

يرنُّ الجرس وننهض جميعًا ونتجه إلى الصف. حسنٌ، ينصرف الشابان، لكنني أثق أنني و«سيمون» نطير من السعادة.

(١٣)

العشاء الليلة في بيت ياسمين، ياسمين وخالتي «كساندرا» وأنا في غرفة الجلوس نتسلى على السمك المقلي والبطاطس الشيبسي. عمر، أخو ياسمين، ملتصق بـ«البلاي ستيشن»، ولم يتمكن من تجميع كلمتين معًا منذ وصولي.

ليلى، بالطبع، لم يُسمَح لها بالمجيء. أمها لا تروق لها «كساندرا»؛ لأن «كساندرا» تطوَّعت في جماعة «سانت جون» للإسعافات الأولية في أثناء عطلة نهاية الأسبوع، وترتدي ملابس «الهيبيز»، وهذا يوضح شغف «كساندرا» بكل ما هو غريب من الأزياء والمجوهرات والتنورات المصبوغة، والأحجار الكريمة مثل أحجار الدم. حجابها عبارة عن قبعة، وشعرها قصير، لذلك من السهل دسُّه تحته.

كلما ذهبت إلى بيت ياسمين أحب التحدث إلى أمها. إنها رائعة ومسلية ويسهل التحدث إليها.

إنني أكذب.

أحب التحدث إليها بسبب لكنتها البريطانية. أنا عاشقة للَّكنات الأجنبية،

وعندما تنطق الكلمات العربية بنبرة بريطانية عالية في نهاياتها، أحس أني في السماء السابعة. إن الأمر رائع. إنها دائمًا تقول إن شاء الله أو ما شاء الله، حتى لو لم تكن هناك مناسبة لذلك.

أُخبر خالتي «كساندرا» عن وضعي في المدرسة وأنا مرتدية الحجاب، فتقدم لي النصائح:

ـ اصبري. كوني مستقلة وحسب، وليذهب الآخرون إلى الجحيم، إن شاء الله!

تجعلني أنفجر ضحكًا.

ـ ستجتازين ذلك، أعرف. عندما...

تقول ياسمين ساخرة:

ـ صرت مسلمة!!

ترمي «كساندرا» المخدة عليها.

ـ اعتقد والداي أنني تعرضت لغسيل دماغ بواسطة سحر «البودو» الأسود! تعرفين، كان والداي ثريين جدًّا ويعيشان في «المجتمع الراقي»، كما يحلو لهما تسميته. كان أبي صاحب بنك، وأبوه صاحب بنك، وكذلك أبو أبيه. وعندما أعلنت لهما أنني سجَّلت في الدراسات الاجتماعية وليس الطب، أُصيبا بالهيستيريا. الحلق في الأنف، والشعر «السبايكي»، والحركة النسوية، والمظاهرات المناهضة للحرب... كل هذه الأشياء كانت على وشك إدخال أمي المستشفى.

أسأل مذهولة:

ـ كنت تضعين حلقًا في أنفك؟

ـ كان شرطًا في الجماعات المناهضة لكل شيء، التي كنت أنضمُّ إليها، وشعر الإبط كان شرطًا أيضًا.

تكشر ياسمين وجهها متقزِّزة:

ـ يععععع!

ـ بقيت في تلك المرحلة فقط ثلاثة أو أربعة أشهر تقريبًا معهم. كانت أمي تتناول حبوبًا مضادَّة للاكتئاب وتذهب إلى الكنيسة يوميًّا تدعو لي بالهداية. ولم يكن أبي يستطيع النظر إليَّ من دون أن يكون في يده كأس من النبيذ. لذلك أشفقت عليهما وحجزت لجلسة إزالة الشعر الزائد.

تتوقف قليلًا ثم تستكمل:

ـ إنه كان بدأ يسبب لي الحكة إلى حد ما.

تصرخ ياسمين باكية:

ـ ماما! هذا مقزِّز جدًّا!

ـ تلك كانت فترة الستينيات، ياسمين؛ «البيتلز»، والحُّب الحر، والثورة. يمكنك استبدال مجلة دُولِّي بكتاب تاريخ، حبيبتي... على كل حال يا أمل، عندما أعلنت لوالديَّ أنني غيرت ديني، وأحضرت طارق إلى البيت، تبرَّآ مني.

أهتف:

ـ ذلك رهيب!

ـ أدركت مؤخرًا حجم الصدمة التي شعرا بها. كنت أقرأ عن ديانات

مختلفة فترة قبل ذلك، وقد جرحهما رفضي للمسيحية بعمق. والداي مسيحيان مخلصان ومحتشمان ومستقيمان، لكنني كنت أتمرد. لم أفهم كيف يكون والداي تقيَّيْن جدًّا وعلى الرغم من ذلك عنصريَّيْن جدًّا. الأفارقة والآسيويون والعرب واليهود وكل من لا يحمل الدم الإنجليزي هو في نظرهما من منزلة أقل. كان تحاملًا غير واعٍ، لكنه أثار حنقي. لذلك صرت مُلحدة.

تصيح ياسمين بسخط:

ـ لم تخبرينا بذلك قطُّ! أخبرتِنا أنك صرت «لا أدريَّة».

ـ كان ذلك لاحقًا، حبيبتي.

ـ أوه!

ـ استمر إلحادي سنة. وعلى الرغم من ذلك كنت غير سعيدة. أحسست بالخواء. لم تكن هناك إجابات ولا معانٍ عميقة في حياتي. ثم عرفت ذات يوم في الجامعة أن طالبة قُتِلت في حادث اصطدام بسيارة وهرب الجاني. بالنسبة إليَّ إنه أمر لا يُتصوَّر ألا يكون الوحش الذي تركها ميتة على جانب الشارع عرضة للمحاسبة. لم يكن للإلحاد معنى بالنسبة إليَّ. لم أستطع التوفيق بينه وبين غريزتي التي تنشد العدالة. لذلك صرت «لا أدرية».

أحدِّق فيها، بانبهار. إنها تخلط اللكنة الإنجليزية بالعربية، وتزيِّن بيتها باللوحات والتصاوير الزيتية المنقوش عليها لفظ الجلالة الله واسم النبي محمد، ويبدو أنها انخرطت في كل حركة واتجاه.

بينما أُنقِّل ناظريَّ بين «كساندرا» وياسمين وعمر الذي كان منغمسًا في «البلاي ستيشن» ولا ينبس بكلمة، لا أملك إلا أن أتساءل: كم هو غريب أن

يتعجَّب البعض أن هناك «فردًا مسلمًا» بين هذه المجموعة! أتذكر عندما بدأت الدراسة في مدرسة «مكلينز جرامر»، كيف كانت ردة فعل إحدى المعلمات عندما رأت اسمي في القائمة: «ولكنَّ لكِ شعرًا أشقر وعينين ملونتين!».

وأتساءل، بعد ذلك، عمَّا سيقوله البعض عندما يعرفون أن باقي اسم «كساندرا» هو «خان»، وماذا سيقولون عندما يرون عينيها الزرقاوين، وبشرتها الفاتحة، والنمش عليها، ورموشها وحاجبيها الشقراوين تحت القبعة، وعندما يرون ذراعها في ذراع باكستاني أصلع داكن اللون، وعندما يتعرفون على ابنتها البيضاء ذات الوجه المنمَّش والعينين السوداوين، وابنها ذي البشرة البنية كالشوكولاتة.

(١٤)

آدم لا يكفُّ عن الإلحاح عليَّ بتسجيل اسمي في فريق المناظرة. الجمعة آخر يوم قبل تسليم وتشكيل الفرق.

أقول بنبرة فيها ضيق، بينما يمشي بجانبي ومعنا «إيلين» في طريقنا إلى الصف:

ـ آدم، انسَ الأمر، ألا تفعل؟

ـ إذا سجلتِ ستشاركين فقط في مناظرة واحدة. لن تناظري في كل الجولات.

ـ ما سبب هوسك بمشاركتي في الفريق؟

ـ الأشخاص الوحيدون الذين بإمكانهم تقديم أداء مقبول من بين المسجلين هم «جوش» و«كيشين» و«تريسي»، وإلا فإننا سنتورط مع «تيا» و«كلير». أعرف أن «كلير» تشارك فقط لأن «تيا» ستفعل، وأعرف من مصدر ثقة أن «تيا» سجلت فقط لأنها مفتونة بـ«جوش»، وتعتقد أن ذلك سيقربهما بعضهما من بعض. نحتاجك معنا حتى يكون لتذاكيك تأثير جيد لمرة.

ـ لا زلت أفكر في الأمر.

ـ يا لك من جبانة!

ـ لست جبانة!

ـ نعم، أنت كذلك. جبانة كدجاجة!

يبدأ بالقوقأة كالدجاج بطريقة مزعجة.

أصيح قبل أن أنصرف:

ـ انضج يا آدم!

يتبعنا وهو يقوقئ مثل دجاجة معتوهة، ويجعلني أضحك وأتأوَّه محبطة.

تقول «إيلين» عندما نصير وحدنا أخيرًا:

ـ غزل.

ـ غزل؟ أنا؟ لم أكن أغازل.

تقول مبتسمة ابتسامة عريضة:

ـ كان يعجبك ذلك، إنه يتذلل لك بطريقة عملية وأنت ترددين: أوه لا يمكنني!

أتجمَّد في مكاني:

ـ لا تقولي إنني كنت أجعل إعجابي به واضحًا!

ـ استرخِ. ليس الأمر كذلك، ولكن بسبب الكيمياء بينكما وسياستك التي ترفض أن يكون لك رفيق، قد تجدين نفسك في موقف خطير.

ـ لا تكوني مغفَّلة. كل شيء تحت السيطرة.

بعد المدرسة، حيث تكون حجرة اللقاء خالية، أتقدَّم نحو لوحة الإعلانات وأسجِّل اسمي. ثم أقضي وقتي في الأتوبيس في طريق العودة إلى البيت أفكر كيف أقنع آدم أنني لم أعدل موقفي بناء على تلك الخدعة القديمة.

* * *

يقترب آدم مني صباح اليوم التالي، ويقول مبتسمًا ابتسامة عريضة:

ـ سجلتِ؟

أقول:

ـ لا تغترَّ بنفسك، سجلت لأنني أكره «تيا».

يرمقني بنظرة ارتياب، فأشير عليه أن يذهب ويتعلم صيغة كيميائية أفيد له.

* * *

أجلس إلى طاولتي يوم السبت في البيت، وتجتاحني تلك الرغبة الملحة لتناول جيلاتي المانجو والفراولة والفستق في شارع «ليجن». لذلك أتصل بـ«سيمون» و«إيلين»، لكن «إيلين» تتسوق مع أمها، و«سيمون» مشغولة، فأتصل بياسمين. أجد ياسمين مستمتعة بفكرة تناول جيلاتي المانجو والفراولة، فيوصلني بابا إلى بيتها خلال نصف ساعة، ثم أتصل بأم ليلى، وأخترع قصة عن حاجتي لرأي ليلى في شراء حجابات من محل خاص بلباس المرأة المسلمة في «كوبرج». أناشدها أنني ما زلت غير خبيرة، وأحتاج إلى نصائح ليلى المجرِّبة، ومن أين سأحصل على دعم أفضل إلا من أخت مسلمة؟ تصدقنا وتخبرنا أن نأخذ ياسمين معنا ونحاول إقناعها أيضًا.

أقول متأوهة بينما نركب نحن الثلاث الترام:

ـ نحن شريرات! كذبنا! وتحايلنا بالدين!

تقول ليلى هازَّةً كتفيها:

ـ كذبة بيضاء. دعينا لا نفكر في الأمر. هناك ما يكفي من الأشياء الأخرى التي تحاول ماما أن تجعلني أحس بالذنب بسببها.

تقول ياسمين بينما تلقي بذراعيها حولنا نحن الاثنتين:

ـ نعم! لنستمتع! يا بنات، هل شعري في حالة جيدة؟

ـ نعم يا ياسمين.

ـ هل من تجعُّد؟

ـ لا يا ياسمين.

ـ هل هو مفرود؟

ـ نستطيع شمَّ رائحة مكواة الشعر من هنا يا ياسمين.

تقول:

ـ ستشمانها بالطبع. قضيت ساعتين عند طاولة الكي الليلة الماضية.

أسأل:

ـ وماذا عن حجابي؟

تقول ليلى:

ـ إنه جيد.

ـ هل الاستدارة الأمامية جيدة؟ أقصد، هل من تغضنات في الشكل؟ أليس مشدودًا جدًّا؟ وهل خداي مضغوطان بحيث يبدو وجهي سمينًا؟

أُخرج مرآة وأتفحص حجابي.

تقول ياسمين:

ـ إنه ممتاز، كفاكِ ذعرًا!

ـ هناك خصلة منكوشة في شعرك.

ـ ماذا؟ أين؟ أعطني المرآة!

أبتسم لها ابتسامة تكلُّف فتضربني:

ـ مضحك جدًّا يا أمل!

إنه يوم منعش من أيام أغسطس في «ملبرن»، ويملؤني ذاك الإحساس الغريب بالثقة وأنا في طريق رحلتي الأولى إلى شارع «ليجن» مرتدية الحجاب.

نستقلُّ الترام الذي يتحرك من شارع «سيدني» إلى المدينة. نحن محشورات بين مسنٍّ يرتدي بذلة صوفية بُنية وربطة عنق حمراء، ومجموعة شباب يقارنون بين نغمات هواتفهم النقَّالة. أحب الترام؛ الكل يبدو غير متكلف وطبيعيًّا، تجد نفسك تقضي بعض الوقت بين الفوضى التي يضجُّ بها يوم كل شخص. وأحب خصوصًا ترامات شارع «سيدني»؛ إذ أستطيع مشاهدة الحياة في الشارع، حيث أرى العجائز ببناطيلهن الفضفاضة وأثدائهن المنتفخة، يتشبثن بالحقائب ذات العجل الممتلئة بالتماثيل البلاستيكية الصغيرة المخفَّضة السعر، والجوارب التي يُباع الزوجان منها بقيمة زوج واحد، وحيث أرى الحلق المخصص للحواجب، وأرى الإيشاربات،

والراهبات، والبذل ذات القطع الثلاث التي كان يرتديها الرجل العتيق، وطلاب المدارس النمَّامين، ومدمني لعبة البوكر، والعائلات التي تجر وراءها الأطفال البكَّائين، والأطفال الضاحكين الذين يضغطون زر إشارة المشاة ثم يفرون هاربين.

نخرج من الترام عند شارع «رويال باريد» حتى يمكننا الدخول عبر جامعة «ملبرن» في طريقنا إلى شارع «ليجن». نمشي عبر الأراضي المزروعة بالنجيلة، يقول بعضنا لبعض عبارات كبيرة عن «السُّخف الأخلاقي» لنظام التعليم القائم على الاختبارات، نتذاكى بمفردات معقدة ونتصرف كالحمقى.

ياسمين تتحداني أنا وليلى في سباق عبر الأراضي الخضراء، وأتمكن من إبطائها بأن أصيح: إن هناك شابًّا وسيمًا يحدق فيها من وراء شجرة. ثم يستغرق الأمر منا خمس دقائق لإقناعها أن شعرها لم يتجعد بسبب عدوها السريع عشرين مترًا. وبعد ذلك، كان علينا إيجاد حمام حتى تتمكن ياسمين من وضع كريم على شعرها. وينتهي بنا الأمر إلى قضاء خمس عشرة دقيقة في الحمام، نقرأ كل الكتابات المنقوشة على أبواب غرف الحمامات، ونحن مفتونات بمقاييس الجامعة في الشخبطة مقارنة بالخربشات الشعرية الموجودة في مدرستنا الثانوية. تريد ياسمين أن تكتب أسماءنا خلف الباب بقلم الكحل، لكنني أعطيها نصائح في الأخلاق، وأقول لها إنه من الخطأ أن نشخبط. لذلك تحاول إقناعنا أن نكتب أنا مسلمة ولست مضطهدة، فأتظاهر بالتقيؤ على كرسي الحمام، الأمر الذي يمنحنا تصويبًا لحقيقة أننا نتسكع بإرادتنا الكاملة داخل مبنى الحمامات لمدة ربع ساعة.

عندما نصل إلى شارع «ليجن»، نتبادل الشتائم ونتجادل حول ما إذا كان «بيج برذر» أفضل من «سرفايفر».

ثم نشمُّ رائحة بيتزا وينتهي جدالنا هناك. نتبادل النظرات، نومئ برؤوسنا بتناغم تام، ونأخذ مقعدًا في «كافيه روما» ونطلب بيتزا مع كل الإضافات، ما عدا لحم الخنزير والببروني والسلامي. ويبدو أن الجيلاتي كان رغبة مُلحَّة قابلة للتفاوض على أية حال.

يقول النادل مغازلًا:

ـ هذه ليست بيتزا بكل الإضافات.

تقول ليلى:

ـ لدينا ذوق معين بخصوص البيتزا.

يبتسم ابتسامة عريضة، غامزًا عينيه وهو يهم بالرجوع إلى المطبخ:

ـ أتفق معكن بشدة.

تهتف ياسمين:

ـ يا له من جذَّاب!

أقول بوقار:

ـ يحفُّ حاجبيه.

تصيح ليلى:

ـ لا، لا يفعل!

ـ مستحيل!

ـ لا، ممكن.

ـ أقول لكِ إنها طبيعية.

ـ أقول لكِ إنها ليست كذلك. عندما يعود ركِّزي: عنده شعيرات نامية داخل الجلد، وهناك مساحة بين حاجبيه بِعرض الطريق السريع.

بعد خمس عشرة دقيقة يصل طعامنا.

ـ سيداتي، بيتزا واحدة بكل الإضافات.

عندما ينصرف النادل بدلال كإحدى عارضات الأزياء أرفع حاجبي مستغربة.

تتنهد ليلى وتومئ ياسمين برأسها:

ـ يحفها بلا ريب.

نشرع في أكل البيتزا بكل الإضافات والتي ينقصها كثير من الإضافات في نفس الوقت، ثم نطلب الحلوى.

تتنهد ليلى ونحن نلعق الجيلاتي:

ـ هذا جميل.

تسأل ياسمين:

ـ ما هو؟

ـ هذا التسكع. الاستمتاع مثل مراهقين طبيعيين، تعرفن.. ما السيئ في هذا؟ لا أفهم ما المشكلة عند ماما.

أقول:

ـ السبب واضح جدًّا.

ـ أوه! نعم؟ ماذا؟

ـ تعتقد أنك ستصادقين شابًّا. وبالنظر إلى الطريقة التي تعاكسين بها ذلك النادل، سأقول إن لأمك وجهة نظر!

تلكزني بقدمها بخفة تحت الطاولة:

ـ اتفضليه. كله لكِ.

تقول ياسمين:

ـ أوه حقًّا، ولِم هذا التغيُّر المفاجئ في المشاعر؟

تهز كتفيها وتقول:

ـ تعرفين كيف سيصير الأمر، لن ينجح الوضع بيننا، وسنتشاجر دائمًا بسبب أستاذ حواجب منتوفة هذا!

(١٥)

مضى الآن شهران منذ بداية الفصل، ويبدو الأمر كأن المعلمين في مهمة لجعل شهادة «فكتوريا» في التعليم كابوسًا بكل ما في الكلمة من معنى، وأستيقظ للدراسة كل ليلة. في رأسي «ستالين»، وممَ يتكون الغِراء؟ و«فيثاغورس». إنه خليط بشع.

يبدو أن حصة الأحياء الممتدة ساعتين مع مستر «جيفرسون» لن تنتهي أبدًا. وعندما يرنُّ الجرس أخيرًا نقفز جميعًا ونلملم أشياءنا، متحرِّقين إلى هواء نقي وحديث طبيعي. وبعد أن أضع أغراضي في خزانتي أختطف مصليتي وأتوجَّه إلى مكتب مستر «بيرز». ألتقي بآدم في طريقي وأتوقف للحديث معه.

يسأل:

- إلى أين ذاهبة؟

- إلى الصلاة.

- جيد. أين؟

أنظر إليه بارتياب:

ـ جهز لي مستر «بيرز» غرفة.

ـ ياه! إذن أنت في الحقيقة تصلِّين كل يوم، هنا في المدرسة؟ ليست سخرية، أمل. يمكنك أن تخفضي حاجبيك بمقدار درجة.

أبتسم له نصف ابتسامة:

ـ نعم، أصلي كل يوم هنا.

ـ هل الأمر صعب؟ أقصد.. أن تواظبي على الصلاة؟

ـ أحيانًا يكون الأمر صعبًا. أتكاسل أيضًا، تعرف. لكنه أشبه بوقت مستقطع. تعرف عندما... في الواقع لا تهتم.

ـ ماذا؟

ـ لا شيء.

ـ أكره لعبة «ماذا.. لا شيء» تلك. تكلمي وحسب، لن أضحك. يا للمسيح! إنك تأخذين الأمور بجدية!

أقول بوقار:

ـ لا ينبغي أن تحلف بالمسيح عبثًا هكذا!

ـ ماذا؟ والآن تدافعين عن عيسى؟

ـ لن أُعتبَر مسلمة إذا لم أصدِّق بالمسيح عيسى.

يتراجع قليلًا، والارتباك والحماسة باديان عليه:

ـ هل أنت جادة؟ إذن تؤمنين بالثالوث وهذه الأشياء مثلي؟ هيًا،

اجلسي ثانية، أريد أن أتكلم عن ذلك. هذا غريب! هل يمكنك أن تصلِّي بعد عشر دقائق؟

ـ نعم.. أظن.

نتوجَّه إلى مقعد قريب. مصلِّيتي مطوية فوق حجري وأنا ألعب بالخيوط المتدلية من طرفها.

ـ إذن، أنت وأنا نؤمن بنفس الشيء في النهاية؟

ـ حسنٌ... ليس تمامًا. انظر، نحن لا نؤمن أن عيسى إله، أو ابن الله. نؤمن أنه أحد أنبياء الله العظماء، وقام بالمعجزات بإذن من الله، مثل إبراء الأكمه والأبرص.

ـ حقًّا؟ إذن المسلمون في الواقع يؤمنون بذلك أيضًا؟

ـ نعم، التحقت بمدرسة كاثوليكية في المرحلة الابتدائية.

تتسع عيناه، وفمه حائر بين الابتسامة الواسعة والضحك بصوت عالٍ.. يقول:

ـ لم تفعلي! مستحيل!

ـ نعم.

ـ إن هذا يذهلني يا أمل! ماذا كنت تقولين عن الصلاة؟

أتكئ على ظهر المقعد وأحدق فيه:

ـ حسنٌ، تخيَّل أنك تلعب في إحدى مباريات كرة السلة.

ـ نعم.

ـ تركض في الملعب جيئة وذهابًا، مصيبًا الأهداف، وضاغطًا على جسدك إلى حدِّ الإنهاك. لا شيء في رأسك سوى المباراة. ولا شيء يصرف انتباهك عنها. ولكن عندما يحين الوقت المستقطع، تحظى بثلاث أو أربع دقائق من الهدوء، حيث يمكنك شرب عصيرك، التقاط أنفاسك، إعادة التفكير في إستراتيجيتك، مَن يقف في طريقك، مَن يقف في صفك، ومَن تستطيع العمل معه أكثر، بكم أنت مدين لمدربك، ما كانت تلك النصيحة التي أعطاك إياها، ما الطريقة الأفضل التي يراها لتسجيل هدف، صحيح؟

ـ نعم.

ـ هكذا هي الصلاة بالنسبة إليَّ. يبدو ذلك مبتذلًا، أعرف، لكنه شبيه بـ... مثل ذلك. باستثناء أن هناك خمس استراحات لشرب العصير في اليوم، وإحداهما مبكرة جدًّا تجعل أسنانك تصطك.

يضحك ويتكئ على ظهر المقعد، طاويًا ذراعيه فوق صدره.

ـ إنك تجعلين رأسي يدور... لم ألتقِ أحدًا مثلك من قبل.

لا أقول شيئًا وأتابع اللعب بسجادتي.

يقول:

ـ تعرفين، ينبغي ألا تعيري «تيا» أيَّ اهتمام؛ إنها سافلة، ثرية، قليلة التهذيب، مدللة، مهووسة بشكلها. تصلح لأن يُكتب عنها قصة.

ـ وعنصرية؟

ـ نعم، ذلك أيضًا. ولكن حسنٌ، لا يمكنكِ أن تلوميها فعلًا. إنه ما تسمعه في البيت. أعرف لأن أبي يعرف أباها. ليسا صديقين لكنهما كان يلتقيان مصادفة في نادي الجولف. كان ذلك منذ فترة بعيدة، ولكن حتى في ذلك

الوقت كان أبوها عندما يرى آسيويًّا، أو شخصًا ذا بشرة سوداء يناديه مفترضًا أنه نادل أو شيء من هذا القبيل. إنه وعائلته لا يختلطون فعلًا مع أحد خارج دائرتهم. قد تكونين أول مسلمة...

أقول بتذمُّر:

ـ نعم، نعم، أنا واعية بذلك، أول مسلمة تقابلها في حياتها. يجعلني ذلك أبدو مثل كائن غريب. أوه! إنه أول لقاء لي مع مسلمة! ياه! وكاميرتي معي أيضًا! لا أستطيع الانتظار حتى أتصل بالمتحف الوطني. أنا متأكدة أنهم سيهتمون بتنظيم معرض!

ـ حسنٌ، حسنٌ، فهمت سخريتك. تحتاجين إلى استرخاء.

ـ سأكون أقل عصبية لو توقف الآخرون عن إيجاد أعذار مثيرة للاشمئزاز.

ـ ليس عذرًا! ما قصدت هذا. إنه فقط، إنه واضح. ينبغي الحكم على الناس من خبراتهم.

ـ لا أُصدِّقك يا آدم! لا تحكم على الناس. لسنا جمعًا، أو جبهة ما كبيرة، نتصرف ونشعر ونتكلم بنفس الطريقة. ينبغي أن تحكم على أفراد. على كل حال، هكذا هو الأمر بالنسبة إلى كلا الطرفين. لعائلتي أصدقاء يعتقدون أن جميع الإنجليز سكارى يضربون زوجاتهم، ويترنحون أمام مركز «سبرينجر» الترفيهي، وفي أيديهم زجاجات البيرة.

ـ هل أنتِ جادة؟

ـ نعم، جادة تمامًا. هل أجد لهم عذرًا؟ أوه! مسموح لهم أن يفكروا هكذا. فهم في النهاية لم يتحدثوا قط مع إنجليزي غير ثمل. إذا بدا الأمر سخيفًا جدًّا بالنسبة إلى ثقافتك، لِمَ لا يبدو هكذا بالنسبة إلى ثقافتنا؟

يمرِّر أصابعه خلال شعره ويهزُّ رأسه:

ـ أنتِ، بلا ريب، أكثر فرد مُتعِب التقيته في حياتي.

ـ هل أصلح أن أكون «تيا» بالنسبة إليك؟

أدير رأسي إلى الناحية الأخرى، حتى إن طرفي حجابي يرتفعان فوق الكتف الأخرى، وينفجر هو ضاحكًا. بعد ثوانٍ قليلة من الصمت ينظر إليَّ جادًّا:

ـ أمل...؟

ـ نعم؟

ـ تعرفين عندما دخلتِ الصف أول مرة مرتدية الحجاب؟

لا بد أن أخبركم أن رئتيَّ بدأتا تلعبان «الأيروبيكس» الآن. أحاول التنفس بهدوء وأومئ برأسي، غير قادرة على الإجابة من شدة التوتر.

ـ كان غريبًا. اعتقدت... حسنٌ.. كثيرون، جميعنا اعتقد أن والديك أجبراك، لكن البعض منَّا سرعان ما تخلَّص من تلك الفكرة؛ لأننا اعتقدنا أنك لو كنت مكرهة لما بدوت متحمِّسة هكذا، لا أعرف!

ـ هه؟

ـ بدا أنك تتصرفين كأن الأمر يعني شيئًا بالنسبة إليك، أو أنك تحبينه. لا أعرف كيف أشرح!

أتابع الإيماء برأسي.

ـ ثم اعتقدنا أنك ستصيرين متعصِّبة. مثل ما نرى في التلفزيون، تعرفين قصدي؟

ـ ممم.

ـ لكنكِ لست كذلك.

ـ أكيد.

ـ شكرًا.

ـ العفو.

أقف لأنصرف، فيصيح:

ـ هاي يا أمل!

ـ نعم؟

ـ هناك شيء آخر خطر ببالي عندما شاهدتك بالحجاب أول مرة.

ـ وماذا كان ذلك؟

ـ أنك تصلحين لأن تكوني متعصبة جميلة الشكل!

يبتسم لي ابتسامة عريضة ثم ينهض ويبتعد مسرعًا، حتى إنه لم يرَ فمي يتمدد في ابتسامة عريضة تجعلني في خطر إيذاء عضلات وجهي.

(١٦)

«إيلين» و«سيمون» تبيتان في بيتنا ليلة السبت. ليلى موجودة أيضًا، لم يُسمَح لها بالمبيت، لكن ماما تمكنت من إقناع أمها أن تسمح لها بالبقاء للعشاء على الأقل. ياسمين مشغولة ببعض الشؤون العائلية، ولذا لا تستطيع المجيء، وهي تقضي وقتًا طيبًا. نحن في غرفتي نأكل البيتزا كعجول التسمين. ولحسن الحظ، أن اجتماع كلتا المجموعتين من صديقاتي لم يتكشَّف عن كارثة، إذ انسجم الجميع.

تقول ليلى:

ـ تلقيت هذا الصباح تأنيبًا شديدًا من ماما!

أسأل:

ـ بخصوص؟

ـ أنني لن أستقر أبدًا ما لم أكن أكثر انفتاحًا فيما يخص العرسان الذين تقترحهم عليَّ. يا إلهي! إنها تخرجني عن شعوري! تخبرني تلك القصة العاطفية الكبيرة عن حجم الجهود التي تبذلها في البحث عن عريس تعرف أنني سأنجذب إليه، وبيننا أشياء مشتركة.

تسأل «سيمون»:

ـ هل تحاول تزويجكِ؟

ـ نعم، طوال الوقت. تقريبًا مرة كل شهرين يأتي غندور جديد للعشاء. وأكون متأنقة بالمصادفة، وكأن كل البنات يضعن المكياج ويرتدين الكعب العالي في المنزل! أحيانًا أتعمَّد عدم وضع مكياج وألبس أكثر الملابس فضفاضة، فتنفجر ماما غضبًا.

تسأل «إيلين»:

ـ هل ستجبرك على الزواج؟ لا أقصد أن أكون فظة، ولكن ذلك يثير للاشمئزاز!

ـ لا! يستحيل أن تجبرني. إنها فقط دائمة الضغط عليَّ بخصوص اهتمامي بالدراسة، وعدم تفكيري في الاستقرار. إنه أمر غريب؛ لأن بنات أخوالي وخالاتي في تركيا جميعهن في الجامعة، وآباؤهن وأمهاتهن سيصابون بنوبة قلبية لو أرادت إحدى البنات الزواج قبل إكمال دراستها. عاشت ماما هنا كل هذه السنوات بتقاليد قريتها وبقيت معلَّقة بحبال الزمن، بينما تطوَّر جميع إخوتها وأخواتها.

تقول «إيلين»:

ـ أفهم تمامًا ما تقصدين، هاجر والداي من اليابان منذ عشرين عامًا ولا يزالان مستمرين في التقاليد والعادات الثقافية التي كانا يتبعانها هناك طوال تلك السنوات.

تسأل ليلى:

ـ إذن، والداك تقليديان أيضًا؟

ـ كلنا نتحدث باليابانية في البيت، وجعلني والداي أتعلم الرقص الياباني عندما كنت في المدرسة الابتدائية في الوقت الذي كانت جميع صديقاتي يرقصن الباليه أو يلعبن كرة السلة. وماما ترتدي «كيمونو» في المناسبات الخاصة.

أسأل:

ـ ما هو؟

ـ إنه ثوب ياباني تقليدي. الأمر الغريب أننا عندما سافرنا لقضاء إجازتنا هناك منذ سنوات عدة، كانت خالاتي اللاتي يكبرن ماما، يرتدين «كيمونو» أكثر تطورًا من الذي ترتديه ماما! كنَّ فعلًا مهتمات بأحدث ما في عالم الموضة والأناقة، بينما ماما لم يتغير ذوقها منذ عشرين عامًا.

تقول ليلى:

ـ أستطيع تفهُّم ذلك جيدًا، ماما تصرُّ على ارتداء حجابات ذات نقوش مشجرة وأشرطة من الكلفة. انتقدتها بنات خالاتي كثيرًا بسبب ذلك في تركيا. كلهن يرتدين تلك الحجابات الجميلة المصنوعة من الحرير والساتان المرسوم عليها الأشكال غير التقليدية، وماما ترتدي على رأسها ما يبيعونه كمناديل للمائدة.

تقول «سيمون» مقهقهة:

ـ ذلك إهمال منها في حق نفسها.

ـ بجد، ماما بها حاجة مُلحَّة إلى فرقة إنقاذ دولية في الأزياء.

تقول «إيلين»:

ـ ماما تلبس بنطالًا ضيِّقًا مع حذاء مفتوح من الأمام وترسم حاجبيها، فيصيران دائمًا ملطخين ومعقوفين في نهاية اليوم. حطمت الرقم القياسي.

تسأل «سيمون» ليلى:

ـ هل هذا لأن أمك متدينة؟ طبعت أمل في أذهاننا أن كل تلك التقاليد التي على شاكلة «طالبان» ليست إسلامية، لكن الأمر محيِّر أحيانًا.

تجيب ليلى:

ـ يعتمد على ماذا تقصدين بالمتدينة، ماما تتبع عاداتها أكثر مما تتبع الإسلام. إنها في الواقع لا تملك فهمًا عميقًا للدين، تفهمين قصدي؟ بينما جميع أقاربي في تركيا لديهم ثقافة عن الإسلام: البنات يصلِّين وبعضهن يرتدي الحجاب ويذهبن إلى الجامعة ويعملن؛ لأنهن يعرفن أن من حقهن ممارسة ذلك في الإسلام. ماما أكثر اهتمامًا باتباع العادات الاجتماعية.

تسأل «سيمون»:

ـ ألذلك تريدك أن تستقري وتتزوجي؟

ـ أظن. أعرف أنها تقوم بذلك لأنها تحبني، وفي اعتقادها أن ما تريده لي هو الشيء الصحيح، لكن الأمر محبط جدًّا! خصوصًا نصائحها قبل مجيء عريس ما!

تقف وتبدأ بتقليد أمها:

ـ ليلى، أنت جميلات وذكيات. تطبخي ورق عنب وخبز «البايد». لا تدعي الرجل في غرفة الجلوس يفكر أنك لا تستحقين الجيد. ولكن ليلى، يا بنتي، أرجوك، لا تقولي أشياء ذكية مثل المرة الماضية حتى خاف الرجل. المرة الماضية قلتِ للرجل إن كل الرجال كسولة ويستطيعون فقط كيَّ قميص إذا حاولوا. أنتِ ليس جيدة ليلى!

ننفجر جميعًا بالضحك وتضحك ليلى معنا أيضًا.

تقول مرتمية على الكرسي:

ـ وإذن هاكنَّ، ماما، الخاطبة.

تقول «سيمون» بصراحة:

ـ لن أواجه هذه المشكلة أبدًا.

تقول ليلى:

ـ ماذا؟ أن يُحضروا لك عريسًا؟

تأخذ قضمة من البيتزا وتقول بفم ممتلئ:

ـ تريدين قطعة؟

ـ لا، عندي السلطة التي حضَّرتها أم أمل. الخس تحديدًا يفتح النفس.

كانت «سيمون» قد طلبت بيتزا معنا، لكنها تراجعت عندما فحصت عدَّاد السعرات الحرارية الذي تحمله في جيبها. أعدَّت ماما لها ولـ«سيمون» كثيرًا من السلطة المقرمشة مع جبنة فيتا وفتات البسكويت الهش.

تسأل «إيلين» «سيمون»:

ـ إذن، ما حكاية والديك؟

ـ لن يحضروا لي عرسان؛ لأنهم يقولون لي دائمًا إنني لن أجد رفيقًا أبدًا حتى أفقد وزني.

تصيح «إيلين»:

ـ أوه دعكِ منهم يا «سيمون»! مستحيل!

ـ ماما احتفظت برشاقتها حتى بعد أن أنجبتنا أنا وأختي «ليز». إنها دائمًا

تتذمر وتقول إنني سينتهي بي الحال وحيدة من دون زوج إذا لم أصبح رشيقة وأجد رفيقًا. يبدو أنها تستعرُّ مني.

نحدِّق جميعًا في «سيمون» مرعوبات.

ـ عندما تأتي أختي ورفيقها من «أدليدي»، تخضعني ماما لتلك الجلسة الاستخلاصية الضخمة. رفيق «ليز» معروف حقًّا، ويبدو أن له أصدقاء كثرًا. لذلك تجلسني ماما أسابيع قبل مجيئهم وتحاول إقناعي بدخول حمية حتى أفقد وزني، وأؤثر فيه بشكل كافٍ يجعله يعرِّفني على أحد أصدقائه.

نصيح بكلمات وإطراءات مطمئِنة، ولكن من الواضح أنها لا تعني كثيرًا في النهاية. لا تبالِ بنا وتتابع أكل سلطتها بلا شهية. نضع البيتزا جانبًا، ونفتح الراديو ونسحب «سيمون» من فوق السرير.

أصيح:

ـ هيًّا! لنتدرب على حركات لعبة الملاكمة التايلندية. تلك التي تعلمناها في «الأيروبيكس» العام الماضي!

ما إن تبدأ الموسيقى حتى نسقط بعضنا فوق بعض، ونضحك ونحن نؤدي لكماتنا غير المتناسقة وانحناءاتنا المعقوفة. «سيمون» تصرخ بأسماء أشخاص ينبغي أن نتصورهم في أذهاننا ونحن نؤدي اللكمات، إلا أنها في الحقيقة لا تتجاوز أسماء «تيا» و«كلير» و«ريتا». ثم تبدأ أغنية «ريسبكت» (احترام) لـ«أريثا فرانكلين»، ونرقص وكأننا في حفلة من حفلات السمر عندما كنا في الصف السادس، ونغني وكأننا نقدِّم الأداء الأخير في مسابقة جوائز الاتحاد الأسترالي للتسجيلات الموسيقية.

تبدأ «سيمون» الغناء وتصرخ بأعلى صوتها:

ـ «ريسبكت»! «تيا» تحتاج إلى أن تعرف ماذا يعني ذلك بالنسبة إليَّ! تلك المتكبرة! أتمنى أن تصبح سمينة. أوه! نعم! قليل من الاحترام!

* * *

أجلس في حجرة اللقاء المدرسية صباح الاثنين مستشيطةً غضبًا بسبب مقال في جريدة عن جريمة و«أشخاص بسحنات شرق أوسطية»، عندما تقترب «تيا» من مقعدي:

ـ هاي أمل، هل شاهدت تلك المقابلة مع أولئك الفتيات اللاتي تعرضن للاغتصاب من أولئك المسلمين؟ لا بدَّ أنك تشعرين بالخزي كثيرًا!

ـ لماذا؟

ـ أليست لكِ مشاعر؟

ـ الشيء الوحيد الذي أحس به الآن أن الذكاء المصطنع يهزم الغباء الحقيقي!

تقول ساخرة وهي تنصرف:

ـ مضحك!

* * *

صباح الثلاثاء، أجلس إلى مقعدي في حجرة اللقاء المدرسية مستشيطةً غضبًا بسبب مقال عن مشتبه بهم في عمل إرهابي وهم «أشخاص شكلهم من الشرق الأوسط»، عندما تقترب «تيا» من مقعدي مرة أخرى.

تسأل بنبرة مثيرة للاشمئزاز:

ـ هاي أمل، كيف الحال؟ هل تابعتِ ذاك الفيلم الوثائقي عن أولئك المسلمين الأصوليين الليلة الماضية؟ أنت عربية، أليس كذلك؟ لا بد أنه إحساس مريع معرفة أنك أتيت من ثقافة عنيفة كهذه!

ـ تعرفين «تيا»، وجدت مصادفة كتابًا منذ بضعة أيام، أقصر كتاب في تاريخ العالم. كان عنوانه «أفكاري» لمؤلفته «تيا تاموس».

تنظر إليَّ لحظة بصمت المذهول الخائب، ثم تستدير بعنف فيطير شعرها وتنصرف.

* * *

صباح الأربعاء، أجلس إلى مقعدي في حجرة اللقاء المدرسية، أقرأ مقالًا عن التدريبات التي تمارسها «جنيفر لوبيز»، عندما يظهر آدم فجأة أمامي مبتسمًا لي بحبور:

ـ هاي أمل، ما الجديد؟

أجيب:

ـ ليس كثيرًا.

ـ عُرِض فيلم وثائقي مجنون الليلة الماضية عن حادثة الحادي عشر من سبتمبر. يا إلهي! كانوا يعرضون كيف أن هؤلاء الأشخاص كانوا متدينين وأتقياء وهذا الهراء. هل شاهدت ذلك؟

وصلت حدِّي من التحمُّل! أحاول أن أفكر في حقول النرجس، في اللحظة التي تدرك فيها أختا «سندريلا» القبيحتان أن الأمير من نصيب «سندريلا»، في غروب الشمس على الشاطئ، في اللحظة التي أتناول فيها

قضمة من طعام بعد يوم من الصيام في رمضان، ولماذا لا يعطيني الناس استراحة وحسب؟ هل يعتقدون أنني سفيرة تمشي متنكرة وسط الناس، وأنني بسبب ارتدائي الحجاب أشاهد كل فيلم وثائقي يُعرَض عن الإسلام؟

آخذ نفسًا عميقًا:

ـ اسمع يا آدم، آسفة لأني أخذلك، ولكن كوني مسلمة لا يعني أنني دليل تلفزيوني يمشي على قدمين لكل برنامج وثائقي يتم إنتاجه تحت عنوان «هيا نناقش أزمة المسلمين»!!

ـ هه؟ ولماذا لا تفهمون أنتم والآخرون أنه لا يمكنك أن تكون تقيًّا جدًّا وتفجِّر الناس إلى أشلاء؟!... آسف! لم أقصد إيذاءك. اعتقدت أنك ربما شاهدته وحسب. سأتركك حتى تهدئي.

ينصرف وأعضُّ شفتي شاعرة بالذنب فورًا بسبب توبيخي القاسي له. أقفز وأركض وراءه عند منطقة الخزانات.

أقول:

ـ آدم.

يلتفت ويحدِّق فيَّ:

ـ نعم؟

أقول:

ـ اسمع يا آدم، أنا آسفة لأنني فقدت أعصابي، ولكن حاول أن تنظر إلى الموضوع من وجهة نظري.

ـ وهي؟

ـ إن الأمر... عاطفي جدًّا. هل لديك أية فكرة عن ماهية أن أكون مسلمة اليوم؟ أقصد، فقط افتح التلفزيون أو الجريدة، وستجد مقالًا يحلل ويفكك ويؤلف نظرية ما عن الإسلام والمسلمين، فرصة أخرى لشرح تلك الظاهرة المسماة بـ«المُسلم». يبدو الأمر وكأنك تغرق فيها تمامًا. كانت «تيا» تتعمَّد إزعاجي طوال الأسبوع بهذا الشأن، ولذلك عندما سألتني حصل ذلك في الوقت الخطأ، لذلك وبختك بقسوة.

يمرِّر أصابعه خلال شعره:

ـ حسنٌ، جيد. أفهم من أين أتيت، ولكن عليك أن تكفِّي عن افتراض أنني أحاكمك. اسمعي، ربما في البداية عندما ارتديت الحجاب مررتُ بكل هذه النظريات المختلفة، لكن ذلك كله تغير. الآن أحاكمك بشأن ما إذا كنت ستجعلينني أضحك، وبشأن ما إذا كنت ذكية، وكيف تكونين مزعجة في ردودك الذكية، وكيف تمرين بمزاجك النسوي وتدافعين عن حقوقك كامرأة، وكيف أنك جريئة وتساندين نفسك. كل الأشياء الأخرى لا تعني شيئًا بالنسبة إليَّ. إذن، هل فهمتني جيدًا؟ أحبك لأنك صديقة جيدة، لا لأنك عينة نباتية مهم أن أدرسها.

أرمقه بنظرة غريبة:

ـ تقصد عينة حيوانية؟

نحدِّق بعضنا في بعض ثم ننفلت في ابتسامة خجلة.

(١٧)

إنها الذكرى السنوية الأولى لأحداث الحادي عشر من سبتمبر. أستيقظ هذا الصباح على الرنين الصاخب للمنبه، وأريد أن أرميه عبر الغرفة. أنا متعبة جدًّا. أستمع إلى التعازي طوال الصباح بينما أستعد للذهاب إلى المدرسة. الحجاب لا يريد أن ينضبط فوق رأسي اليوم مما يعني جلسة طويلة أمام المرآة.

أتذكر عندما حدث ذلك. بقيت العائلة كلها مستيقظة طوال الليل تشاهد التلفزيون، كان الأمر مرعبًا. كل ما فكرت فيه هو أنه كيف لدولة قوية مثل أمريكا، وفيها ناس تمامًا مثل هؤلاء الذين يعملون في شارع «بورك» أو «كولينز»، أن تُضرَب هكذا. ورحت أفكر في هؤلاء الناس، وهم يعبثون في أماكن عملهم، ربما يقرؤون «إيميلًا» مُسلِّيًا، أو يتذمرون من رئيسهم وهم مجتمعون حول آلة إعداد القهوة، أو يتصلون بأهلهم ليخبروهم متى سيعودون إلى البيت للعشاء. أعرف أن الأمر يبدو مرعبًا، لكنني شعرت بالارتباك؛ لأن موتهم لسبب ما كان أكثر صدمة وإثارة للاشمئزاز وللذهول من أي موت تقرأ عنه عادة أو تشاهده في الأخبار. تعرف كيف يحدث ذلك، تنتقل إلى أخبار السادسة وتشاهد أناسًا يتضورون جوعًا، وبلدانًا تدمي، وأناسًا يموتون في سبيل حقهم في التحرر من الاحتلال والديكتاتورية، وماذا تفعل؟ تستهجن

بقول: «تؤ.. تؤ» وتتنهد. وفي معظم الأوقات أتحول إلى مشاهدة مسلسل «ذي سيمبسنز». ذلك ما جعلني مرتبكة ومستاءة. لأنني لم أتمكن من التوقف عن الصياح وأنا أشاهد البُرجيْن ينهاران. كان حدثًا فظيعًا، والأمر الأفظع أن أعرف أنني لا أقضي الليل أبكي عندما يحدث مثل هذا الرعب دائمًا.

* * *

أتأخر ويفوتني أتوبيسي المعتاد. وعندما يصل الأتوبيس التالي أشتري تذكرتي من سائق نكِد يحييني بتحية صباح عابسة وهو يعطيني الباقي. الأتوبيس ممتلئ، لذلك أجلس في الصف الأمامي، في وضع مائل يواجه السائق، وإلى جانب عجوز تتشبث إحدى يديها بحقيبة قماشية أكبر من المعتاد والأخرى بعصا للمشي. ترسم على حاجبيها خطًّا أسود كثيفًا بالكُحل، وتضع أحمر شفاه بلون وردي فاتح. لها وجنتان جميلتان ومرتفعتان تتحول إلى مشمشتين صغيرتين عندما تبتسم لي وأنا أحشر نفسي على المقعد، محاذرةً أن أصدم قدميها بحقيبتي المدرسية الضخمة.

تقول بنبرة جدة مبتهجة:

ـ صباح الخير عزيزتي.

أقول مبادلة إياها الابتسامة:

ـ صباح الخير.

ـ هذا شال جميل يا عزيزتي.

أقول متأثرة بالإطراء:

ـ شكرًا.

تقول:

- كنت فتاة صغيرة أيضًا ذات يوم، تعرفين، وكنت أعمل في مصنع ملابس جميل. بعض الفتيات المحجبات كنَّ يعملن هناك أيضًا، وبعضهن كن يرتدين شالًا مثلك تمامًا. أوه! تلك الأشكال والألوان المختلفة... وكنا نحن الفتيات طبعًا نموت حسدًا وقت الغداء؛ لأنهن كن يحضرن معهن غداءً لذيذا وغريبًا جدًّا.

تضحك ضحكات خافتة وهي تتذكَّر، وتهتف قائلة:

- كنا نحضر غداءنا الممل من ساندويتشات لحم الخنزير والجبن والطماطم و... يا إلهي! كنَّ يحضرن ورق عنب محشوًّا باللحم والأرز أو الكُفتة المقلية كما يسمينها، وكنَّ دائمًا ما يُشرِكننا معهن!

وبينما نتحدث، أدرك فجأة أن صوت الراديو علا حتى إنه أخذ يدوِّي في أرجاء الأتوبيس. صوت يصرخ بكلمات غاضبة على «المسلمين والعنف» وكيف أنهم «جميعًا مصدر إزعاج»، وكيف أن «الأستراليين مهددون بالهجوم من قبل هؤلاء الذين يقرأون القرآن، ويريدون تدمير حياتنا وقيمنا». يحمر وجهي وتتقلب أمعائي بينما تحدِّق مقلتا سائق الأتوبيس فيَّ عبر انعكاس المرآة، ينظر إليَّ كأنني دليل حيٌّ على كل شيء يُقال في الراديو. يكاد يُغمى عليَّ من الإحراج، بينما يشنُّ الصوت الغاضب هجومه العنيف في أرجاء الأتوبيس لِيسمعه كل شخص.

يواصل سائق الأتوبيس مراقبتي، ووجهي يحترق من فرط الشعور بالعار؛ العار لأنني تركته ينال مني.

ظننت أنني مستعدة لهذا، ولكن ها أنا أغالب دموعي الآن. تلمحني العجوز فأنظر بعيدًا مركِّزةً على بقعة على أرضية الأتوبيس. وعندما نقف عند الإشارة الضوئية تنهض فجأة من فوق مقعدها شبه منتصبة.

تصيح محاولة لفت انتباهه وسط الضجيج قائلة:

ـ يا أيها السائق!

ينظر عبر المرآة ويتظاهر بعدم السماع.

ـ يا أستاذ! يا سائق!

يجيب بنفاد صبر:

ـ نعم؟

ـ هلا أخفضت صوت ذاك الهراء رجاء! لا نستطيع سماع أنفسنا نتكلم بسبب تلك التفاهة المتفجرة!

ينظر إليها بانزعاج ويخفض الصوت بفظاظة. أشعر برغبة في احتضانها. أبتسم لها بخجل فتربت على يدي.

ـ عمري ستة وسبعون عامًا. وخلال أعوامي الستة والسبعين يا عزيزتي، لم أسمح للسياسة قط أن تخبرني كيف أعامل الناس.

نجلس صامتتين، ثم سرعان ما تبدأ بجمع أشيائها استعدادًا للنزول في محطتها. أفسح لها الطريق وبينما تخطو إلى خارج الأتوبيس تلتفت نحوي وتبتسم. ألوِّح لها مودِّعة.

أحيانًا من السهل فقدان الثقة في الناس. وأحيانًا كل ما يتطلبه الأمر هو موقف واحد يدل على الطيبة لكي يعيد إليك الأمل مرة أخرى.

(١٨)

إنها الذكرى السنوية السادسة والعشرين لزواج والديَّ الليلة. سمعتهما مصادفة الشهر الماضي يتحدثان عن فكرة الاحتفال بقضاء أسبوع في «بالي»، لكن ماما كانت قلقة عليَّ بشأن ما إذا كنت سأتمكن من التأقلم بدونهما بسبب دراستي، وكان بابا قلقًا أنهما إذا ما تركاني مع خالي «جو» وعائلته أن يعودا ليجدا تهمتيْ قتل باسمي وفي صحيفة جناياتي، أو ثلاثة، على حسب مزاج «جورج»، لكن «سمانثا» قد تكون هي رقم واحد في الصحيفة.

في المرة الماضية عندما قضيت الليلة في بيتهم، طلب لنا خالي «جو» بيتزا بلحم الخنزير، ونظر إليَّ بغرابة عندما سألت عمَّا إذا كان بإمكاني تحضير ساندويتش بزبدة الفول السوداني. وطوال فترة العشاء كانت خالتي «ماندي» تحاول حثِّي على إقناع والديَّ أن يمنعاني من التحدث بالعربية في البيت؛ لأن العربية ستؤثر على مهاراتي في الإنجليزية.

إذن، خوفًا على سلامة خالي وخالتي، استُبدِلت رحلة والديَّ الرومانسية إلى الجزيرة بقرطي ألماس وعشاء في مطعم يقع على البحر في «ساوث بانك».

أعرف بأمر القرطين لأن بابا طلب مني أن أعرف من ماما ما تريده دون أن

تعرف بأمر الهدية. وكأن ذلك الأمر يحتاج إلى التحقيق والتجسس، فماما تضع كتيبات «تيفاني» الدعائية في صندوق قفازاتها، وفي الدرج الموجود بجوار سريرها، بل تلصق صورًا منه على باب الثلاجة! وأعرف بأمر العشاء لأنه ظل طوال اليوم يقلق بشأن ما إذا كان المطعم من النوع الذي يقدم وجبات للريجيم.

أحضر إلى البيت ١٢ وردة وعلبة شوكولاتة بالخروب. ماما كانت أكثر حماسًا لحقيقة أنه فكَّر في شراء الخروب. عرضتُ عليه واحدة لكنه كان عنيدًا، وصمم أن تحتفظ حبيبته بالعلبة كلها لنفسها.

تقول ماما بينما أتمدَّد على سريرها أراقبها وهي تضع المكياج:

ـ اخرجي للعشاء معنا.

ـ وكأنني أريد حقًّا أن أجلس وأشاهدك وبابا تتغازلان.

أنتفض وأنا أُصدر جلبة من ضحك مخنوق.

ترميني بكُرة قطنية من كرات مسح المكياج، ولا أستطع إلا أن أراها كم تبدو جميلة الليلة. اختارت حجابًا قشدي اللون مطرزًا، محاكة عليه وردات صغيرة ذات لون وردي شاحب وخيوط حريرية بلون المشمش. لباسها عبارة عن قميص طويل متدلٍّ قشدي اللون وتنورة متماشية معه ذات طبقات من الشيفون.

أخبرها:

ـ تبدين فاتنة!

ـ شكرًا حبيبتي. ما رأيك أن أعذِّب أباك قليلًا؟

هناك نظرة عابثة في عينيها:

ـ اسأليه عمَّا إذا يبدو ردفاي كبيرين في هذا اللباس؟

ـ ذلك قاسٍ! سيجعله ذلك يجنُّ بعد ما مر به ليختار مطعمًا.

ـ يا لك من عطوفة عليه. بالمناسبة...

تضيف بنبرة عرضية:

ـ تحدثت مع السيدة «فاسِلي» هذا النهار.

ـ أوه نعم؟ هل أصابتك بعينها الشريرة؟

ـ لا تكوني فظة، أشعر بالأسف كثيرًا لأجلها، المسكينة! لا أحد يزورها، واليوم عيد ميلادها. أخبرتني أنها لم ترَ ابنها منذ سنوات. تعيش في ذلك البيت وحيدة تمامًا.

ـ المسكينة. الساف.. الساحرة.

يمكن لماما أن تحرقك بنظراتها!

ـ ماذا أُخبرك دائمًا عمَّا يقوله الإسلام؟

ـ زيدوا مصروف أبنائكم وحققوا النعيم الأبدي؟

ـ الجنة...

أقول بتذمُّر منهيةً حديثًا للنبي محمد:

ـ «... تحت أقدام الأمهات».

ـ ذلك صحيح. والآن اذهبي وأعطها الشال الذي ابتعته لعيد ميلادها وإلا جعلتك تلمسين أصابع قدمي!

تضحك بشكل هيستيري، وأقلِّب ناظري.

أصيح:

ـ لا أستطيع الذهاب! إنها تكرهني.

ـ ذلك كلام فارغ! إنها أعجز من أن تكره! عندما تصلين إلى ذلك العمر لا تكون لديك الطاقة.

ـ ذلك ليس صحيحًا. لديها كثير من الوقت لتستفيد مما ادخرته من طاقة طوال سنوات عمرها. ثقي بي، إنها شديدة الكره!

ـ حسنٌ، إذا كانت كذلك، هذا سبب يدعو أكثر وأكثر إلى جعلها تبتهج. لا عذر!

ـ حسنٌ، ماذا عن هذا إذن؟ منذ بضعة أيام كنت أقف في الجانب الآخر من الطريق، واستطعت أن أرى صليبًا في مدخل بيتها. كان بحجم الجدار كاملًا. لا بد أنهم استخدموا غابة بأكملها لنحته. كان هناك صليب في كل مكان، إنها يونانية أرثوذكسية متطرِّفة. ببساطة لا أستطيع الذهاب إليها!

كانت محاولة فاشلة، لكنني يئست.

ـ ذلك أسخف عذر اخترعتِه. إننا نحضر أعراس أصدقائنا في الكنائس، وأنت التحقت بمدرسة كاثوليكية ـ لا يهمني إن عرضتْ عليك الخبز المقدَّس. ستذهبين وستكونين كريمة ومهذبة ولطيفة، وإذا ما تصرفتْ بنزق، ابتسمي لها ابتسامة النصر خاصتك، واسأليها عمَّا إذا كانت ترغب في أن تُعدِّي لها كوب شاي. مفهوم؟

أكشِّر في وجهها فتُخرج لي لسانها.

تستطيع أن تصبح غير ناضجة في بعض الأوقات!

* * *

تعيش السيدة «فاسِلي» في بيت من الطراز المعماري الفيدرالي، ضخم وأصفر وقديم. البستاني يحافظ على الساحة الأمامية نظيفة. نسي مرة أن يشذِّب الشجيرات، فأخذت تصرخ في وجهه بكلمات قسم يونانية حتى عاد وأنهى العمل.

أضغط على جرس الباب الأمامي وأعد حتى ثلاثة. إذا لم تفتح عند ثلاثة، سأخرج من هنا. يستحيل أن أبقى أكثر من الرقم الثلاثة، لكنني أصل إلى عشرة، ثم إلى خمسة عشر، وعند سبعة عشر فقط يُفتح الباب.

تقول بحدة وارتياب، مُخرجة رأسها من وراء الباب:

ـ ما تريدين؟

ـ مرحبًا سيدة «فاسِلي». أنا أمل من البيت المجاور.

ـ آه. المُدخِّنة.

لا أهتم. أرفع الهدية كي تتمكن من رؤيتها:

ـ إحم... عيد ميلاد سعيد!

ـ كيف عرفت أنه عيد ميلادي؟

ـ ماما أخبرتني، إنها منها.

ـ هه! أمك تلك.. فُضوليَّة كبيرة.. دائمًا تحاول التحدُّث معي!

أنا على وشك أن أقطب وجهي، لكنني أكبح نفسي وأتأمل حذاءها الأسود عوضًا عن ذلك؛ إنه لامع جدًّا إلى حدٍّ أنني أستطيع تقريبًا رؤية شاربيها منعكسين.

تفتح الباب، وتدور موليةً لي ظهرها ومتجهة إلى الداخل. أتوقف عند المدخل متسائلةً أية حلقة من مسلسل «سينفيلد» ستفوتني.

تصيح ملتفتة لتنظر إليَّ:

ـ هسنٌ في مازا تنتظري؟

أتبعها إلى الداخل، مارَّة بمحاذاة غرفة طعام ومعيشة كبيرة، ثم إلى المطبخ. بيتها نظيف وهادئ. لا توجد فيه صور. لا دليل على ذكرياتها. لا شيء يخبر الناس أين كانت، مَن حضنت، وبجانب مَن وقفت.

تجلس على كرسي هزَّاز كبير مصنوع من الأغصان اللدنة، وترشدني إلى الجلوس إلى طاولة المطبخ، قريبًا منها. أناولها الهدية وأجلس. تعبس في وجهي بينما تفضُّ ورق التغليف.

تتذمَّر وهي تناضل في فك الأشرطة واللصق:

ـ لمازا لزج كثيرًا؟

ـ ماما تحب تغليف الهدايا.

تتمكَّن أخيرًا من فتح العلبة وتخرج الشال؛ إنه نسيج كشميري، فيه التواءات بألوان تركوازية وخضراء وزمردية، مع شُرَّابات باللون الأزرق الملكي. ترفعه أمامها وتحدِّق فيه.

تتذمر طاوية الشال لتعيده إلى ورق التغليف:

ـ هاه! لوني المفضَّل أهمر!

أرفع نظري إلى السقف وأعدُّ إلى العشرة.

تهز كرسيها، وتبدو ملامح وجهها فاترة. أنقر بأصابعي على الطاولة محاولةً عدم سماع صوت ماما في رأسي.

بعد لحظات قليلة تلتفت وتنظر إليَّ من الأعلى إلى الأسفل:

telegram @ktabpdf

- ألا تشعرين بالهرّ في زلك؟

- أحيانًا، لكنني لا أرتدي لونًا أسود في اليوم الحار، بل أرتدي ألوانًا خفيفة، ولا أحس بالحرارة بهذه الطريقة. على كل حال، إنه الشتاء الآن.

- أنت سغيرة جدًّا على أن تظهري وكأن زوجك مات!

أصرُّ بأسناني.

- أبوك يضربك بالهزام إزا لم تلبسيه؟

أنفجر ضاحكة:

- بالطبع لا!

تنظر إليَّ بارتياب:

- هه! تضيِّعين وَقتك على كل هال.

ترمقني من تحت رموشها وهي تلتقط النُّسالة من فوق تنورتها.

- كيف أضيع وقتي؟

- لمازا تزعجي نفسك وتظهري مثل أرملة وأنت لا تهْسُلي على الخلاس من السيِّد المَسِيه على كل هال؟

أتلوَّى في مقعدي محاولة تمالك أعصابي.

أقول بسرعة، متذكرة كلمات ماما:

- هل ترغبين في كوب من الشاي؟

ترفع ناظريها باندهاش:

ـ لا، ولكن جهزي الشاي من دون أن تسألي. ألم تعلِّمك أمك الأدب؟

ـ في الواقع لا، لم تفعل! لقد ربتني مثل فتاة في غابة.

تضيق عيناها وهي تنظر إليَّ فأنظر إليها في تحدٍّ.

ـ الغلاية على المقعد. الفناجين في الخزانة تحت الفُرن. لا تستخدمي الطقم السِّيني الجيِّد. للضيوف فقَط. استخدمي الكوب. أنا لا أريد سكر، ولا هَليب. لا تملئي الكوب. استخدمي نفس كيس الشاي لكوبيْن.

أصرُّ بأسناني بينما أملأ الغلاية وأشغِّلها. إنها تصرخ بالأوامر في وجهي، عن مسح كل ما يتناثر، وألا أختلس النظر إلى الخزانات الأخرى. هذا كل ما أستطيع فعله كي لا أنفجر، أن أهمس بكل كلمة قسم عربية أعرفها.

وبعد ذلك أرى طقمها الصيني من فناجين الشاي، مصفوفة بترتيب في الخزانة. طقم أبيض تزين حوافه زنابق الخزامى. صحون الفناجين مرتبة في صف عمودي، والفناجين موضوعة بشكل مقلوب وموزعة بشكل قطري. هناك منديل مائدة صغير فوق صحن الكعك، وسكينة كعك موضوعة بشكل رقيق عبر الصحن. أعتقد أنها لم تستخدمها منذ سنوات. ثمَّة شيء ما يوحي بالوحدة والزيادة عن الحاجة. استبد بي هذا الشعور فجأة، لا يهمني ما ستقوله. ولا أهتم أن تطالبني بالتحول عن ديني، أو تنعت بابا بالمجرم، أو تتهم ماما بإساءة معاملة الأطفال. لديها طقم صيني عديم الجدوى وتستطيع قول ما تشاء. وهكذا أعد لها كوبًا من الشاي وأضعه على طاولة القهوة قربها.

أسألها مطلقة ابتسامة عريضة:

ـ إذن، عندك بسكويت، سيدة «فاسِلي»؟

ترفع نظرها نحوي بفظاظة وتحدق فيَّ، مرتابة في نبرتي. ثم تستقيم ببطء في جلستها على الكرسي، وبصوت أجشَّ، تخبرني أن أنظر إلى الجانب الأيسر من خزانة المؤن، وتقترح عليَّ بينما أنا هناك أن أجرب أيضًا قطعة من كعكة الفواكه التي أعدَّتها.

* * *

في صباح اليوم التالي، في أثناء الفطور، تطلعني ماما على القرطين اللذيْن فاجأها بابا بهما في العشاء.

أقول بانفعال:

ـ إنهما رائعان، إذن هل أحببت المطعم؟

تنظر إلى بابا وتنفجر ضاحكة.

أسألها:

ـ ما المُضحك؟

ـ المطعم كان جميلًا. ليلة ساحرة!

ـ إذن ما المُضحك؟

يقول بابا:

ـ حسنٌ.. لم نكن قد غادرنا السيارة عندما أخبرتني بأنها ستتناول الكباب!

أسألها بارتياب:

ـ لم تفعلي! أكلت كبابًا؟!

ـ مُضافًا إليه كل شيء.

ـ كل شيء؟

ـ وكانت هناك فلافل مقلية في الداخل أيضًا!

يقلِّب بابا ناظريه بذهول ويهزُّ رأسه:

ـ ثم وصلنا إلى البيت، وسألتني عمَّا إذا بدا ردفاها كبيرين!

أنظر إلى ماما.

تهمس غامزة لي بعينها:

ـ لم أستطع المقاومة!

مكتبة أحمد

(١٩)

نجلس بعد الغداء إلى مقاعدنا ننتظر مستر «بايبر» الذي كان متأخرًا عن الحصة. أخربش توقيعي مرات ومرات في صفحة شهر يناير في دفتر يومياتي. ثم أملُ وأبدأ بحلِّ معادلتي الحسابية في الحب مع المغني الرائع «أَشَر» وآدم.

تصيح «تيا» هازّة كرسيها وهي تلتفت لتواجهني:

ـ هاي أمل.

ـ نعم؟

وكأنني مهيّأة نفسيًّا لها.

ـ هنالك ذلك المقال في مجلة «ماري كلير» عن ختان الفتيات المسلمات في نيجيريا.

وتنطق كلمة ختان بصوت عالٍ كي يسمعها الأولاد، وهي تعرف بالطبع، أنهم سيتوقفون عن اللعب بلعبة من ألعاب «نينتندو» ليسمعوا أي جزء في النقاش الآن. تنظر «سيمون» و«إيلين» نظرات بذيئة إلى «تيا»، غير أن «كلير» و«ريتا» تبادلانهما النظر وعلى وجهيهما ابتسامة متكلّفة.

ـ إذن، هل أنتِ تعرفين، كاملة هناك في الأسفل؟

تنفجر ضاحكة، وأسمع البعض يقهقه. أمرُّ بنظري على آدم. يجلس على مقعده، ونظرة مصدومة على وجهه.

يحمر عنقي، ويتدفق الدم فيه بحرارة إلى حد أنني أكاد أحس قلادتي تذوب على جسدي. لا أعرف ما أقول. إذا بدأت أشرح أن هذا له علاقة بالثقافة وليس بالدين، فإنها تعرف أنها نالت مني، وأنني شرَّفتها بردٍّ. ولكن فكرة تجاهلها تجعلني أرغب في التقيؤ. إن الإحساس بالذل عندما ينظر إليَّ كل شخص متسائلًا عمَّا إذا كنت قد مررت بتلك التجربة، يصيبني بالدوار من شدة الغثيان. أكرهها. كيف تجرؤ؟ أكرهها كثيرًا، حتى إنني أحس عيني متقرحتين وأودُّ لو أتبخَّر وأعود إلى مدرسة الهداية، إلى السرير، بعيدًا عن صف هؤلاء الناس المحدقين فيَّ، منتظرين إجابة.

ـ إذن؟

تنظر إليَّ وعلى وجهها ابتسامة تعجرف متكلفة، وهي تدلي قدميها من الكرسي.

ـ أم إن الأمر خاص؟ آسفة، ما كان ينبغي أن أحرجك هكذا. أظن أن مسألة كونك ما زلت سليمة أم لا، شيء تريدين الاحتفاظ به لنفسك.

وبعد ذلك تقف «سيمون» فجأة، يداها فوق وركيها، ونظرة توحش في عينيها.

ـ لِمَ لا تخرسين وحسب أيتها السافلة الغبية القبيحة!

ينقسم الصف بين من يتوق إلى نسمة هواء من هول الصدمة، وبين من يضاعف الضحك. ينكمش وجه «تيا» ثم يتلوَّى في غضب ضارٍ.

ـ أوووه! الفتاة السمينة وجدت صوتها، أليس كذلك؟ هل كان مختبئًا تحت كرشك؟

يمتلئ الهواء بكره شديد، حتى إنه يصير خانقًا. تبدو «سيمون» كأنها على وشك القفز على «تيا» وتسويتها بالأرض، و«تيا» تنظر إليها بمقت. بعض الشباب يضايقونهما بالصراخ:

- صراع القطط! صراع القطط!

ثم يقف «جوش»، ويصيح فيها:

- «تيا»، اخرسي!

يضحك بعضهم والبعض الآخر يبدأ بالنميمة. تجلس «تيا» مبوَّزة بخزي وغضب. وتجلس «سيمون» إلى مقعدها في نشوة من السعادة. ينظر إليَّ آدم، لكن عينيَّ لا تلتقيان بعينيه، فيتحوَّل بنظره بعيدًا. تلمس «إيلين» ذراعي، لكنني أبعدها. لا أريد أي تواصل! لا أريد أحدًا! أحس كأنني أكلت شيئًا عفنًا وأرغب في التقيؤ! أستطيع سماع بعض الفتيات يتهامسن عن الختان وما يكون. وعليَّ أن أتشبث بشدة بالكرسي حتى شعرت بكدمات في راحة يدي، فقط لكي أمنع نفسي من الهروب.

* * *

لا يذكر أحد الموضوع مرة أخرى في الأيام القليلة التالية. وما إذا كانوا يتساءلون أم لا فهذا شيء آخر. تحاول «سيمون» و«إيلين» جعلي أضحك، لكنني لست في حالة نفسية مهيأة لمعاركة نفسي. وعوضًا عن ذلك، أستسلم وأسلِّي نفسي بجرعة بغيضة من الشفقة على الذات؛ لأنني أتخيَّل سلسلة من الردود في رأسي، ولكوني بائسة وأنانية تمامًا. سيئ جدًّا أن أكون كريهة إلى أقصى حد وأنسى أن أشكر «سيمون» و«جوش».

يظنُّ والداي أنني تحت ضغط الواجبات والدروس المتعلقة بشهادة

«فكتوريا» في التعليم. هذا هو أكثر الأعذار ملاءمة لأية حالة مزاجية سيئة. عندما تطلب مني ماما أن أغسل الصحون تظهر عليَّ علامات التوتر، والشيء التالي الذي يحدث، هو أن أتمدد على السرير بينما يحضر لي بابا كوبًا من الكاكاو الساخن مع الحليب المقشود، ويسألني عمَّا إذا كنت أريد أن تحضر لي ماما كعكات «المافِين» قليلة الدسم.

* * *

مع نهاية الأسبوع، وبعد أن كنت أتجنب آدم بسبب إحساس محض بالعار، يتقدم نحوي في استراحة الغداء.

يسألني بارتباك:

ـ هل أنتِ بخير؟

ـ طبعًا بخير!

تمر فترة صمت بشعة وأحدِّق في الأرض. ما زلت أحس بحرج شديد حتى إنني لا أجرؤ على النظر في عينيه.

ـ تحاول «تيا» مضايقتك لأنك تبدين مختلفة وحسب، لأنك متدينة. أعتقد أنها مستغربة، وتراكِ بطريقتها السافلة النموذجية، هدفًا مثاليًّا... إنه لأمر غريب بطريقة ما!

ـ ما هو الغريب؟

ـ كونك متدينة وتقية وهذه الأشياء.

ـ شكرًا.

ـ لا تغضبي، إنني فقط أحاول شرح الأمر.

ـ إذن إذا غضبت نهاية كل أسبوع سأكون طبيعية، ولكن إذا أخذت عشر دقائق من يومي لأصلي، ووضعت قطعة من القماش فوق رأسي، أكون غريبة الأطوار؟!

يبتسم لي ابتسامة بلهاء:

ـ حسنٌ، نعم!

ـ هذا ليس مضحكًا!

ـ أوه هيًّا، تعرفين أنني أمزح. أحب إغاظتك. تفقدين أعصابك بسرعة. في الواقع لا أرى أنكِ غريبة.

ـ كنت تراني كذلك.

ـ نعم، حسنٌ، كان ذلك بضعة أيام فقط. الآن أرى أنك ذكية ولسانك طويل وينتابك مزاج حقوقي نسوي.

ـ أنت متعصِّب بشكل لا يُصدق!

ـ حسنٌ، هذا صحيح!

ـ امنحني مهلة!

ـ ليست مشكلتي أن تنكري حقائق الحياة. معروف أن الفتيات مصابات بانفصام الشخصية.

ـ أقسم بالله يا آدم، إذا قلت تعليقًا متعصبًا آخر سأخبر الجميع أنك تحب المذيعة «ساندرا صالي».

ـ أمل! هذه حجة واهنة!

أبتسم له ابتسامة عريضة وأطوي ذراعيَّ فوق صدري.

ـ كفّ عن هرائك الذكوري المتعصِّب وسأحمي سُمعتك.

ـ حسنٌ، حسنٌ... على كل حال، ليس حبًّا. يا للكِ من دراماتيكية! مجرد إعجاب ببعض الصفات...

يضحك.

ـ نعم، حسنٌ، ذلك ما يحدث... كل مرة.

(٢٠)

أقضي أسبوعي إجازة منتصف الفصل في إنجاز واجباتي المدرسية، وهذا الأمر يقتلني! الشيء الوحيد الذي يساعدني على التحمُّل هو المكالمات الهاتفية الطويلة، وجلسات الدردشة على الـ«إم إس إن» مع آدم. نتحدث عن أي شيء وفي كل شيء. كالمرة التي اكتشفنا فيها أننا نحب نفس الأفلام، وأن كلينا مدمن على مشاهدة مسلسل «لو آند أوردر» (القانون والنظام). أو عندما قضينا ساعتين نتحدث عن موسيقانا المفضلة وعمَّا يزعجنا في عائلتينا، وأين نرى نفسينا بعد المدرسة الثانوية. يبدو كأن لا شيء أفضل من ذلك!

بقدر ما «سيمون» و«إيلين» سعيدتان لأجلي، كانت «إيلين» ترسل إليَّ رسائل نصية قصيرة منتظمة تنبهني فيها إلى أن أهوِّن على نفسي الأمر إذا كنت لا أريد أن أعرِّف آدم أنني معجبة به بجنون.. هي تعرفني على نحو كافٍ لتتنبأ بدخولي وحدة العناية المركزة في مستشفى «ملبرن» الملكي بمرض «متلازمة العار» الشديد إذا عرف آدم بالأمر. بالنسبة إلى شخص ليس متدينًا كثيرًا، فإنها تتصرف بالتأكيد وكأنها شيخي الخاص المتنقِّل. في فترة الإجازة وحدها تلقيت منها الرسائل التالية:

الاثنين: «إذا كنت لا تريدينه أن يعرف، عامليه بشكل مقرف!»

الثلاثاء (صباحًا): «إذا غازلتِه، ستأخذين قلبك وتجرحينه!»

الثلاثاء (في وقت متأخر): «في الواقع، يمكنك أن تتغازلي معه. فقط لا تجعليه يحس أنه الوحيد الذي تغازلين.»

الثلاثاء (في وقت متأخر جدًّا): «تتغازلين مع كل شخص؟؟ تجاهلينني». أنت لست «باريس هيلتون». استمتعي وحسب وافعلي ما ترينه صحيحًا ☺.

الليلة آدم وأنا نشاهد برنامجًا بوليسيًّا مثيرًا للجدل، بينما نتحدث على الهاتف، ملقيْن التعليقات طوال البرنامج، عندما تدخل ماما وتطبع على خدي قبلة كبيرة مفرطة وبصوت عالٍ.

ـ ماماااا! إنني أتحدث على الهاتف!

ـ ألا يمكنني تقبيل طفلتي إذن؟

ـ عجبًا يا ماما! انتظري على الأقل حتى أنتهي من المكالمة!

ـ لا تكوني جاحدة يا أمل. قولي مرحبًا لمن تحدثين على الهاتف.

ـ حسنٌ، سأفعل.

ـ إذن قوليها.

ـ مرحبًا.

ـ مَن تُكلمين؟

ـ إنه آدم.

ـ أوه! حسنٌ، قولي مرحبًا. أنا وأبوك سنذهب إلى بيت خالك «جو». هل تريدين المجيء؟

ـ لا.

ـ لم أتوقع ذلك. لن نتأخر.

ـ لا تقصِّرا من زيارتكما بسببي.

تنظر إليَّ نظرة مطلِّع فطِن:

ـ كم أنت كريمة يا أمل!

تنفش لي شعري، فأصرخ فيها أن تتركني وشأني، ثم تختفي مع بابا.

يسألني آدم:

ـ أفهم أن تلك كانت أمك؟

ـ نعم، آسفة بشأن ذلك. تكلَّم عن انعدام آداب المحادثة على الهاتف. دائمًا تفتح معي حديثًا موازيًا عندما أتحدث على الهاتف.

ـ هل هي دائمًا حنونة جدًّا؟

ـ لا، إنها نادرًا ما تقبِّلني. ذلك كان غير متوقع.

ـ أمل، لست مضطرة أن تكذبي لأنك تعتقدين أنني سأبدأ في البكاء في الزاوية لأن أمي ليست هنا.

أتمتم بكلمة آسفة فيضحك بخفوت:

ـ أعتقد أنني تقبَّلت حقيقة أن لي أمًّا تخلت عن ابنها. وأستطيع التعامل مع حقيقة أن هناك عائلات سعيدة.

ـ آسفة! على كل حال، السعادة نسبية. في بعض الأيام قد تعيش أوقات أفضل مع أبيك و«تشارلين»، وقد تكون عائلتي في مزاج سيئ، تتعارك بسبب مَن ترك الحليب خارج الثلاجة.

ـ «تشارلين» بارعة جدًّا. لا تدَّعي أنها تحل محل أمي، وهذا جيد. وعلى كل حال، في الواقع لا يرى بعضنا بعضًا كثيرًا. كما أخبرتك، هما يعملان دائمًا.

ـ والداي يعملان أيضًا ساعات طويلة في بعض الأيام. أقصد، أن عيادتيهما تقفلان في وقت محدد، غير أن هناك عملًا ورقيًّا يقومان به، وأحيانًا يشغلان أماكن الأطباء الآخرين.

ـ لكنكم دائمًا تقومون بالأشياء بعضكم مع بعض. إنكم مثل عائلة «برادي بَنتش» أو شيء من هذا القبيل. أقصد، أنكم تتناولون العشاء بعضكم مع بعض، تتسوقين مع أمك، وتخرجون معًا للعشاء أو مشاهدة الأفلام. ألم تخبريني أنكم منذ بضعة أيام جلستم لمشاهدة فيلم «دي في دي»؟

ـ غريب، أليس كذلك؟

ـ رائع! لا أتخيل فعل ذلك مع بابا و«تشارلين»! لن يكون لدينا شيء نتحدث عنه.

ـ أخبرني شيئًا صريحًا وشخصيًّا.

ـ نعم؟

ـ تعرف، اعتراف من النوع العميق والذي يحمل معنى، مثل اعترافات لعبة الزجاجة.

ـ ماذا تريدين؟ حسنٌ، أَم... أشعر... أنتن أيتها الكتاكيت تروق لكنَّ تلك الكلمة أليس كذلك؟

ـ أكره أن تقول علينا كتاكيت! ما الشيء الذي في جنس الأنثى يجعلها تشبه على نحو مبهم، كرة من الفرو تصوصو وتأكل الديدان؟

ـ باد بويز باد بويز واتشا غونا دو؟ واتشا غونا دو ون ذايْ كَمْ فور يو؟ أغنية رائعة، هاي. شاهدتِ الجزء الثاني من الفيلم؟

ـ الجزء الأول كان ممتازًا. إذن...

ـ حسنٌ، أحيانًا أشعر كأن بابا كان من الممكن أن يغادر هو. هل هذا يرضي فضولك المرضي؟

ـ اسمع، إذا أردنا أن نكون صديقين عليَّ أن أعرف عنك أشياء أخرى غير هوسك بالرياضة والممثلة «أنجلينا جولي».

ـ «أنجلينا»... أهه... لا تتعبي أعصابي!

ـ إذن، لماذا تشعر هكذا بخصوص أبيك؟

ـ همم، لنرَ... لأننا نسير في خطوط متوازية طوال الوقت. تتقاطع خطوطنا بين الحين والآخر. كما يحدث عندما يخرج مستعجلًا إلى العمل وأنا أستعد للمدرسة. أو عندما يؤنبه ضميره ويلقي عليَّ النصائح عندما أدرس.

ـ هل أنت غاضب منه؟

ـ أغلب الأوقات.

ـ هل أنت غاضب منها... أمك؟

ـ دائمًا.

ـ لماذا كنت تغني «باد بويز» (الأولاد السيؤون)؟

ـ لأن الفيلم سيُعرض في الثامنة والنصف الليلة.

ـ تريدنا أن نشاهده ونحن على الهاتف ونحلِّل أذنيْ «ويل سميث» وقدراته في التمثيل؟

ـ الآن هذا نقاش أستطيع الاستمتاع به!

(٢١)

نحن مدعوون الليلة إلى بيت خالي «جو» للعشاء. إنه عيد ميلاد خالتي «ماندي»، ستدخل عامها «الثالث والأربعين»، وعلى الرغم من أنني قمت ببعض العمليات الحسابية لا بد أنها تحلم عندما تعتقد أنها أنجبت «سمانثا» عندما كانت في العشرين. وعندما أذكر ذلك لوالديَّ في السيارة ونحن في الطريق، يخبرانني أن أكف عن الوقاحة، لكنني أضبطهما يختلسان النظر بعضهما إلى بعض وهما يخنقان ضحكهما.

عندما نصل تفتح «سمانثا» الباب الأمامي وتقبِّلنا محيِّية.

تقول مازحة، وهي تنظر إليَّ صعودًا ونزولًا:

ـ تبدين بالهيئة الدينية الكاملة، صحيح؟

إنها المرة الأولى التي آتي فيها إلى بيتهم مرتدية الحجاب «بدوام كامل».

ـ نعم، لأن سترة الجينز وبنطلون ماركة «كارجو» يعدان بمثابة أمور قرآنية فعلًا.

تضربني على كتفي مازحة وتضحك.

يقترب «جورج» مني ويقول عابسًا:

ـ وجهك يبدو أسمن بالحجاب.

توجِّه له «سمانثا» رفسة وتقول:

ـ اخرس، يا أبله!

يُخرج لنا لسانه ثم يفرُّ هاربًا قبل أن نهجم عليه. تهبط خالتي «ماندي» السلم بكعبها العالي، مرتدية بنطالًا قصيرًا ضيقًا، وشعرها المعالج بـ«البيّروكسيد» يعكس الأضواء الكاشفة في السقف. يتبعها خالي «جو»، تتدلى على قميصه سلاسله الذهبية، وخصلات شعر أسود تشق طريقها من بين فراغات أزرار قميصه. يلبس الصندل والجينز. في الخمسين من عمره ويستخدم جل «نيو ويف» أكثر من الشباب في المدرسة.

أقول لخالتي «ماندي» عندما تأتي وتقبّلني محيِّية:

ـ عيد ميلاد سعيد.

تقول:

ـ شكرًا حبيبتي، تبدين «مختلفة» جدًّا وأنت ترتدين ذاك الشيء يا أمل. أكبر بكثير...

أكبت رغبتي في تذكيرها بأنها وُلِدت سمراء، وكاحلاها مكتنزان جدًّا بالنسبة للكعب العالي.

تقول ماما قادمة لإنقاذي:

ـ لا تحبطيها يا «ماندي»! أنا أرى أن أمل تبدو جميلة. لكم أريد أن أحضنها بقوة!

تبتسم خالتي «ماندي» ابتسامة مصطنعة لماما، وتقول بتودد:

ـ أوه! طبعًا هي كذلك، هل ترغبين بخلعه الآن، حبيبتي أمل؟

ـ لا، لا يهم. شعري غير مرتب، إنه يوم الشعر السيئ! سأبقى بالحجاب.

ـ همم، حسنٌ، كما تشائين.

تمسك «سمانثا» ذراعي وتسحبني في اتجاه السلم. لكن خالتي «ماندي» تصرُّ أن ننضم إليهم في غرفة الجلوس؛ لتناول المشروبات قبل تقديم العشاء:

ـ أنتما سيدتان صغيرتان الآن، وينبغي أن تنضما إلى الكبار.

تصدر «سمانثا» صوتًا كمن يحاول التقيؤ، ونجرجر أقدامنا كارهتين خلف أمينا.

غرفة الجلوس مزينة بلعب صغيرة من الصوف، لعب «كوالا» و«كنجر» تلبس تيشيرتات بألوان العلم الأسترالي. هناك على طاولة القهوة مسند يمتلئ بأعواد تنظيف الأسنان، التي تلتصق بنهاياتها أعلام صغيرة. وهناك قواعد للأكواب باللون الأخضر وذهبية مكتوب عليها: «سيدني ٢٠٠٠». لا أجرؤ أبدًا على أن أسأل من أين أتى الكرسي العملاق الذي يحمل صورة لأعضاء المسلسل الأسترالي «داندي كروكودايل» الذي على هيئة التمساح «داندي». لديَّ شك خفي أنه مصنوع باليد. لا أعتقد أن أي سوق حرة ستكون لديها الجرأة لبيع شيء «بيئة» إلى هذا الحد. أما أبشع شيء في الغرفة بلا منازع، فهو المرآة البيضاوية الكبيرة ذات الإطار المعدني أعلى المدفأة، كل سنتيمتر فيها يمتلئ بقطع مغناطيس عليها عبارات إعلانية.

تبدو الغرفة مثل مزار مقدس لأولئك التوَّاقين إلى الجنسية الأسترالية وخلاص الهوية.

بعد وقت قليل من حديث قصير يرنُّ جرس الباب. يفتح خالي «جو» الباب ويدخل رجل يلقي نظرة عجلى على الغرفة مشعًّا ابتسامة ضخمة وصادقة.

يقول خالي «جو» بأُبَّهة:

ـ هذا «ألان»، إنه رئيس القسم.

يقول «ألان» مازحًا بلطف:

ـ نادوني بـ«رئيس جو» فقط.

يقهقه خالي «جو» بصخب، فينظر إليه «ألان» نظرة فيها مسحة من فكاهة، ويبدو واضحًا أنه مدرك أن مزاحه كان سخيفًا وأن خالي «جو» متملِّق كبير.

بمجرد أن أخذ «ألان» مقعده، تبدأ خالتي «ماندي» تخريفها، فتسأله:

ـ هل ترغب في شراب قبل العشاء؟

يقول خالي «جو» وكأنه يجرب لكنة «الأوكر»:

ـ نعم، يا صاحبي، هل تريد بيرة «في بي»؟

يقهقه بصخب، لاطمًا ركبته بيده ويستكمل كلامه قائلًا:

ـ قد تموت إن لم تثمل سريعًا، أليس كذلك يا صاحبي؟

تلتقي نظراتي مع نظرات «سمانثا» ونحاول ألا نتفوَّه بكلمة.

تقول خالتي «ماندي» باندفاع وحماس:

ـ أوه! بالطبع، سأحضر لك بيرة يا «ألان».

ـ لا، شكرًا. هل عندكم مياه غازية؟

يبدو الارتباك على خالي «جو» وخالتي «ماندي». تفلت «سمانثا» ضحكة فتضع يدها فوق فمها بسرعة.

لا شيء غريب بشأن حقيقة أن يجلس «ألان» معنا في جلسة عائلية ولم يلتقِ به أي منّا من قبل. إنه جزء من حملة «جو» و«ماندي» للتباهي بمدى أُستراليتهما.

ذات مرة كان معهم جارهم «تيم»، وهو في الخامسة والأربعين من عمره، ولم يتزوج. لم يكن يساهم في الحديث بأي شيء عدا أنه كان يتمخط بلا توقف بسبب الفلفل في الأكل. وفي المرة التالية كان هناك «ماثيو»، زميل خالي «جو» في العمل، والذي قضى الليلة يتحدث عن الـ«سي دي روم» و«الجافا سكريبت» مع بابا وخالي. وفي مرة أخرى كانت «بني» موجودة، وهي زميلة خالتي «ماندي» في النادي الرياضي، والتي جلست إلى الطاولة تحسب السعرات الحرارية في الأكل، وبدت كأنها ستفقد وعيها عندما بدأ بابا في تقطيع الشحم عن لحم الحمَل المشوي.

في المرات القليلة الأولى افترضنا فقط أن خالي «جو» يريد أن يكون لطيفًا، تعرفون، عندما يعرِّفنا على أصدقائه ومعارفه. ثم بدأ الأمر يتضح برمَّته عندما بدأ، في أثناء إحدى أمسيات العشاء، يهذي عن كيف أن عائلته «متحررة» في الاختلاط بأشخاص «خارج المجموعة العربية».

وكل مرة بعد ذلك يكون الأمر على نفس المنوال.

يقول:

ـ نعيش في أستراليا، ولذلك علينا أن نندمج ونتصرف مثل الأستراليين. كيف سيتقبلوننا، وكيف سننسجم معهم إذا كنا ما زلنا نفكر في فلسطين، ونتحدث العربية؟ التعددية الثقافية نكتة. نحتاج إلى الاندماج أكثر، وتكوين صداقات خارج مجتمعنا. انظر إلى عائلتي، نحن لسنا ملتصقين بِـ«جيتو» فلسطيني أو مصري أو تركي. إننا جزء من المجتمع الأكبر. أصدقاؤنا، زملاؤنا، جميعهم أستراليون عاديون وليسوا «وُجز».

سواء كان «ماثيو»، أو «بني»، أو «تيم»، أو أي أسترالي ينتدبه خالي «جو» ليتفضَّل على رفقتنا بحضوره الرفيع، فإنه يومئ برأسه بلطف.

«سمانثا» وأنا، نقلِّب أنظارنا عادة بعضنا لبعض ونتجاهل الكل. أما بالنسبة إلى والديَّ؟ حسنٌ، على الرغم من الاثنين والخمسين عامًا من الحياة الأسترالية فيما بينهما، إلا أنهما بشكل عام لا يستسيغان مسرحيات الخال «جو»، ويفضلان على الأرجح أن يرقصا الرقص الشرقي في «مول بورك ستريت» مرتديين تنورة بالية وردية، على أن يسعوا إلى الحصول على القبول الأسترالي.

الليلة ليست استثناءً. وبينما نأخذ مقاعدنا إلى مائدة الطعام، تجلب خالتي «ماندي» وماما الصحون. ماما تصوِّب نظراتها نحوي كي أذهب لمساعدتهما، لكنني أتظاهر بعدم ملاحظتها، وأواصل حديث النميمة مع «سمانثا».

عندما يتعلق الأمر بالطبخ، فإن خالتي «ماندي» نجمة. طبخت الليلة مقلوبة: أرز متبَّل، مع قطع من لحم الحمل المنقوعة في الخل، والقرنبيط والباذنجان المقلي. تختلط رائحة التوابل مع رائحة الفطائر المحمصة الساخنة المحشوة بالدجاج المفروم والثوم. إلى جانب المقلوبة هناك صحن ضخم من شرائح البطاطا وصدر الدجاج السابحة في كريما فقاعية ساخنة، تزينها أوراق الطرْخُون وحبات الصنوبر المقلية. وهناك إلى جانب ذلك هرم من الطماطم والقرع الصيفي المحشو بالأرز المطبوخ مع معجون الطماطم واللحم المفروم. الطعام ساخن جدًّا، ورائحته تستفز أنوفنا وبطوننا حتى أحضرت خالتي «ماندي» سلطة خضراء وأصرت على أن نشرع في الأكل.

كل شيء يمضي بسلاسة. بابا وخالي «جو» و«ألان» يتحدثان عن كرة القدم، ربما هذا هو الشيء الوحيد المشترك بين بابا وخالي «جو». خالتي «ماندي» تتحدث عن وصفات طعام مع ماما، وأنا و«سمانثا» نحاول أن نحدد ما إذا كان الممثل «هيو جرانت» ذكيًّا أم مراوغًا.

ولكن فيما بعد، في منتصف العشاء، وبينما كنت آمل أن نكمل الوجبة من دون أن يتم تغذيتنا بمحاضرات عن الهوية والمواطنة، يتناول «ألان» ملعقة من المقلوبة ويأتيني بعدها شعور بالرغبة في الهروب.

يقول مبتسمًا لنا:

ـ أحب الطعام الشرق أوسطي، إنه لذيذ جدًّا، أستطيع العيش عليه! هذه الوجبة رائعة يا «ماندي»، شكرًا جزيلًا.

تقول خالتي «ماندي» وهي تشع ابتهاجًا:

ـ شكرًا لك!

يأخذ «ألان» لقمة أخرى، غير مدرك للصمت الذي يستحوذ على مضيفيه.

يرتشف خالي «جو» رشفة ماء ويصفِّي حلقه.

ـ «ماندي» تحسن طهي جميع أنواع الأكلات، ليس فقط أكلات الشرق الأوسط. تعرف أكلات إسبانية، وصينية، وفرنسية. إنها «ست أسترالية جامدة».

لا يعرف «ألان» ما يفعل بهيجان خالي «جو»، فيبتسم على نحو أخرق:

ـ نعم... متأكد أنها كذلك...

ـ «ماندي»، يا رفيقي، طباخة أسترالية تعرف جميع أنواع الأكلات.

تصيح «سمانثا» مستنكرة:

ـ كُفّ عن الادعاء يا بابا! تتصرَّف مثل الرجل الذي يظهر في برنامج «صائد التماسيح» على قناة «أنيمال بلانت»!

ـ تسمع «ألان»، كيف تتحدث ابنتي مع أبيها العجوز؟ ما من احترام.

يصيح «جورج» مغتبطًا:

ـ بابا يقول عن نفسه عجوزًا!

تقول «سمانثا»:

ـ صفة «عجوز» هي ما نقوله نحن عنك، لا ينبغي أن تقولها أنت! لأنك تهين نفسك.

يبدو الإحراج على خالي «جو» ويدبُّ الاحمرار في عنقه. ينظر نظرة سريعة إلى «ألان»، الذي كان، مشكورًا، كريمًا بما يكفي ليتظاهر بعدم السماع، ورحيمًا ليغير الموضوع بالعودة إلى الرياضة. يتلاشى بابا و«ألان» في عالمهما، بينما يتظاهر خالي «جو» بالانشغال بمهمة ملء كؤوس الجميع.

تهمس لي «سمانثا»:

ـ يا للجحيم، متى سيتغلب على العامية؟

ـ عندما يدرك أن الصندل والقميص السفلي أو الداخلي لن يجعلاه يبدو أكثر أستراليةً.

ـ بكلمة أخرى، مقدر عليَّ أن أسمعه يقول: «يا صاحبي يا صاحبي» طوال حياتي!

ـ صحيح تمامًا يا ست يا أسترالية يا قوية.

ننظر بعضنا إلى بعض، نتأوه وننفجر في القهقهة.

(٢٢)

مساء هذه الجمعة، أنا في بيت ليلى نشاهد فيلمًا كوميديًا لـ«بن ستيلر». نتمدَّد على الأريكة، ونحشو أفواهنا بالشيبسي والشوكولاتة ونضحك على الفيلم. يدخل «حاقان»، ويومئ لي برأسه ويقول لي مرحبًا بصوت كصوت الخنزير.

تسأله ليلى:

ـ متى عدت إلى البيت الليلة الماضية؟

ـ وما شأنكِ أنت؟

ـ استيقظ بابا هذا الصباح ووجد الباب الأمامي مفتوحًا على مصراعيه. لقد قلِق! كان بوسع أي شخص الدخول إلى البيت. وكان من الممكن أن نتعرض للسرقة، أو للهجوم. إننا نسكن على الشارع الرئيس، لأجل الله!

يضحك ضحكة خافتة:

ـ سمعت ذلك أمل؟ لديَّ عائلة غبية مصابة بـ«البارانويا». بدؤوا يهلوسون عن اللصوص لأن الباب تُرِك مفتوحًا. إن «الوجز» ملاعين يفكرون بغباء.

أتجاهله، غير راغبة بالتدخل، وأتظاهر بمشاهدة الفيلم بينما يتجادلان أمامي.

ـ لماذا لا تتوقفين عن محاولة التباهي أمام صديقتك؟ وتحاولين أن تظهري أمامها كالملكة كيلوفاترا.

تقول ليلى، مقلبة ناظريها:

ـ اسمها كليوباترا. يا إلهي! ألم تقرأ كتابًا في حياتك!

أعدِّل من جلستي على الأريكة، وأبدأ بعضِّ أظافري. غدا الأمر غير مريح بالفعل.

ـ إذن، أظن أنهما لم يوبخاك بسبب ذلك بعد؟ أنت في ورطة كبيرة. سيعرِّفك بابا وماما مقامك! يا لك من كذَّاب!

ـ انتبهي إلى كلامك، تفهمين؟

ـ أوه! ليلى غاضبة! ماذا ستفعل؟ تركض إلى مامي؟ تتودد إلى بابي؟ ماذا سيفعلان؟ يوبخانني؟ هه! وكأنهما سيفعلان! أنت غبية. سأقول وأفعل ما أريد ولن يوقفني أحد؟!

يندفع خارجًا من الغرفة، وتحدِّق ليلى في طاولة القهوة، نفسها ثقيل وغاضب:

ـ آسفة أنه كان عليك أن تري ذلك!

ـ لا تكوني حمقاء. إنها أنا، وليس شخص غريب، العراكات العائلية أمر عادي.

ـ أقسم لكِ أمل إنني أكرهه! كيف لأخت أن تكره أخاها؟ إنه أخي الشقيق، ولكن، إذا ترك البيت الآن لن أشعر بذرة حزن واحدة عليه.

ـ لا تقسي على نفسك بسببه. إنه يستعرض فقط. يحاول أن يرينا عضلاته وغروره.

ـ لكن ما قاله كان صحيحًا تمامًا، ربما لن يوبخه بابا وماما؛ فماما تخافه خوفًا تبجيليًّا تقريبًا، فهو طفلها الأول وابنها الذكر الوحيد. أعلم أنها تبكي بسبب ما يفعل، وسمعتها هي وبابا يتحدثان عن كيفية السيطرة عليه، وسحبه إلى الطريق الصحيح، لكنهما لا يفعلان شيئًا حيال ذلك.

ـ وماذا عن أبيكِ؟

ـ أحيانًا يغضب من «حاقان». مثلًا عندما يعود «حاقان» إلى البيت متأخرًا جدًّا، أو عندما يكون سكرانًا تمامًا ويعاني من آثار ما بعد الشُّرب. عندما يكون كذلك يأمره بابا بالخروج من البيت، ثم يندفع «حاقان» خارجًا ويصرخ أنه سيغادر البيت للأبد، فتنهار ماما وتتعارك مع بابا لأنها ستفقد ابنها وإلخ إلخ إلخ. ولذلك يسأم بابا وتصير ماما هيستيرية لأن «حاقان» قد لا يعود. ولذلك أصبح الآن يتجنَّب اتخاذ ردة فعل لأجل ماما. وإذا غادر «حاقان»، فإن ماما لن تسامح بابا أبدًا، وبابا مرتبط كثيرًا بماما ولا يريد أن يغضبها بهذا الشكل. الأمر برمته فوضى عارمة... دعينا لا نتحدث عنه وحسب!

تدنو مني وتريح رأسها على كتفي.

ـ أمل!

ـ نعم!

ـ هلا أعدت تشغيل الفيلم من البداية؟ فاتني كله ولا أكاد أتذكر ما شاهدته!

أعيد تشغيل الفيلم ونشاهد الكوميديا بصمت.

(٢٣)

ليلة السبت أبقى مستيقظة إلى وقت متأخر وأشاهد فيلم «إرين بروكوفيتش» في التلفزيون. تجعلني مشاهدة هذا الفيلم عاطفية ومقبلة على فعل الخير، ولذلك أُعلم ماما صباح الأحد برغبتي في زيارة السيدة «فاسِلي»، فتكاد تختنق وهي تتناول إفطارها:

ـ هل رأت ابنتي النور؟ أيمكن أن يكون هذا حقيقي؟

ـ ماماا، لا تكبِّري الموضوع. هل عندنا شيء آخذه إليها؟

ـ هل ترغبين في تحضير شيء لهَا؟

لست في مزاج يجعلني أهتم بمثل هذه الشؤون المنزلية، لكنها تبدو متحمسة جدًّا ومبتسمة فأقول نعم. وبعد خمس عشرة دقيقة نبدأ في تحضير الطحين والزبدة، ونصنع لفائف من البسكويت المحشو بالتمر الطازج والقرفة.

يستغرق ذلك منَّا ساعتين. وعندما يبرد نضعه في طبق كبير ثم تسلِّمه ماما لي وتبتسم لي بابتهاج:

ـ أنا فخورة بك يا أمل!

ـ ماما! كفِّي عن التصرف وكأنني تحولت إلى الأم «تيريزا»!

أتمكَّن من التخلص من خُطبة ماما بشأن أن الله سوف يكافئني على عطفي على كبار السن، وأذهب وأقرع باب بيت السيدة «فاسِلي» الأمامي، وأنا أشعر بالتوتر على نحو أحمق. تستغرق بضع دقائق حتى تفتح الباب بمقدار ضئيل وتخرج رأسها.

ـ مرحبًا سيدة «فاسِلي». أ... فكرت أن آتي لزيارتك. صنعت أنا وماما لكِ بسكويتًا طازجًا.

أرفع الطبق لتراه، بينما تحدق فيَّ بارتياب. لقد مضى عام على سَكننا بجوارها وهي لا تزال تنظر إليَّ وكأن هناك سجل تُهَم بضرب ومهاجمة العجائز معلق في رقبتي!

ـ زيارة؟

ـ إحم... نعم.

ألمح حواف شال يلتف حول كتفيها، وأتعرف عليه على الفور، إنه الشال الذي أهدته ماما لها. أحاولِ ألا أبتسم وهي تنظر إليَّ، مخبِّئةً نفسها خلف الباب.

ـ دقيقة.

تغلق الباب وتعود بعد وقت قصير، تاركة إياي لأتبعها في المدخل، اختفى الشال طبعًا الآن.. وبينما أدخل بيتها، آخذ نظرة أقرب لما حولي. لا أدري لماذا توقعت أن تفوح من المنزل رائحة العفن والرطوبة، مثلما نقرأ دائمًا في الكتب. العجائز الضئيلات المسكينات في بيوت بالية رطبة، تملؤها كرات العث والصور المغبرة. لكن بيتها تفوح منه رائحة بودرة التلك المعطِّرة

وبسكويت الجبن. وبينما أعبر الرواق، أنظر بفضول حواليَّ، فألمح شُرَّابة زرقاء تتدلى من خزانة عند المدخل، وأعضُّ شفتي لأمنع نفسي من قول شيء.

تجلس على كرسيها الهزاز وأضع البسكويت على مقعد المطبخ.

أقول مواجهة إياها:

ـ إذن، هل ترغبين بتذوقه؟

ـ همم... أظن أنك تريد شاي أيضًا؟ لم تشرب شاي في بيتكم؟ وتأتي تزعجيني؟

أبتسم لها بسذاجة وأومئ برأسي. ترسم إشارة الصليب وتهزُّ رأسها:

ـ هل أبدو مثل سوبر ماركت؟ تريذي شاي وتأتي لتنهي ما عندي؟!

أتجاهلها لأنني أستطيع أن ألمح ارتعاشة عند زاوية فمها، وحاجبها بدأ يتراخى.

تقول بفظاظة:

ـ هسنٌ؟ مازا تنتظري؟ لا تتظاهري أنك لا تعرفي أين توجد الأشياء.

أقفز من على الكرسي، وأثرثر بينما أعدُّ الشاي وأخرج البسكويت.

ـ الآن فقط سَنعت بسكويت الجبن.

ـ حقًّا؟ لذييذ. أنا أحب بسكويت الجبن.

ـ أكيد تهبيه. أنت تهب كل شيء مجاني.. تجديه في الخزانة في سندوك. يمكنك تذوُّق واهدة إزا تريدي.

أبتسم لها وتنظر إليَّ، ولكنها لا تعبس أو تقطب حاجبيها، وذلك يشعرني

بالارتياح. أخرج الكعك وآخذ كرسيًّا وأجلس لأحدثها عن المدرسة وآدم و«تيا» و«سيمون» و«إيلين». لا تقول كثيرًا، تنصت فقط، وتومئ برأسها عندما تظن أنني لا أراها. الوضع مريح بشكل غريب. لذلك أخبرها بكل شيء.

وهذه المرة لا تخاطبني بفظاظة. يداها المتغضنتان تلتفان حول كوبها، وكسرات من ثلاث بسكويتات تتناثر فوق ثوبها بينما تهز كرسيها إلى الخلف وإلى الأمام، مولية إياي انتباهها الكامل.

ـ هزا الولد آدم، ولد جيد؟

ـ هه؟

ـ أنت غبية جدًّا. ربما هجابك مشدود جدًّا ويهرس مُخكِ. قد يكون هو مُعجب بكِ.

أحس بخديَّ يشتعلان، جسدي مزعج جدًّا. ستظنون أن تعايشه معي ستة عشر عامًا سيدين لي ببعض الوفاء.

ـ وجهك أهمر. يعجبك وتعجبينه؟

أسعل:

ـ نعم صحيح!

ـ نعم؟

ـ مممم... نحن صديقان وحسب.

ـ هراء! لا شيء من هزا. ولد وبنت. أسدقاء. الولد يفكِّر في شيء واحد فقط.

أهزُّ رأسي وأضحك عليها.

ـ أنت دائمًا تضهَكين. تضهَكي على كل شيء. همْقاء... هزا بسكويت... هو... هَسنٌ. أمُّك سنعته؟

ـ أنا ساعدتها.

ـ هه! إزن تعرفين الطبخ؟

ـ ليس تمامًا. الأشياء الأساسية فقط.

ـ يعملون على أن تكوني زوجة جيدة هتى تتزوجي وتنجبي أطفالًا؟

ـ لا! ما زلت في السادسة عشرة! سيعدمني والداي بمجرد ذكري للزواج الآن!

تتكئ على كرسيها وتحدق في السقف.

ـ تعرفي، أنا تزوجت في الرابعة عشرة.

ـ ماذا؟ الرابعة عشرة؟

ـ نعم، ولكننا لم نكن زوجًا وزوجة فعلًا.. هتى سار عمري ستة عشر. تفهمي؟

ـ واو! كم كان عمر زوجك عندما تزوجتما؟

ـ ستة وعشرين. كنا أبناء عم. كنت أسكن في قرية في أثينا، وهو يسكن في قرية مجاورة. جاء إلى بيتنا وطلب من بابا أن نتزوج. كنت أزهب إلى المدرسة في زلك الوقت. جاءني بابا وقال: تريدي تتزوجي؟ وقلت نعم لأني كنت أريد أن أضع مكياج وألبس كعب عالي.

ـ لهذا السبب وافقت؟

ـ كنت أريد أن أكون كبيرة، مثل امرأة. تفهمي؟

ـ أظن.

ـ وكانت ماما تتعارك معي ومع بابا وتقول إني سغيرة جدًّا. لأنني إزا زهبت لن تجد أهدًا تتكلم معه عندما تكون في البيت. لم يكن عندي أخ، وأختي ماتت عندما كان عمرها سنتين.

ـ إذن متى أتيت إلى أستراليا؟ بعد الزواج مباشرة؟

ـ نعم، تزوجتْ وزهبتْ إلى ما يسمونه بلد الحظ. بكيت وبكيت عندما ودَّعت والديَّ وسديقتي. كنت لا أريد الزواج وأريد أن أرجع إلى بلادي، ولكن زوجي كان طيبًا معي. دائمًا طيب معي. كنت، كيف أقول، أُرجِّع طوال الرِهلة على السفينة. أول مرة أسافر فوق الماء. وَسَلْت «ملبرن». رأيت سماء سوداء وهزينة. وكان الناس ينظرون إليَّ وإلى زوجي ويبتسمون، ولكن ابتسامة سيئة وليست جيدة. تفهمي؟

ـ نعم، أفهم!

ـ لا نتكلم مع أهد. لا نتكلم الإنجليزية. كنا نستخدم اليد كي نتكلم فيضهكوا علينا. في اليونان، كنا نتكلم ونتعانق. نعرف كل أهد. هنا، لا نعرف شيئًا، ولا أهدًا. عندما وسلْنا سَكنَّا في بيت سغير، وعمل زوجي في مسْنَع. كان يعمل ويعمل ويعمل. أنا في البيت وهدِي طوال اليوم. لا أتكلم الإنجليزية ولا أتكلم مع الناس. فقط في البيت أنظِّف وأطبخ. لا أسدِقاء، ولا عائلة. أبكي كل الوقت: عندما أطبخ أبكي، وعندما أغسل أبكي، وعندما يزهب هو إلى العمل أبكي، وعندما يعود أبكي. وجاء إلى البيت وأخبرني أنه لا يريدني أن أطبخ له غداء لأنهم يسخرون منه. كان يريد خبزًا أبيض، يقولون خبزًا مهمَّسًا. خبز غبي جدًّا. لا طعم ولا شكل. هو يريد خبزًا مهمّسًا مع فيجـ... فيجـ...

ـ «فيجميت»؟

ـ نعم!

ترسم علامة الصليب.

ـ أوف! كأنك تأكلي مله.

أضحك، وهذه هي المرة الأولى التي تضحك فيها معي. عيناها ترقصان محقِّقة ظهورًا أول لها على مسرح التجعيدات المحيطة بها، وصدرها الثقيل يعلو ويهبط.

ـ كنت أبكي طوال الليل، لأن كل ما أعرف أن أطبخ له هو غداء يوناني جيد. هكزا كنت. وكان يأخز الغداء، وكنت أهسّ... أهسّ لا شيء لأيام. كل ما أفعله أن أُصلِّي لِلمَسيه أن يجعل هياتي سهلة. ثمّ بدأت أسنع له خبزًا أبيض وزلك «الفيجميت»، وصرت أكره أستراليا والناس البيض، وأكلهم الغبي، وكنت أريد اليونان ووالديّ!

أسألها:

ـ ماذا عن الأطفال؟

ترسم علامة الصليب مرة أخرى:

ـ تسألي أسئلة طوال الوقت!

تعبس في وجهي، ولكن فترة وجيزة، وواضح جدًّا أنه عبوس متكلَّف، حتى إنني أبتسم لها ابتسامة عريضة.

ـ أطفالي ماتوا في بَطني!

ـ تعرضتِ للإجهاض؟

ـ نعم، زوجي، تعرفي، مَلَّ من المسنع. لزلك فكرنا لِمَ لا نفْتَه مَهلّ ونبيع السمك والبطاطس.

أضحك بخفوت وتنظر إليَّ بارتياب:

ـ ما المُضهك؟

ـ أوه! لا شيء. فقط تذكرت عندما كان الأطفال في المدرسة يكتشفون أنني عربية، يفترضون أن والديَّ يمتلكان كشكًا لبيع الصحف أو محل «سفن إلفن».

ـ أعرف يونانيين كثيرين يملكون مَهلًّا للسمك والبطاطس. نهن نسنع أفضل «فيش آند تشيب». لم يكن هناك «ماكدونالدز» وأكل السريع. كنت أعمل مع زوجي في المهلّ طوال اليوم. لم يكن معنا ناس يساعدوننا. نهْنُ نفتَه المهلّ، ونهْن نقطع البطاطا، ونهن نطبخ، ونهن ننظّف، نعمل كل شيء كل يوم. ثم أزهب إلى البيت وأنظّف. نعمل سبعة أيام في الأسبوع. يوم الأهد نغلِق المهلّ، ولكن زوجي عنده أعمال مكتبية خاسة بالمهل. إِزَن سرتُ هامِل وأعمل. وكنت أكتب رسائل لماما في اليونان وهي تكتب لي، ولكن الرسائل تأخد وقتًا طويلًا هتى تسِل. وكانت تقول لي أن أَسْترِيه، ولكنني أعمل لأننا لا نستطيع أن ندفع للعمَّال ليساعدونا، وليس عندي عائلة تساعدني. زوجي كان طيِّب. هو عصبي لكنه يعتني بي. ولكن مازا نفعل؟ كان يجب أن نعمل. وفي أهد الأيام كنت أقلي بطاطس لزبون في المهلّ، وشعرت أني أريد الزهاب إلى الهمَّام. تفهمي؟

ـ نعم، سيدة «فاسِلي».

ـ كان هناك ناس كثيرين في المهل. مشغولين. ثم جاء رجل. كيف أقول؟ يُفتـ... يُفت... يفتِّش المهل؟

ـ مفتش صحة؟

ـ نعم، هو! وكان زوجي متوتر، كان خائف أن يغلقوا المهل، لأنه كان سعبًا، كيف أقول، التواسُل مع الناس. تعرفي ما أقسِد؟ سعب التهدُّث مع الناس لأننا لا نتكلم الإنجليزية السهيهة. وهو قلِق أن يقول شيئًا ولا يفهمه الرجل فيغلق المهل. وتكلّم الرجل بِقسوة مع زوجي. إنه مثل... مثل ورق السنفرة، تفهمي؟ كلماته كانت خشنة مثل ورق السنفرة على زوجي. لزلك زهبت إلى الهمَّام بِسُرعة لأنني شعرت أنني قد أفعلها بالسُّدفة، فزهبت، و...، أمل، رأيت دمّا في الهمّام وفي ملابسي الداخلية! كان سيئًا، وأردت أن أسرُخ لأني أريد ماما. كان عمري تسعة عشرة وأعرف أنه لا يوجد دم في الهمْل. تفهمي قسدي؟

أومئ برأسي باهتياج، وعيناي مثبتة عليها.

ـ وأمل، تعرفي مازا فكرت؟ فكرت إزا زهبت إلى الداخل وأخبرت زوجي قد يسرُخ وسيغلِق الرجل المَهلّ معتقدًا أننا ناس مجانين... لم أخبره!

عيناها مفتوحتان برعب وهي تغرق في ذكرياتها.

ـ انتظرت حتى أخبره! وكنت أمْسَه وجهي لأني لم أتوقّف عن البكاء. وزهبت أقلي بطاطس، أمل! طفلي يموت وأنا أقلي بطاطس! وكان زوجي خائف جدًّا عندما كان يكلّمه الرجل وقلت أيُّها المَسِيه ساعدنا أيُّها المَسِيه. امنهْني القوة أيُّها المَسيه!

عيناي تدمعان وأنا أصغي إليها، ويداي تشتبكان بقوة بعضهما مع بعض.

ـ عندما أغلقنا المهلّ أخبرته. كان جالسًا يشرب الشاي بعد انتهائنا من التنظيف. وكان متعب وقلق. وأخبرته ورمى بِالكُوب بقوة على الجدار وسَرخ

وسَاه. كنت خائفة، لكنه لم يسرُخ فِيَّ. كان يسرخ بسبب هزِه البلاد، وكان يسرخ بسبب الوهدة، ولا توجد عائلة، وأنا من دون ماما وأبكي، وأخَزَني بسرعة إلى المستشفى، وشعرت كأني أزهب إلى جنازة وليس مستشفى لأنهم أخبروني أن طفلي مات وأني سأموت معه!

نجلس في صمت فترة. ثم تطلق تنهيدة وتغلق عينيها وتستند مجددًا على كرسيها. ثم تواصل وعيناها مغلقتان:

ـ مات لي ثلاثة أطفال. كل مرة أُهس أني لست امرأة. كان زوجي يريد طفلًا بشدة. وأنا أريد طفلًا بشدة، لكننا لم نكن نفهم شيئًا. كنت ما زلت أعمل وأخبرني الدكتور أن هناك خطأ فِيَّ. ولزلك لم يكن عندنا أطفال لسنوات.

ـ ولكن عندك ابن، أليس كذلك؟

تظلم عيناها، وتجلس مستقيمة فجأة، ضاربة بكوبها على الطاولة.

ـ لا يخُصُّك!

تقول ذلك بحدة، مثبتة عينيها على الأرض. لا أقول شيئًا وأجلس هادئة منتظرة إياها أن تقول شيئًا، لكنها لا تفعل. يبدو كأنها نسيت وجودي.

أغامر قائلة بتوتر:

ـ سيدة «فاسِلي»! هل أنت بخير؟

يا له من سؤال غبي!

لا تُجيب. ولذلك أنهض، وأبعد الصحون، وأمسح المقعد، وألفُّ البسكويت في ورق حفظ الطعام، وأعدل الكرسي خلف الطاولة.

ـ كان جميلًا تناول الشاي معك سيدة «فاسِلي». شكرًا على البسكويت.

ـ ازهبي إلى الخزانة في الرواق.

ما زالت تنظر إلى الأرض.

أنظر إليها مندهشة:

ـ أوه! حسنٌ. بالتأكيد. ماذا تريدين؟

ـ سجائري.

أنا على وشك أن أرقص رقصًا شرقيًّا فوق الطاولة:

ـ هه؟

ـ الدُّرج الأيمن. منفضة السجائر بقربه.

بعد خمس دقائق تشعل السيدة «فاسِلي» سيجارة «المارلبورو» فتختفي في غمامة من دخان النيكوتين.

وعندما تصل إلى سيجارتها الثانية، لا أستطيع تمالك نفسي. طقم الشاي الصيني، ساندويتشات «الفيجميت»، والعجوز الوحيدة، لديَّ مواضيع لأناقشها معها.

أقول غاضبة:

ـ تدخنين! بعد أن وبختني بخصوص علبة السجائر؟!

لا تأبه حتى برفع عينيها نحوي.

ـ أنا أرمي سجائري في سُندوك القمامة. وأنت ترميها على هديقتي.

ـ أنا لا أدخِّن!

ـ إِزَن أنت بنت جيدة، التدخين يجعل البنت مثل فتاة الشوارع. ليس جيد!

أقرأ آية كاملة من القرآن في عقلي لأمنع نفسي من رمي علبة سجائرها عبر الغرفة.

ـ إذن لماذا لم تدخني المرة الماضية؟ لماذا أخفيتها؟

ـ لأن...

مكتبة أحمد

ـ لأن ماذا؟

أقف ويدي فوق وركيَّ بتحدٍّ. تتجنَّب تحديقي، وتضع سيجارتها على المنفضة وتتنهَّد بشكل غير مريح.

ـ أنا... لا... لا أريد أن تقول أمك إنني امرأة سيئة. وبعد زلك.. بعد زلك لا تَسْمَه لكِ بالمجيء.

تنظر إليَّ أخيرًا. لم ألاحظ قطُّ أن في عينيها خليطًا من الرمادي والبندقي. أو أن التجعيدات على ما تبدو مثل خريطة مشوشة لدليل شارع، وطرقات وجادات تتقاطع بأشكال غريبة. أتساءل أي خط يمثل حبها، وأيها يمثل أفراحها، وضحكها، وحميميتها، وأحزانها؟ كيف يبدو الأمر أن تفقد أطفالها وهي وحيدة؟ كيف يبدو، أتساءل، أن تكوني فوق السبعين سنة وتدفني الرجل الذي تستيقظين بجواره تقريبًا كل صباح في حياتك؟

(٢٤)

أذهب الشهر التالي للتزلج على الزلاجة في شاطئ «سانت كيلدا» مع آدم و«جوش» و«إيلين» و«سيمون»، يوم السبت. إنه أكتوبر والطقس دافئ، وبمقدورنا القيام بأشياء كثيرة في الخارج معًا. يوافق بابا على توصيلي أمام «لونا بارك». تطلَّب إملاء قواعده الذهبية لزيارة «سانت كيلدا» طوال طريق «بنت رود».

في البداية يحذِّرني من استخدام الحمامات في مطعم «ماكدونالدز». ثم يحذِّرني من الاقتراب من الحقن، والتي لا بد أنه يعتقد أنها تسليتي في عطلة نهاية الأسبوع. بعد ذلك يحذرني من شرب أي شيء عدا الماء المعبأ في زجاجات محكمة الغلق، وعليَّ أن أتجنب انتظار أصدقائي عند ناصية الشارع أو الحواجز الحجرية، وعليَّ أن أتأكد من اتباع قواعد مرور المشاة واستخدام الزلاجة في الجانب الأيمن من الشارع. هناك أيضًا بعض النصائح بشأن التحدث إلى الغرباء، والانتباه إلى الأشياء الغريبة إذا ما قررنا الجلوس على الرمل، وإلى لعاب الكلاب لئلا يسيل علينا. وحتى لحظة وصولنا إلى «لونا بارك» أتوسل إليه أن يهدأ، فيتنهد منهكًا، وأتقبَّل محاضرة «مَنْ الأكبر والأدرى».

أول شيء نفعله عندما أنضم إلى الآخرين، هو الجدل بشأن من سيفوز بكأس العالم لكرة القدم بينما نتناول القهوة وكعكة «إيكلير» بالشوكولاتة في محل كعك في «أكلاند ستريت». ثم نقرِّر المشي حتى متنزَّه «سانت كيلدا» ونتزلج لمدة ساعة لنحرق السعرات الحرارية. نمرُّ في طريقنا عبر الحديقة أمام «لونا بارك».

يسأل «جوش» بابتسامة ماكرة:

ـ مَن له رغبة بركوب لعبة الأفعوانية؟

أتبادل النظرات مع «إيلين» و«سيمون» وعيوننا تومض من الإثارة. ولم يمضِ كثير من الوقت إلا وكنا واقفين في طابور.. ننتظر.

يسألنا آدم:

ـ الصف الأمامي أو الخلفي؟

تقول «سيمون»:

ـ الأمامي مخيف أكثر؛ لأنه يمكِّنك من رؤية المنحدرات.

أصيح:

ـ لا! الخلفي أفضل، به مطبات أكثر. ترتفع العربة أعلى فوق جميع الانحناءات والمنخفضات.

نقرِّر الجلوس في الخلف في العربة الأخيرة. تتقدَّم «إيلين» للجلوس إلى جانبي، تاركة المكان جوار «سيمون» متاحًا ليجلس «جوش» إلى جانبها. تركب «سيمون» ويتبعها «جوش» بسرعة. يجلس آدم ورائي أنا و«إيلين»، داسًّا رأسه بيننا محاولًا إخافتنا قبل أن تبدأ اللعبة.

ـ هل سمعتما كيف خرجت هذه اللعبة عن مسارها منذ ثلاث سنوات وسقط الناس منها، وبعد ذلك أغلقوها؟ تناثرت الأحشاء والأمعاء في كل مكان.

أقول:

ـ أوه! إننا نرتجف من الرعب!

ـ أنتن يا كتاكيت ستصرخن عند الثانية التي تبدأ فيها اللعبة.

نستدير ونضربه.

يقفز إلى اللعبة شاب يُدعى «جاري»، ويتخذ مكانه في العربة الوسطى، يمسك بأجهزة التحكم.

يقول مبتسمًا لنا:

ـ مرحبًا شباب، مستعدون للمرح؟

نصيح:

ـ نعم!

نبدو كأننا في سن العاشرة.

ـ خائفون؟

ـ لا!

تبدأ اللعبة. واضح أن «جاري» ندم عندما سمح لنا أن نكون على متن اللعبة؛ لأن «سيمون» و«إيلين» وأنا نفجِّر طبلة أذن كل شخص بالعمل الذي تؤديه حناجرنا! أتمكَّن من سماع آدم يصرخ:

ـ كتاكيت نموذجية!

حتى ونحن في لعبة في مدينة الملاهي لا نفوِّت أنا و«إيلين» فرصة الدفاع عن الفرص المتساوية والصراخ فيه بأن يخرس هو وتعصُّبه الذكوري، لكننا في الواقع لا نتمكن من إيصال نظريتنا بفعالية؛ لأننا نزوم صعودًا ونزولًا بسرعة تجعلنا نتمنى لو كنا لبسنا حمالات صدر رياضية وملأنا شعورنا بالجل، أو في حالتي لكنت ثبتُّ حجابي بدبابيس أكثر.

عندما تنتهي اللعبة، ننزل مترنحين، قابضين على بطوننا ونادمين على تناول «الإيكلير» بالشوكولاتة.

يصيح آدم:

ـ أنتن البنات جبانات!

يقول «جوش»:

ـ أنتن الثلاث أصبتموني بالطنين!

تطرف له «سيمون» بعينها:

ـ مَن نحن؟ لا! كنا نمرِّن حبالنا الصوتية فقط. على كل حال، على ذكر كوننا خائفين، لاحظت أنك كنت تضغط بقدميك على الأرض بقوة بعض الشيء عندما كنا نتحرك نزولًا في اللعبة. كانت قدماك تسبب لك الحكة، أليس كذلك؟

تبتسم له بغزل، ويبادلها الابتسام. لو كانا في مسرحية موسيقية لاندفعا في تقديم أغنية ورقصة سخيفتين الآن.

بعد ذلك يتوجه الشباب إلى الحمام، فنجدها أنا و«إيلين» فرصة لتبادل جلسة استخلاصية سريعة مع «سيمون»:

ـ هل كان هناك حديث؟

ـ وكأننا استطعنا فعلًا التحدث ونحن في اللعبة، لكنه قال شيئًا واحدًا. بينما كنا نهم بالخروج من اللعبة نظر إليَّ وقال: شعرك مرتب على نحو جميل، حتى إنه لم يتشعث. هل تعتقدان أن ذلك يعني شيئًا؟

تصيح «إيلين» بسعادة:

ـ إنه مُعجب بشعرك!

ـ هذا الشاب يرمي لك تلميحات يا «سيمون»! أولًا: بذل جهده ليجلس بقربك؛ رأيتُه يتقدم «إيلين» وحتى قبل أن أتقدم أنا، إشارة كبيرة بلا ريب. ثانيًا: غمز لكِ! النظر المباشر في العين أمر يسجل نقاطًا دائمًا في المجلات. ثالثًا: قال لك إطراءً! منذ متى يلاحظ الشباب شعورنا إلا إذا كان هناك دافع خفي؟

ـ هذا ليس حقيقيًّا! لن أستطيع النوم الليلة! إنهما عائدان. بسرعة! لنغيِّر الموضوع...

نقضي نهارًا رائعًا. نمشي حتى نهاية الرصيف الممتد في البحر ونجلس على الصخور، تاركين الأمواج ترشنا ونحن نلعب لعبة «حقيقة أم تحدٍّ»، عدا أنه ليست هناك تحديات كثيرة لأننا عالقون فوق الصخور، لذلك نواصل استجواب بعضنا بعضًا عمن نُعجب بهم، وعن أعدائنا، ومعلمينا المفضلين، وعن أسوأ عبارات الغزل. نتزلج على طريق الدراجات، مذلين أنفسنا بالتساقط بعضنا فوق بعض مرات كثيرة، أكثر من أن نعدها. نأكل جيلاتي بالبندق، ويجري وراءنا راعي غنم ألماني، ولا نتوقف عن الضحك. الأمر أشبه بتلك المشاهد من أفلام هوليوود السعيدة، حيث الكل سعيد، وما من شعر أحد يتجعَّد بسبب الريح،

وحيث لا تمطر، ويبقى حذاؤك مريحًا طوال اليوم، وتصبح كل النكات التي يلقيها الجميع مضحكة.

* * *

في نهار الأحد أمارس رياضة الهرولة حول البناية، وأعود وأنا ممتلئة بالطاقة فعلًا. أشعر بالراحة إلى حد أنني أقرِّر زيارة السيدة «فاسِلي»؛ لأنني لم أرها منذ بضعة أسابيع.

أصل وتجلس هي على كرسيها الهزَّاز تنفث دخانها. لأنه لا يوجد أحد سواي والسيدة «فاسِلي»، أخلع حجابي وأجلس. تنظر إليَّ وترسم إشارة الصليب:

ـ أنت بنت غبية تُخبِّئي شعرك الجميل!

أقول بسخرية:

ـ شكرًا.

لكنها تتوقف بعد ذلك وتقول شيئًا أثَّر فيَّ بحقٍّ:

ـ لكنه اختيارك في النهاية إزن. أوه! هسنٌ. لا أهد يقول لأهد ما يفعل عندما يتعلَّق أمر بالله. ربما لن تهسُلي على الخلاس، لكنك تضهكين كثيرًا، قد يسمَه لكِ المَسيه بالدخول.

تقول ذلك بمهابة كبيرة، وبصدق كبير، وهي تنفث الدخان وتحدِّق في السقف، حتى إنه تلحُّ عليَّ تلك الرغبة لمعانقتها. نتكلم عن أشياء عامة. وتظل تتجنب ذكر أبنائها، ولذلك أذكر أنا الموضوع؛ لأنني لست على وشك التظاهر بأنني لست فضولية:

ـ سيدة «فاسِلي»، ألا... ذكرت ماما مرة أن لديك ابنًا؟

تسعل، وتتناثر ذرات سيجارتها، وتأخذ شربة ماء سريعة. تعاملني بمعاملتها الصامتة مجددًا، ولكن صمتها هذه المرة يستمر عشر دقائق.

ـ لا يخُصُّك... ولكنك... تزعجيني بسؤالك طوال الوقت... هه! ابني تزوج واهدة من «شهود يهوه» مُنزُ عشر سنوات. تَهَوَّل عن دينه. لا أتكلّم معه مُنزُ زلك اليوم!

تزمُّ شفتيها وكأنها تغلق الموضوع.

أشعر كأن محمد علي لكمني على صدري. كنت أتوقع موتًا أو اختطافًا أو هجرًا، أو شيئًا لا يمكنها التحكم فيه وخارج إرادتها تمامًا. لم أتوقع قطُّ، ولو خلال تريليون سنة أنها قطعت صلتها عمدًا بابنها الوحيد.

ـ أين يسكن؟

ـ في «تازمانيا».

ـ لكن، لكن... أنت وحيدة سيدة «فاسِلي»! لِمَ لا تتحدثين إليه؟ إنه ابنك الوحيد! لا أحد آخر لديك!

تصيح، بصوت مرير:

ـ أمل! لا يخُصُّك، أقول لك. أنت لا تفهمي. كَسَر قلبي! كسر قلبي! هرب مع تلك البنت وتَهوَّل عن دينه! أنت وُلدت مسلمة، ليس خطؤك في الهقيقة. كيف ستعرفين أفضل مني؟ لكن هو؟ بعد كل ما فعلته له، جرهَ قلب أبيه. أعطيناه هياتنا. كل يوم كان زوجي يعمل ويعطيه نقودًا للمدرسة والملابس والأكل، ونعطيه كل شيء. وهو أعطانا سدمة. اقترهنا عليه بنتًا يونانية جميلة وتزوجها وطلَّقها بعد خمس عشرة سنة.

لا أطفال، لم تنجب أطفالًا. سبَّب مشكلة. قلت له اسْبِر، تعب. يكتب عيسى طريقًا لا نعرفه.

صوتها ناعم الآن. تمسك سيجارتها ويحترق عقِبها حتى يتناثر رمادها فوق الطاولة، لكنها لا تلاحظ.

ـ لا أعرف ما هَسل. لم يخبرني. في دقيقة كانوا هنا للعشاء ويضهكوا ويمزهوا. في الدقيقة التالية تطلَّقوا ولم نرها مرة أخرى أبدًا!

أميل ناحيتها ناظرة في عينيها:

ـ هل تشتاقين إليه؟

تبادلني النظر بحزن:

ـ نعم!

ـ إذن، ألا تستطيعين أن تغفري له؟

تهزُّ رأسها وتطفئ سيجارتها ببطء:

ـ ترين هزا الرماد أمل؟ السيجارة تهترِق، والرماد يسقط، بعض الأجزاء تجفّ وتسقط، تختفي إلى أجزاء أسغر وتتلاشى، وكي تجمعيها كلها مرة أخرى تهتاجي أن تبهثي عن كل جزء وتضعيها مع بعضها مرة أخرى، نعم!

تنظر إليَّ نظرة جانبية:

ـ أجزاء كثيرة، أمل. زهبت، اختفت، تلاشت. هكزا، أمل. لا أعرف كيف أجمعها كلها مرة أخرى!

* * *

في المساء أعدُّ واجباتي المدرسية على سريري عندما تصلني رسالة من آدم: «ما رأيك في «سيمون» و«جوش» كرفيقين؟».

أقفز من على السرير في هجوم مذعور متحمس؛ لأن مثل هذا الشأن لا يمكن أن يتضمن استجابة منفردة؛ إنه يتطلب إستراتيجية مفكَّرٌ فيها جيدًا، ومساهمة خارجية وجلسة استخلاصية ضخمة مع صديقة. سيكون فعلًا مجرمًا ضد «سيمون» أن أرد ببساطة بأول شيء يخطر في بالي. لذلك أهاتف «إيلين».

ـ يريد أن يعرف رأيي في «سيمون» و«جوش»! أوه يا إلهي! «جوش» معجب بـ«سيمون»! أوه يا إلهي! سيدعوها للخروج معه. أعرف هذا. ثم سيصبح لها رفيق، يا لها من أخبار سيئة لأمها وأبيها! أوه يا إلهي! لا بد أنه طلب من آدم أن يسألني! «إيلين»! بماذا أرد؟

ـ اهدئي، ألن تفعلي؟ نفس عميق. لا يمكننا مناقشة ذلك باهتياج. علينا أن نفكر في الأمر.

ـ أوه يا إلهي! ستطير «سيمون» من السعادة! حسنٌ، تركيز! دعينا نركِّز!

ـ حسنٌ، نحن نركِّز.

ـ الآن، لا نريده أن يعتقد أننا كنَّا نفكر في الأمر؛ لأن ذلك سيجعل «سيمون» تبدو مستقتِلة لأجله. وفي نفس الوقت، لا نريده أن يعتقد أن الأمر لم يخطر ببالنا قطُّ؛ لأن ذلك سيحبط «جوش».

ـ إذن هل تعتقدين أن «جوش» وراء الرسالة أم إن آدم يشاركني أفكاره وحسب؟ لأن هناك فرقًا بين الحالتين.

ـ همم، حسنٌ، أعتقد أن الرد ينبغي أن يضع في الاعتبار كلا السيناريوهين.

ماذا عن، «همم» ـ ذلك يتضمن تفكيرًا كثير الاهتمام ولكن ليس عن تصميم مسبق ـ يبدوان مناسبين للارتباط.

ـ الارتباط كلمة خاطئة. إنها الكلمة التي سنقرأها في مجلة «كليو» كمراهقات، أما الشاب الذي يقرؤها سيظن أنها جادة جدًّا. ارتباط. إنك تتزوجين الشخص الذي ترتبطين به. لا نريد أن نفزعه.

ـ فكرة جيدة.

ـ ماذا عن: همم، يبدوان منسجميْن؟

ـ نعم! بسيطة وليست محمَّلة كثيرًا بمصطلحات «كليو». لِمَ لا تردي عليه بسؤال؟

ـ رائع! نعيد الكَرة إلى ملعبه!

ـ مثل: لا أعرف، ماذا تعتقد؟

ـ تخلصي من «لا أعرف»! نعم، فقط اسأليه ماذا تعتقد؟

ـ حسنٌ، إذن المُحصِّلة: همم، يبدوان منسجميْن. ماذا تعتقد؟

ـ ممتاز. إيجابية وأيضًا ليست حماسية جدًّا بحيث تجعل «سيمون» تبدو يائسة جدًّا. وكذلك تدعوه إلى البحث عن معلومات أكثر من جانبه. حسنٌ، أرسليها الآن.

ـ الآن؟

ـ في الواقع لا. علينا أن نفكر فيك أيضًا! إذا أجبت مباشرة، قد يفهم شيئًا آخر. كما في: أوه! أستطيع التواصل مع أمل على الفور. إنها تنتظر اتصالي. الوقت متأخر في ليلة الأحد وهي لا تزال مستيقظة تنتظرني أن أتواصل معها.

- نعم، لكننا لا نخرج معًا. نحن صديقان، فلماذا إذن سيفهم شيئًا آخر؟

- لستما صديقين مثل صداقتي أو صداقة «سيمون» معه، هل أنت كذلك؟ إذا كان الأمر كذلك، فليست بالمشكلة الكبيرة. إذا ما بدونا يائستين أو وحيدتين أو ضجرتين أمامه فذلك لا يهمنا، ولكنك ما زلت تريدين أن يأخذ عنك أفضل انطباع، أليس كذلك؟

- لن أرسلها إلا بعد نصف ساعة.

- هكذا هو الأمر. حسنٌ، أخبريني بما يحدث.

بعد أن أنهي المكالمة أستمع إلى الموسيقى لمدة نصف ساعة، مراقبة الثواني على ساعتي إلى حد أنني أريد أن ألقي بها في الحمام من الإحباط. وأخيرًا، وبعد سبع وأربعين دقيقة من إرساله الرسالة الأصلية إليَّ، أرسل إليه الرسالة المتفق عليها. بعد ثوان، يردُّ: «جيد، لا يمكنني التحدث الآن، أنا على الهاتف. ما الذي أخرك هكذا؟ نتحدث غدًا».

هائل!

(٢٥)

لماذا..آه.. لماذا يفعل الشباب هذا؟ يثيرون موضوعًا، ثم يتجاهلونه تمامًا حتى إنك تريد أن تمسك بهم من أكتافهم وتصرخ فيهم أن يتكلموا، أن يتحدثوا بصراحة، أن يشاركوا! أنا و«إيلين» على بعد فمتو ثانية - حرفيًّا - من محاصرة آدم، وتثبيته على الأرض بحركة لمس أكتاف وإكراهه على مناقشة الرسالة معنا. ولكننا، في تظاهرنا بامتلاك قوة إرادة مفرِطة، لا نفعل. عوضًا عن ذلك، نتظاهر بنسيان كل ما يتعلق بالأحداث التي حصلت الليلة الماضية، ونصيب بعض الأهداف مع آدم و«جوش» على ملعب كرة السلة في استراحة الغداء. «جوش» هو من أدلى بالاقتراح، وأنا و«إيلين» دفعنا «سيمون» إلى اللعب. تكون «سيمون» عادةً حساسة تجاه أي نوع من أنواع الرياضة أو الأنشطة التي تتطلب منها الحركة، لأنها تعتقد أن ذلك يلفت الأنظار إلى جسدها، ويجعلها تبدو سمينة وخرقاء. «إيلين» وأنا نلمِّح لها أنها إن لم تلعب معنا فإن «جوش» سيعتقد أنها كسولة. إنها محاولة رخيصة ودنيئة منا، لكننا نحمل في ذهنينا منطق «الغاية تبرر الوسيلة» مع هذا المشروع.

ممتع جدًّا. «سيمون» تفاجئ نفسها وتفاجئنا، وتثبت أنها حقًّا هدافة جيدة. يبدو «جوش» مأخوذًا بها. بعد هدفها العاشر يقول:

ـ إذن، طوال الوقت الذي كنا فيه نتسكع في الساحة كنتِ نجمة في لعب كرة السلة ولم تخبرينا حتى؟! لربما كنا لعبنا معك قليلًا!

يحمر وجه «سيمون» وتبتسم، وبالطبع لا تستطيع تسديد الأهداف التالية.

أفضل جزء في هذه الساعة بأكملها عندما ألاحظ أن «تيا» و«كلير» و«ريتا» يجلسن على أحد المقاعد القريبة من الملعب. تجلس «تيا» طاويةً ذراعيها وتبدو كأنها قد أكلت صرصورًا مصادفة. وجهها مكشر من الانزعاج والاشمئزاز وهي تنظر إلى «سيمون» و«جوش» يضحكان ويتغازلان في الملعب. أنظر إليها وأطلق في وجهها ابتسامة عريضة ضخمة. ترفع حاجبيها بغطرسة وتصدُّ بوجهها بعيدًا.

حلو!

* * *

شائن، معذِّب، سادي. ولا كلمة طوال اليوم. وأخيرًا، في المساء، يهاتفني آدم في البيت. وقبل أن أجد الفرصة لأندفع في تفكيك مطوَّل لرسالته النصية، يخبرني أن أمه هاتفته الليلة الماضية لتسأله عن مقاس قمصانه حتى تتمكن من إرسال هدية عيد ميلاده. لا يبدو متأثرًا.

ـ على الأقل تضع أهدافًا عالية لنفسها. تحسب أنها ستمحو عشرة أعوام من ابتعادها عني بإرسال بعضِ القمصان ماركة «بولو». أستطيع أن أقول إن ذلك تفكير طموح جدًّا.

ـ هل كان اتصالها غير متوقَّع؟ هل تتصل بك عادةً؟ أتذكر أنك قلت إنها ترسل إليك بطاقات بريدية.

ـ منذ أن كنت في الحادية عشرة تقريبًا وهي تتصل بي في عيد ميلادي وفي رأس السنة. إذن، ما رأيك في مباريات كأس العالم في كرة القدم؟

ـ هل تفضِّل لو أنها تجاهلتك؟

ـ لماذا ستفكِّر أنني أهتم؟ لديَّ اهتمام بما يحدث في حياة شرطية المرور أمام مدرستنا أكبر من اهتمامي بأمي. إذن، أجيبيني: كرة القدم؟

ـ رياضة رائعة! ربما هي... تحاول أن تصلح الأمور، أن تعتذر بطريقتها. كيف تشعر حيال الأمر برمته؟

ـ أمل، رجاءً! هل تحاولين فتح موضوع هيا نعبِّر عن مشاعرنا هنا؟!

ـ لا.

ـ نعم، صحيح يا أمل! لا تظني أنني على وشك أن أضع نفسي موضع التحليل والتشريح، ولا تحاولي مقاطعتي، لست متعصِّبًا، ولا أحاول أن أثبت أنني لا أستطيع التعبير عن مشاعري لأنني ولد، ولكنك تستطيعين لأنك بنت. أفضِّل بالفعل أن أتحدث عن كرة القدم في هذه اللحظة.

ـ لكنني فضولية. أريد أن أعرف ماذا حدث، رجاء! أعدك ألا أعطيك نصائح أو أي شيء يشبه النصائح ولو من بعيد.

ـ جميل! حدث ذلك منذ عشرة أعوام. كنت في السابعة، وكان يومًا ممطرًا. كان المطلوب منا في المدرسة أن نحضر صورنا العائلية ونتحدث عنها، فأحضرت بعض اللقطات السعيدة لي ولوالدي في حديقة الحيوان ونحن نُطعم البط، وكل هذا الهراء. أقلَّني بابا من المدرسة في طريقه إلى البيت؛ لأن ماما لم تستطع ذلك على ما يبدو. اشترى لي وجبة «برجر» صغيرة من «ماكدونالدز» ما زلت أتذكر طعمها حتى يومنا هذا. وصلت البيت وكان

صامتًا. لم تكن ماما تنتظرني، ولا عشاء يُطبخ في المطبخ. ما من مسلسل «الجريء والجميلات» أو أي برنامج غبي آخر ينطلق من التلفزيون. وبعد ذلك، لم يختفِ الصمت قطُّ...

ـ يا لك من كذّاب!

يطلق ضحكة هادرة:

ـ أنت طلبت ذلك. أراهن أنك كنت تتوقعين شيئًا من قصة بكائية سخيفة مع خلفية لأغنية مهدِّئة من أغاني «بريان آدمز».

ـ نعم! شيء مثير، تعرف؟ ما قلته الآن هو سيناريو فيلم فاشل لن يحظَى أبدًا بالعرض السينمائي، وسيُعرَض، تقريبًا، في الحادية عشرة مساءً في ليلة سبت يوم ما في ديسمبر.

ـ لا تستهيني بتلك الأفلام التي تعرض في ديسمبر في وقت متأخر. أول فيلم شاهدته لـ«سيلفستر ستالوني» كان في وقت متأخر. هاي، لديَّ شيء مثير لأفشيه! ولكن بشرط أن يبقى بينك وبيني، إِه؟

ـ أحلف لك على المصحف.

ـ اتفقنا. زرت طبيبًا نفسيًّا. أتصدقين؟ طبيب نفسي! كم يبدو ذلك جنونيًّا؟ أرسلني بابا و«تشارلين» لزيارة واحد منذ بضع سنوات، لأنهم يعتقدون أنه سيكون من الصعب عليَّ التوافق مع فكرة وجود «تشارلين» بيننا، وقالوا إنني أحتاج إلى حلٍّ أو أية كلمة غبية استخدموها للتعبير عن هجر ماما لنا.

ـ كيف كان الأمر؟

ـ ظل الطبيب النفسي يقترح أنني أشعر بالذنب حيال ذهاب ماما، وأنني لم أستطع الاعتراف بذلك. عظيم، لم يدرك قطُّ أنني لم أشعر بالذنب مطلقًا،

ولا مرة! لماذا أشعر بالذنب؟ كنت في السابعة من عمري! وظل الطبيب يردد أنني إذا لم أتمكن من مواجهة ذنبي سأجد صعوبة في الوثوق بالنساء، ودخول علاقات ذات معنى. بمَن كان يسخر؟ كان الأمر بسيطًا، كنت غاضبا جدًّا وما زلت ولم يتغير ذلك قطُّ. استمررت في العلاج جلستين.

ـ جلستين فقط؟

ـ نعم، ضجر مني. بالإضافة إلى أنه كان يلعب في أنفه عندما يظن أني لا أراه. فقد مصداقيته إلى الأبد.

في بداية الفصل الدراسي ما كنت أتصوَّر أن تكون هناك صراحة، مشاركة بالأسرار، مناقشة عميقة ومفيدة مع «آدم كيان». ولكننا لا ننمُّ على الهاتف وحسب، بل هو في الواقع يأتمنني على أسراره العائلية.

حسب بحثي المكثف المبني على مقالات قيمة في مجلات «دولي» و«كليو» و«كوزمو»، أن المشكلة الأولى مع جنس الذكور هي عجزهم عن التواصل والمشاركة بمشاعرهم. بعد هذه الليلة أخطط أن أكتب إلى جميع هذه المجلات، وأعلمها أن صداقتي مع «آدم كيان» تكذِّب نظرياتهم، وتجعل من كل تلك الفلسفة عن أن النساء من الزهرة والرجال من المريخ محض هراء.

يقول آدم:

ـ إذن، لم تخبريني ماذا تعتقدين بشأن «جوش» و«سيمون»، انتظرتك أن تثيري الموضوع في المدرسة طوال اليوم لكنك لم تفعلي، فاعتقدت أنك تظنينها فكرة سيئة!

ـ لا! أبدًا! كنت أنتظرك أن تثير الموضوع.

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ لا بأس!

أتنهَّد.

حسنٌ، قد أتوقف عن كتابة تلك الرسالة؛ لأنني أعتقد أن المريخ والزهرة ربما لا يزالان يحتفظان بميزاتهما. وعوضًا عن ذلك، قد أدنو من ناشر وحسب، وأطلب منه أن يستثمر مجهوداته في عمل كتيب تعليمات حول حل شفرات رسائل الشباب على الموبايل، مع تقديم يكتبه أحد العلماء النفسيين.

ـ على كل حال، هل ذكر «جوش»، إحم، أنه مهتم بـ«سيمون»؟

ـ ربما!

ـ أوه! كفّ عن الادعاء يا آدم. لماذا أرسلت إليَّ إذن؟!

ـ حسنٌ، هل «سيمون» مهتمة بـ«جوش»؟

ـ لا أعرف... لم تقل لي شيئًا قط.

إحم.

يقول:

ـ أعتقد أن ثمة شيئًا بينهما، لكنها خجولة جدًّا. أقصد، عندما تخرج من قوقعتها تكون مسلية وغير متحفظة، و«جوش»، في رأيي، يكون منجذبًا إليها في هذه اللحظات.

ـ حسنٌ، ينبغي أن يكون كذلك! فهي ذكية ومسلية وفاتنة وعطوفة و...

ـ حسنٌ، يا أمل، فهمت. تصلحين لتكوني مديرة شركة دعاية وإعلان.

ـ أوه! نعم؟ وماذا عن «جوش»؟ أليس عندك ما تقوله عنه؟

ـ نعم، إنه الوحيد الذي أعرفه ويستطيع أن يهزمني في لعبة «دايتونا».

ـ هكذا؟ أهكذا تسوِّق لصديقك؟

يطلق ضحكة خافتة:

ـ أغيظك فقط. لن أجلس هنا وأقوم بحملة علاقات عامة لأجله. إنه صديقك أيضًا؛ ولذلك تعرفين أنه فتى رائع.

ـ فلتكن صادقًا إذن. هل سيدعوها إلى الخروج معه؟

ـ كيف لي أن أعرف؟ وحتى لو عرفت، أعرف كيف هن البنات. ستتصلين بـ«سيمون» و«إيلين» في غضون ثانية من إنهاء مكالمتنا وتبدؤون بشن هجوم على محادثتنا هذه مثل نسور تنقض على ساندويتش «هامبرجر».

ـ لسنا كذلك!

ـ أوه! نعم، صحيح! كل نغمة في صوتي، وكل كلمة وعبارة ووقفة ستخضع للتحليل إلى أقصى حد. سترسلن جملًا بعضكن إلى بعض، وتعدن لتطلعن بعضكن بعضًا على المعاني.

ـ يا لك من مغرور!

يقول لي ضاحكًا:

ـ حسنٌ يا أمل، سأتركك الآن. تأكدي من إخبارهما أنني عندما أستخدم حروف الجر في عباراتي فهذا يعني أنني أدخر وقتًا لأفكر في طرق تساعدني على تضليلكن بخصوص «جوش»!

ـ ششششش!

بعد أن أنهي المكالمة أجلس على يدي خمس عشرة دقيقة، متسائلة عمَّا إذا كان ينبغي أن أتصل بـ«إيلين».

طظ! أتناول الهاتف، وأفكر في أن آدم نفسه قد يكون اتصل بـ«جوش» الآن.

بينما أهمُّ بالاتصال برقمها يطلق هاتفي صوتًا منبهًا بوصول رسالة: «تأكدي أن تسلمي لي عليهما!»

(٢٦)

في طريقي إلى الصلاة أذهب إلى مستر «بيرز» طلبًا للمساعدة بشأن أحد الواجبات. بعد انتهائنا أقف لأنصرف فيطلب مني أن أبقى جالسة. يريد أن «يتحدث». المعلمون لا يتحدثون، إنهم إما يحاضرون وإما ينصحون وإما يلقون قصيدة. إنهم لا «يتحدثون» وحسب.

يتكئ على كرسيه ويحكُّ الرقعة الصلعاء على رأسه. أتساءل عمَّا إذا كان متزوجًا أو لديه أطفال. هناك خاتم في إصبعه، لكنك لا يمكن أن تكون متأكدًا تمامًا. سمعت أن بعض الشباب يلبسون الخاتم فقط لكي يتمكنوا من الاختيار (مجلة «جيرلفريند»، عدد ٥٦).

ـ أمل، لنتحدث عن مدى تأقلمك.

ـ إحم... تأقلمي مع ماذا؟

ـ المدرسة، والصف، و«تيا»!

يبتسم لي وأهزُّ كتفيَّ.

ـ أنا بخير. الأعمال المدرسية تجعلني أكبر قبل الأوان، ولكن هذا هو التعليم.

ـ أتفق معك تمامًا.

ـ كما أنني بدأت أسجل نفسي وأنا أقرأ مقالاتي، وأخلد إلى النوم وأنا أستمع إلى مقال عن الحرب الباردة، على أمل أن أستيقظ وأكون قد حفظته. أصبحت كأنني مدخنة مدمنة تستمع باستمرار إلى تسجيلات عن التوقف عن التدخين.

يضحك مستر «بيرز» ويهزُّ رأسه:

ـ رائع! تستطيعين الحصول على علامات عالية في شهادة «فكتوريا» في التعليم. يمكنك أن تكوني ما تشائين.

(يا إلهي إنه يتصرَّف معي مثل ذلك الأستاذ في فيلم «أستاذي العزيز شكرًا».)

ـ أتظن؟

ـ بالطبع. لماذا؟ ألا تظنين؟

ـ نعم أعتقد...

ـ كيف تتأقلمين مع الأشياء الأخرى؟ هل كان الآخرون يسببون لك إزعاجًا... بخصوص حجابك؟

(لا تخبروني أننا نقوم هنا باستشارة نفسية أرجوكم!)

ـ لا، كل شيء على ما يرام.

أتجنَّب التقاء عيني بعينيه وأحدِّق في حذائي. ما من شك أنني لن أتورَّط في جلسة «كلميني عن نفسك» هذه.

ـ إذا تعرضت لذرة أذى أريدك أن تخبريني مباشرة يا أمل هل فهمت؟

ـ نعم.

ـ كما قلت، لديَّ كل الإيمان أنك ستحققين أهدافك إذا اجتهدت وصمدت عندما تبرز التحديات.

ـ شكرًا مستر «بيرز».

ـ حسنٌ، إذن، يمكنكِ الانصراف الآن.

ـ شكرًا.

* * *

يغلبني النوم تلك الليلة بينما أفكر فيما قاله لي مستر «بيرز»، عن تحقيق أهدافي وأن أكون ما أشاء. منذ أن بدأت ارتداء الحجاب وأنا أشعر بالرعب كثيرًا.

حتى لو حصلت على علامات تساعدني على الالتحاق بأفضل تخصص في الجامعة، على افتراض أنه بمقدوري تحديد أيها أريد، قد لا أتمكن من إيجاد عمل مؤقت الآن. إذن كيف سيكون الوضع فيما بعد؟ اسمعوا، لست أحد ضحايا نظريات المؤامرة الذين يعتقدون أن الإشارة عندما تكون حمراء، أو عندما تمطر وقد نسوا مظلاتهم في المنزل، أن هذا محض مؤامرة كونية ضدهم.. لكنكم تسمعون قصصًا، أتعرفون؟ عن الأصدقاء الذين يحصلون على علامات عالية في الجامعة، ثم عندما يقفون أمام مجموعة أصحاب العمل في مقابلة يكتشفون أنهم يشرقون وهم يشربون الماء؛ لأن المرشحة ترتدي حجابًا. أتساءل أحيانًا من أين أحصل على الإجابات التي أحتاجها الآن. في مدرسة الهداية كنا جميعًا نمر بنفس الأشياء. كلما شعرنا بأننا خليط من الهويات وبدأنا نتساءل عن مكاننا هنا، يكون هناك مستر عزيز الذي

يخبرنا بأننا لسنا في حاجة إلى الاعتذار بسبب تراثنا. أحيانًا لا أعرف كيف أفكر، ولا أهتم حتى بمحاولة حل المشكلة. ومع ذلك أعرف شيئًا واحدًا. لا شيء أكثر رعبًا من خوفك من أن مستقبلك لن يكون وفقًا لما حلمت به.

تخبرني ليلى على الهاتف:

ـ إذن تدخل ماما إلى غرفتي وتُريني صورة ذاك الشاب التركي الذي يعيش في «أديليد».

ـ وما سيرته الذاتية؟

ـ في الخامسة والعشرين، ميكانيكي، يبحث عن ربة منزل حلوة وبريئة. لديه الرغبة في الانتقال إلى «ملبرن». يفضِّل المرأة السمراء. ماما كانت سريعة لتخبره أن لي شعرًا بنيًّا وأجيد الطبخ والتنظيف.

ـ وكيل دعاية ممتاز.

ـ وكيلة من فوق وش القفص.

ـ ماذا قلت لها؟

ـ قلت لها عندي واجب يا ليتها تتركني وشأني، ولكنه إذا احتاج هذا الشاب إلى محامٍ بعد عدة سنوات، فسأرحب بزيارته.

ـ لا بدَّ أنها جنت عندما سمعت هذا!

ـ هناك أشياء أخرى بخلاف الجنون: أحيانًا تُصاب بالفتْق، وفي أوقات أخرى تحاول التفاهم معي. «تعتقدين يا محامية أنك ستحصلين على عمل بحجابك؟ مَن سيقبل بك؟ لماذا تجتهدي لأجل لا شيء؟ سيرون حجابك وسيرفضونك.»

أقول:

ـ أحدهم سيوظفنا!

ـ ما كنت لأناضل لو لم أثق أن ثمة أحدًا هناك.

أتوقف، ثم أجدها:

ـ ولا أنا!

وأعني ذلك.

(٢٧)

في حصة اللغة الإنجليزية يعلن مستر «بيرز» عن الفِرق المشاركة في الجولتين الأخيرتين من المناظرة. كسب فريقنا للصف الحادي عشر جولتين حتى الآن من أصل ثلاث جولات. سأكون في الفريق مع آدم و«جوش»، وسُجِّلت أسماؤنا للمناظرة الأخيرة التي ستكون في بداية نوفمبر، أي بعد شهر. وسيشارك كلٌّ من «كلير» و«ريتا» و«كيشين» في الجولة الرابعة. أختلس النظر إلى «تيا»، فأجدها عابسة جدًّا وهيَ تنظر إلى «كلير» و«ريتا».

نلتقي أنا و«جوش» وآدم في استراحة الغداء لنبدأ الاستعداد لمناظرتنا؛ لأننا نريد أن ننتهي من ذلك لنقتل أنفسنا من المذاكرة لامتحانات نهاية العام التي اقتربت. «جوش» يأكل ساندويتشًا قاتلًا بجبنة «الغُرغنزولا» والسلامي. نحتاج لأقنعة أكسجين.

أقول لـ«جوش» وأنا أحمل ساندويتش الجبن والخس عديم الرائحة والطعم:

ـ تعلَّمت دروسي وأنا صغيرة.

يقول آدم مبتسمًا وهو يخرج غداءه:

ـ لم أفعل، عندي بقايا طعام من الأمس.

ـ ماذا؟

من الغريب أن ترى كيف أن هرس الجبن والسلامي في فم أحدهم المفتوح على اتساعه ينتج قوس قزحٍ من الألوان.

ـ من يهتم! جعلتماني أفقد شهيتي وحسب!

يبتلع «جوش» طعامه بازدراد ثم يبتسم ببلاهة:

ـ آسف! إنني فقط أتضور جوعًا. حاولت أكل الشيبسي في الصف لكن مستر «بيرز» ضبطني.

ـ لديَّ بيتزا بالدجاج والثوم، لا تُقاوَم.

ـ أنتم فظيعون يا شباب! هناك أشياء يُفترض تجنب أكلها في المدرسة.

نقضي وقتًا طويلًا نتحدث عن الطعام، ونتبادل القصص عن «أكثر ما أكلته في حياتي» حتى ينظر آدم إلى الساعة. ننتهي أخيرًا إلى مناقشة المناظرة، ونبدأ تحضير كلامنا. آدم وأنا ندخل في ما يقارب خمسة وخمسين جدالًا حول تنظيم الفريق وموضوع المناقشة حتى يطلب منا «جوش» أن نخرس وإلا تجشّأ في وجوهنا.

يقوم كل منا ببروفة أمام الآخرين، ونملي نصائحنا ومقترحاتنا بشأن الوصول لأداء أفضل، حتى أثبتنا تقريبًا أننا متفوقون ونعرف تمامًا ما نحن بصدده.

أقول لآدم بعد أن رنَّ الجرس وأخذنا نلملم أشياءنا للذهاب إلى الصف:

ـ صحيح يا آدم...

ـ نعم؟

ـ هل شاهدت ذاك الفيلم الوثائقي على قناة «إس بي إس» الليلة الماضية عن طالبان؟

ينظر إليَّ آدم مصعوقًا ويقول بصوت مهزوز:

ـ هل هذا...؟

ـ لا!

ينظر إليَّ بارتياب، ثم نطلق تلك الابتسامة العريضة البلهاء. لا نتوقف عن الحديث طوال طريقنا إلى الصف، متبادليْن الأفكار والحجج والنظريات وكل تلك الكلمات الكبيرة المؤثرة. نتبادل الملاحظات في أثناء حصة الرياضيات، فيختطف مستر «لوفر» واحدة من على مقعدنا، ويطالب بمعرفة العلاقة بين ملاحظتنا عن سياسة البحث عن مستشفى حكومي للأمراض العقلية وبين حصة الرياضيات.

يجيب آدم راكلًا قدمي تحت المقعد، ونحن نحاول الاحتفاظ بملامح هادئة:

ـ إحم... ألا تضيف شيئًا؟

* * *

يتبعني آدم إلى الخارج بعد الحصة الأخيرة ويمشي معي حتى موقف الأتوبيس.

يقول بعد بضع دقائق من اللهو واللغو:

ـ اسمعي، عندي حفلة في البيت ليلة الجمعة. إنه شيء يشبه عيد الميلاد.

ـ شيء لك؟ ماذا؟! لم تستطع أن تحدد ما إذا كان عيد ميلادك أم لا؟

ـ حسنٌ. إنه عيد ميلادي. هل يمكنكِ... هل يمكنكِ الحضور؟

آخذ نفسًا عميقًا:

ـ الأمر معقَّد. هل هي من تلك... هل هي من تلك الحفلات التي يكون فيها الجميع سكارى؟

ـ لا! لا! ليست كذلك. فقط سيحضر مجموعة من الأصدقاء، في الغالب من المدرسة، وبعضهم من نادي كرة القدم الذي أذهب إليه في عطلة نهاية الأسبوع. أكل، موسيقى. سيكون هناك كحول، ولكنها لن تكون مثل تلك الحفلات.

تقريبًا في عطلة نهاية كل أسبوع يقيم أحدهم حفلة. أكون مدعوَّة عادة، وحضرت مرتين مثلًا، ولكن، بصدق، لا يكون الأمر مسليًا إذا كنت لا تشرب. عندما تكون في وعيك لا تصير النكات مسلية، وعليك أن تتظاهر بأنك في حالة ضحك هيستيرية عندما يفطس الكل من الضحك بسبب أن ورقة شجرة حطت على حذاء أحدهم أو أي شيء من هذا القبيل. «سيمون» تكره تلك الحفلات؛ لأن البحث عمَّا ترتديه يعتبر كابوسًا بالنسبة إليها، ثم إنها تقضي الليلة وهي تعتقد أن الكل يسخر منها. نرقص قليلًا، ولكننا بصراحة نكون خجولات لدرجة أن رقصنا يتحول إلى خطوة للأمام وأخرى للوراء، وهذا لا يجعل شكلنا جيدًا، ولا يجعلنا مستمتعات. حدث ذلك كله عندما كنت من دون الحجاب. لا أعتقد في الحقيقة أنني سأتكيف جيدًا مع هذه الحفلات إلا إذا كانت الحفلة تنكرية! ولكن مرة أخرى، إنها حفلة آدم! لا يهمني إذا ارتديت زي الدب القطبي حتى، لا بد أن أحضر حفلته.

ـ هل يمكن لـ«سيمون» و«إيلين» الحضور أيضًا؟

ـ نعم، بالتأكيد، طبعًا. كنت سأخبرهما على أية حال.

ـ عليَّ أن أتأكد من والديَّ أولًا.

ـ إنذار! إنذار! أنتِ غريبة الأطوار!

أضحك:

ـ أعرف. أخبر أي شخص بهذا وسأفشي سر المدعوة «س ص».

إذن، دعاني آدم لحضور حفلة عيد ميلاده. والآن، كيف يُفترض أن أُقنع والديَّ بذلك؟

ليسا غبيين. يعرفان كيف هي حفلات طلاب في مدرسة ثانوية، ومشهد الشُّرب يتعدى الحدود على نحو تام. مثلما توقعت تمامًا، بابا يعطيني كلمة «لا» صريحة، موليًا ظهره ومواصلًا حل ألغاز لعبة الكلمات المتقاطعة. ولذا أذهب إلى الداخل حيث ماما جالسة تقرأ كتابًا حول نظرية مؤامرة قتل «ديانا». أقبِّلها وأقول لها إني أحبها، أسوأ طريقة ممكنة لانتزاع كلمة «نعم» بالنسبة إلى أمٍّ ذكية.

ـ قولي ما عندك!

ـ هل يمكنني أن أعطيك...

ـ يلّا أنا أقرأ!

آخذ نفسًا:

ـ هل يمكنني الذهاب إلى حفلة عيد ميلاد ليلة الجمعة؟ إنها في بيت ذلك الشاب في صفي. «إيلين» و«سيمون» ستذهبان أيضًا.

ـ لا!

ـ لماذا؟

ـ لأن...

ـ لأن ماذا؟

ـ لأنني قلت ذلك!

ـ لكن لماذا تقولين ذلك؟

ـ لأنني أستطيع أن أقول «لا» وحسب، وقلت ذلك، وعندما يكون عندك أطفال ستفعلين نفس الشيء.

أقول مندفعةً إلى خارج الغرفة:

ـ لا، لن أفعل، سأضع خطة واعية لأكون أمًّا تشرح لأبنائها كل شيء، وليستِ أمًّا تقول «لا» فقط!

ـ كما تشائين!

أرمقها بنظرة، وأنصرف، وأقضي وقتي مكتئبة في غرفتي. أتأكد من رفع الصوت كثيرًا والاستماع إلى أغاني حب مفرطة في عاطفيتها؛ لأنها تجعلني أحس أنني في حالة أسوأ مما أنا عليه. ينجح الأمر في النهاية. أسمع صريرًا على أرضية المدخل وأهيئ نفسي. أقفز في السرير وأتمدَّد مواجهة الجدار، وأمسح «الماسكرا» تحت عينيَّ كي أبدو مثل دب الباندا.

تدخل ماما غرفتي وتجلس عند طرف السرير:

ـ تحدثت مع أبيك!

أطلق صوتًا من حنجرتي كعلامة على أنني أسمعها.

ـ أعرفك جيدًا يا أمل! تمثيلية «إنها نهاية حياتي» لن تنفع معي!

أجلس وأضع يديَّ تحت ركبتيَّ، محتميةً ببوز عابس.

ـ حفلة مَن هذه؟

ـ شاب اسمه «آدم كيان»؛ أكثرنا اجتهادًا في الصف، يحصل دائمًا على امتياز.

ـ ذلك الذي تتحدثين معه في الهاتف؟

ـ نعم.

ـ كأصدقاء؟

ـ بالطبع!

ـ أتمنى ذلك بصدق! فقط كونا منتبهين إلى أن كليكما يفهم ذلك. الأفعال أقوى صوتًا من الكلمات يا أمل!

ـ ماماااا! أعرف ما أفعل وأعرف ما هو الصحيح وما هو الخطأ! نحن صديقان جيدان وحسب. وكأن آدم سيفكر فيَّ بتلك الطريقة. أنا أرتدي الحجاب، وهو يعرف أنني لست من النوع الذي قد يفعل أي شيء خطأ، وعلى كل حال، هو أكثر جاذبية و«روشنة» من أن يفكر فيَّ حتى!

ـ بالطبع سيفعل. أنت فاتنة! لكن ذلك خارج الموضوع. هل هو محترم؟ ورجاءً لا تتفضَّلي عليَّ. أريد إجابة صريحة.

ـ لم أسمع شيئًا سيئًا عنه قطُّ، ماما، بصدق!

ـ إذن، آدم هذا ولد مهذب؟

ـ بيننا مناقشات ناضجة جدًّا عن قضايا المقارنات بين الأديان.

إحم.

ـ حقًّا؟

ـ نعم، إنه مهتم فعلًا بمعتقداتي وهذه الأشياء.

ـ هل سيكون والداه هناك؟

ـ لست متأكدة يا ماما. لم يقل.

ـ كحوليات؟

ـ لا، إنه ليس من هذا النوع. والداه... لن يوافقا.

(لا أصدِّق أنني أكذب على ماما. يا لي من منافقة كبيرة! أرجوك يا الله! أنا آسفة جدًّا جدًّا! سامحني هذه المرة فقط! هذه المرة فقط! أرجوك!)

أنت لا تشعر بالراحة أبدًا عندما تكذب. لا يهم مدى رغبتك في هذا الشيء، فعندما تكذب على أشخاص تحبهم، ويصدقونك فعلًا، تشعر كأنك صرصور يحتاج لجرعة فليت فورية!

ـ والداه حكيمان. إذن «سيمون» و«إيلين» ذاهبتان؟

ـ نعم.

أخبرتهما بدعوة آدم في الأتوبيس، وعندما كنا في منتصف الطريق إلى البيت كانتا قد بدأتا تناقشان ما سترتديان.

ـ وكيف ستذهبين إلى هناك؟ أعتقد أنه ينبغي أن نوصلك.

يفيض الرعب داخلي:

ـ أم «سيمون» عرضت علينا أن تقلّنا.

لم تفعل، لكنني سأُجري مكالمة سريعة بمجرد خروج ماما من الغرفة.

ـ ستخرج في تلك الليلة، ولذلك لن تنزعج. ستوصلنا في طريقها. وستوصلنا إلى البيت أيضًا، لذلك لا تهتمي ولا تقلقي بشأن أي شيء.

ـ نريدك أن تعودي إلى البيت في العاشرة والنصف. ليس بعد ذلك!

ـ ماذا عن الحادية عشرة؟

ـ لا.

ـ أوه! هيا، ماما! العاشرة والنصف وقت مبكر جدًّا! سأبدو مثل حمقاء! أرجوك! الأمر صعب كما هو..

أطرف لها برموشي وتقلّب ناظريها.

ـ حسنٌ.

ـ على الرغم من أن الحادية عشرة والنصف أنسب لـ«سيمون» بكثير. لا أريد أن أفسد ليلتها.

ـ إذا كانت هناك أي احتمالية لإفساد ليلتها، فإننا سنكون أكثر من سعيدين لنركب السيارة ونأتي لنقلك. الحادية عشرة وإلا فلن تري الحفلة بعينك يا أمل. هل أنا واضحة؟

ـ وضوح الشمس!

* * *

ألتقي مع «سيمون» بعد المدرسة لكي نمارس رياضة المشي.

ـ إذن، لا بأس أن تكون أمك سائقة التاكسي الخصوصي لنا!

ـ نعم، بالتأكيد! لا مشكلة كبيرة!

بينما نمشي تسألني «سيمون» أن أعدها ألا أغضب منها.

ـ بخصوص ماذا؟

ـ عديني أولًا وحسب!

ـ أكره هذه الاختبارات. أستخدمها مع والديَّ لأجل الله.

تنظر إليَّ نظرة مناشدة يائسة فأعِدها.

تقول بعصبية:

ـ حسنٌ، لقد... لقد بدأت... اسمعي، جربت كل حمية غذائية، حسنٌ؟ ولم تجدِ نفعًا. شهيتي أكبر من الجزر والكرفس. حتى لو اعتدلت، كأن آكل ساندويتشًا في الغداء، سأظل أتلهف إلى شيء حلو أو لا أشعر بالامتلاء. ولذلك فقد... بدأت أدخن.

ـ ماذا؟؟

ـ يبدو أن التدخين يقلل الشهية جدًا. كيف تحافظ «تيا» في اعتقادك على شكلها؟ سمعتها مصادفة تقول لـ«كلير» و«ريتا» أنها لا تأكل كثيرًا، فقط تدخن لأن التدخين يحدُّ من رغبتها في الأكل.

ـ نعم، ولكن «سمانثا» ابنة خالي تدخن وتلتهم الطعام كل الوقت! تلتهم شوكولاتة عملاقة مرة في اليوم على الأقل.

ـ هل هي نحيفة؟

ـ إحم.. نعم!

تتنهَّد:

ـ أرأيت؟ هذا ليس عدلًا! ذلك يثير الاشمئزاز. سئمت من رؤية البنات في جينزاتهن الضيقة وقمصانهن العلوية القصيرة وهن يلتهمن الشوكولاتة بينما آكل أنا تفاحة. لا شيء ينجح. لا يهمني ما سيحدث لي. أرغب فقط في أن أكره الأكل، لذلك كلما شعرت برغبة في الأكل سأدخن. لم أعد أهتم!

ـ أنت جادة في هذا؟

ـ لقد قررت!

تضيِّق عينيها بشدة وتنظر إليَّ باقتناع تام:

ـ أعرف أنه يسبب السرطان والبلاوي الزرقاء الأخرى، لكن ذلك كله افتراضي بالنسبة إليَّ، ووزني ليس كذلك. وكل شيء تم حسابه، حسنٌ؟ جزء من خطة. سنة واحدة من التدخين للتخلص من الوزن، ثم سأتوقف. لن يؤثر التدخين فيَّ سنة واحدة حقًّا!

ـ سوف تُدمنين ذلك!

ـ لا! أعرف ما أفعل!

ـ أنت مجنونة، إنه يسبب الإدمان. ذلك مكتوب على العلبة! إنه أشبه بركوب سيارة على حاجبها الزجاجي إشارة تحذير كبيرة: «إذا قدت هذه السيارة ستموت في النهاية». لن تفكري حتى في ملامسة السيارة. إذن لماذا تتجهين إلى التدخين؟ هل يبدو ذلك معقولًا لك؟!

تنظر «سيمون» إليَّ وتهزُّ كتفيها:

ـ أمل، توقفي. أعرف أن ما تقولينه صحيح لكنني لست مهتمة.

تُخرج ولاعة وعلبة سجائر من حقيبتها المربوطة حول خصرها وتشعل سيجارة.

ـ أمر مقرف!

تزفر دخان سيجارتها وتتنهَّد بطريقة ميلودرامية، وتقول:

ـ لا يا أمل، أن أكون سمينة هذا هو الأمر المقرف!

(٢٨)

أريد أن أحلق له حاجبيه وألصق مكانهما ريشًا ورديًا. «تيا» هنا. منذ متى وهي جزء من دائرة صداقاته؟ إنها تقف قرب حمام السباحة، كأس شراب في يدٍ، وفي الأخرى سيجارة، ملقية بشعرها إلى الخلف، وتضحك مع شاب وسيم وتتحدث معه.

نشقُّ أنا و«سيمون» و«إيلين» طريقنا بين الحشد، هناك أشخاص كثر يتسكعون ممن لا نعرفهم، محتشدين يرقصون، ويضحكون، وينمُّون، ويشربون. الكل مقسم على مجموعات، مجموعة الرِّوشين، ومجموعة الوسماء، ومجموعة الواثقين، ومجموعة الخجولين، ومجموعة بكامل وعيها، ومجموعة مترنحة، ومجموعة المتفرجين، ومجموعة المشاركين. التسلسل الهرمي المدرسي موجود بوضوح، ونحن الثلاثة نشعر بالارتباك.

تسأل «إيلين»:

ـ لماذا الكل يحدِّق؟

«سيمون» وأنا نقول في تناغم:

ـ الأمر واضح، أليس كذلك؟

نحدِّق ثلاثتنا بعضنا في بعض باندهاش ثم ننفجر ضاحكات.

أقول:

ـ نحن عصبيات للغاية!

نمشي بمحاذاة الحشد وتشعل «سيمون» سيجارة، ناظرة حولها بقلق وهي تنفث الدخان.

تصيح «إيلين»:

ـ لا أصدقك، «سيمون»! يبدو أنك تفعلين هذا ليكون شكلك مختلفًا فحسب. هل تستمتعين بذلك حقًّا؟

ـ لا! أكره السجائر اللعينة. تفوح مني رائحة نتنة، وما زلت أتعلم كيف أستنشق هذا الدخان!

ـ إذن، لماذا تقومين بذلك؟

ـ هل يمكننا رجاءً ألا نفتح هذا النقاش مجددًا؟ أمل، ظهر آدم. رآنا. إنه يمشي ببطء بين الحشد. إنه يقترب.

ـ «سيمون»، لا أحتاج إلى تقرير إخباري، أستطيع أن أرى. لا تجعلي الأمر مكشوفًا.

بدأ جسدي كله يقشعرُّ. ولحسن حظي أنني أرتدي أكمامًا طويلة وإلا سأكون مفضوحة.

ـ يبدو وسيمًا جدًّا، ما كان ينبغي أن يُسمح له بارتداء «تي شيرت» ضيق وأسود، أليس هو صاحب أكثر العضلات روعة؟

تسأل «إيلين» وهي تطلق ضحكة خافتة:

ـ أما من أخ له؟

أصبح إلى جانبنا في لحظات، نضحك جميعًا فترة ونتحدث قليلًا. دائمًا تكون الأشياء سمجة خارج أسوار المدرسة.

ـ إذن، هل أنتن مستمتعات؟

تقول «سيمون»:

ـ وصلنا لتونا هنا.

تقول «إيلين»:

ـ لكنَّ الجو هنا جميل.

ـ وماذا عنك يا أمل؟

ـ تي شيرت رائع!

يقول مائلًا برأسه إلى الجنب وناظرًا إليَّ بملامح مبتسمة:

ـ أعجبَكِ؟

ـ قصدتُ القماش.

ـ بالتأكيد فعلتِ.

ـ أوه! حسنٌ، تستحق إطراءً واحدًا في عيد ميلادك، على ما أظن.

أحد ما يناديه فتبدو عليه خيبة الأمل:

ـ سأعود حالًا. لا تذهبي إلى أي مكان!

ـ حسنٌ.

تقول «إيلين» مبتسمة لي عندما انصرف:

ـ دون أن يلاحظ إعجابك هاه؟

أتأوَّه، وتلقي بذراعها حول كتفي:

ـ أعتقد أن شخصًا ما معجب بك حقًّا وصدقًا.

ـ لا!

تقول «سيمون»:

ـ بلا ريب، طريقته في النظر إليك.

ـ أشعر بالحر، أحتاج إلى كوب مياه غازية.

نذهب لتناول بعض المشروبات، ثم نختلط مع بعض الأشخاص من المدرسة. ننتهي في الساعة التالية إلى الجلوس على طرف التعريشة، ندرس الحشد ونتساءل لِمَ أزعجنا أنفسنا بالمجيء. تدخن «سيمون» سيجارتها الخامسة، وتخبرني كيف أنه من الصعب أن تشفط بطنها إلى الداخل وهي تستنشق الدخان، و«إيلين» تذهب إلى الحمام لتعدِّل شعرها.

أراقب الجميع مفتونة بتأثير الكحول عليهم. تلك الحالة من التحفظ أو الغطرسة أو الهيبة التي كانوا عليها بداية وصولهم تبدو كأنها تتبخر من أجسادهم. هناك فتاة كانت تنظر إلى الأرض أول وصولها، وتشد قميصها إلى الأسفل متجنبة النظر في عيون الآخرين، ولكنها الآن تقف على الكرسي وترقص كمشجعات كرة القدم. وشاب كان قد دخل بوجه عابس بينما يهرِّج «ألان» محاولًا أن يرقص رقصة «الزوربا» وحده.

تخبرني «إيلين» عندما تعود:

ـ آدم يبحث عنك.

ـ أنا؟

ـ نعم.

ـ أين هو؟

ـ كان يمشي هناك يسأل الآخرين عن مكانك. كأنك غير مميزة هنا، أليس كذلك؟

أبتسم لها ابتسامة عريضة:

ـ تلك هي الفكرة.

ـ تشعرين أنك غير مرتاحة قليلًا؟

تقول «سيمون» مطلقة ضحكة خافتة:

ـ «غير مرتاحة»؟ اليوم بأكمله يشبه السير على منصة عرض الأزياء بينما يلتصق بحذائك منديل حمام.

أضحك أنا و«إيلين» مومئتين برأسينا موافقةً. تومئ «سيمون» فجأة لنا أن ننظر في اتجاه حمام السباحة:

ـ انظروا!

تشير إلى مجموعة من الأشخاص يشجعون «تيا» هاتفين، بينما تقف هي على طاولة تخلع قميصها وتلقي به على الحشد. تبقى عليها حمالة صدرها فقط، وتضحك وهي تحاول الحفاظ على توازنها وهي ترقص، غامزة للحشد وموزعة عليهم القبلات.

نظر بعضنا إلى بعض مندهشات، ثم ننخرط في قهقهات هيستيرية. يظهر آدم أمامنا. نبتسم له ببلاهة وأحاول استعادة هدوئي، وتسوية ملابسي وحجابي.

أقول مبتسمة له:

ـ مرحبًا!

يسأل:

ـ مستمتعات؟

تجيب ثلاثتنا في نفس الوقت:

ـ بالتأكيد!

يسألني:

ـ هل أستطيع التحدث معكِ على انفراد؟

فأبادله النظر محدِّقة فيه باندهاش:

ـ نعم، حسنٌ.

أقفز من فوق طرف الطاولة وأمشي معه بين الحشد ثم إلى الداخل، حيث تنبعث الموسيقى بصخب والأشخاص يرقصون بجنون. أفقد خطواتي مع آدم لحظات بينما أحشر نفسي بين الحشد. كان قد تقدمني عند الباب الفرنسي في نهاية الغرفة. أهرس نفسي بين اثنين عندما يأتي نحوي شاب ويضع ذراعاه حول كتفيَّ، وأنا على وشك الاختناق بأنفاسه.

يصيح بسعادة:

ـ بنت محجبة! أهلاااا بالبنت المحجبة! خبريني، ألديك شعر؟ اخلعي حجابك وارقصي لنا رقصًا شرقيًّا!

يضحك في وجهي وأرغب لو أتقيأ، متسائلة لِمَ لا يجعلونه إلزاميًّا أن يقدموا بنبوني النعناع بعد الكحول. يهمس في أذني:

ـ هاي، هناك إشاعة تقول إن آدم يخطط ليجعلك تزورين سريره! ووو! هووو! من قال إن بنات الشرق الأوسط لا يستمتعن؟

يتفتت وجهي من الصدمة فأنصرف بسرعة. أشعر بالخدر والدوار، ثم أصل إلى حيث آدم فيمسك بيدي ليقودني بعيدًا عن الحشد وعبر البيت. يخرجني عبر باب جانبي، إلى فناء آخر، وهو الوحيد الهادئ والخالي من الناس.

أحس بالذعر تقريبًا، متسائلة عمَّا إذا كان ما سمعته لتوي مزحة سكران أم حقيقة! أجلس على كرسي، غير عارفة ما إذا كان عليَّ البقاء أو الذهاب. يجلس آدم على طاولة مبتسمًا لي:

ـ كنتُ أبحث عنك في كل مكان.

ـ حقًّا؟

ـ نعم، إذن، هل أنت مستمتعة؟

ـ أنا؟ نعم، نعم... بالتأكيد مستمتعة. حفلة رائعة!

ـ يا لكِ من كذابة سيئة. لا يمكنك اختلاق كذبة.

أفرقع أصابعي بتوتر.

ـ إذن...

رأسي سينفجر عبر حجابي ويتشظى على الأرض. لا يقول شيئًا، فقط يدلي قدميه ويحدق فيَّ بشدة تصيبني بالدوار. أنظر بعيدًا، ثم إلى الأسفل إلى يدي، ثم أرفع نظري مرة أخرى نحو وجهه، ثم إلى الأسفل مرة أخرى. لا أريد أن تتغير الأمور. أريد أن تبقى الأمور بيننا رائعة كما هي.

وجهه على بعد سنتيمترات عن وجهي.

ـ أ...أ...

ـ ما الخطب؟

ـ أنا آسفة جدًّا يا آدم...

ـ ما الخطب؟ ظننت أنك معجبة بي ـ ظننت...

ـ آدم، أنا... أنا لا أفعل تلك الأشياء...

ـ أية أشياء؟

ـ التقبيل ـ أقصد المواعدة ـ أعني، تعرف، الأمور الجسدية...

ـ لِمَ لا؟

ـ لأن...

أحس وجهي يحمر:

ـ حسنٌ، الجنس قبل الزواج لا! لا!

ـ لا يمكنكِ ممارسة الجنس قبل أن تتزوجي؟

ـ نعم.

telegram @ktabpdf

يسعل:

ـ مَن قال إننا سنمارس الجنس على كل حال؟

وجهي يحترق بعنف من شدة الإحراج، وأتململ على الكرسي بقلق:

ـ لم أقصد هكذا... يا إلهي! هذا مُحرج جدًّا!

ـ لكِ أم لي؟

ـ لكنني سمعت إشاعة!

ـ لا يمكن أن تكوني جادة!

ـ سمعت... تعرف، أنك تريد أن...

ـ ماذا؟ أفعلها معك؟ تبًّا يا أمل! كم تبدين ساذجة!

يمرِّر أصابعه خلال شعره ويهز رأسه:

ـ إذا كنت سأنام معكِ، ألا تعتقدين أنه سيكون هناك ما تودين قوله بخصوص ذلك؟ وإذا كان الناس يتكلمون عن ذلك، ما شأنك وشأني بالأمر بحقِّ الجحيم؟ هل تعتقدين أنني من النوع الذي يذهب ويتحدث عنك؟

ـ أنا... أحد ما أخبرني للتو أنه سمع أنك تريد النوم معي. اسمع، أعرف أنك لن تتكلم عني بسوء، حسنٌ؟ ولكن هل تعرف كم أحسست أني رخيصة عندما سمعت أحدًا يقول ذلك عني؟

ـ اسمعي، أمل، مجرد رغبتي في تقبيلك لا تعني أني أريد النوم معك!

ـ أتمنى ألا يكون الأمر كذلك!

أقولَ برفق، باذلةً جهدًا لأبتسم له، لكنه يبقى صامتًا ويحدِّق فيَّ على نحو أخرق. وبعد لحظات يتكلَّم.

- إذن، أنت لا تواعدين؟

- إحم... لا!!

- لا أفهم! هذا يعني أنك لا تعيشين اللحظة أبدًا. ستقمعين نفسك دائمًا!

أهزُّ رأسي:

- لا أنظر إلى الأمر هكذا!

- أوه! هيًّا. والداك ليسا هنا ليسمعاك. يمكنك أن تقولي الحقيقة!

- إنها الحقيقة. لا علاقة لذلك بهما. إنه ما أؤمن به!

- إذن، عندما تلتقين بشاب ويُعجبك وتعجبينه... ماذا يحدث؟ تتجاهلين مشاعرك وحسب؟

- لا، ولكنني لست... اسمع، أنا لا أؤمن بفلسفات: «أن تكون لك أكثر من علاقة» و«جرِّب قبل أن تشتري». حسنٌ؟ لا أريد علاقة جسدية مع قائمة من الأشخاص في حياتي. أريدها مع شخص واحد، وأريد أن أعرف أن الأمر نفسه بالنسبة إليه أيضًا. ذلك هو إيماني، إنه ليس عن الشباب الذين يمارسون الفسق، والفتيات العذراوات اللاتي ينتظرن الشاب بصبر. إنه... اسمع، في ديني ينبغي أن يكون كلانا طاهرًا... لم يُمسّ... تعرف؟ آخ! من الصعب جدًّا شرح الأمر... أوه صحيح! «جيسيكا سيمبسون» حافظت على عذريتها قبل الزواج! هاك إذن!

- حسنٌ، أنت تقمعين نفسك!

أستطيع أن أؤكد أنه يفقد أعصابه وأظن أن هذا بسبب الرفض والارتباك، لكن الجو أصبح مجهِدًا وغير مريح.

ـ لست مقموعة، لا أحس أني مهمَلة. ما زال بمقدوري الاهتمام بشخص ما ومشاطرته من دون لقاء جسدي!

ـ كيف ستعرفين أن هذا هو مَن تحبين إذا لم تعرفي شابًّا أبدًا؟ ولم تقبِّلي شابًّا أبدًا حتى؟!

ـ لا توجد وصفة طبية للحب! إذا تعرَّفت على عشرة أشخاص، كل مرة ستختلف عن الأخرى، وكل مرة سأفكِّر أنها مجازفة. وعندما ألتقي أخيرًا بشخص ما، سأكون ما زلت أواجه أكبر مجازفة في حياتي، غير أن عشر تجارب أخرى لن تخبرني ما إذا كان هذا الشاب هو الشخص المناسب. كل شخص هو... فريد جدًّا، ولا ينبغي أن يتم الحكم عليه مقارنة بعشرة آخرين!

ـ ذاك هراء! تحتاجين إلى التجربة! كيف ستعرفين الشخص المناسب إذا لم تعرفي الشخص السيئ؟!

ـ إذن، عليَّ أن أسقط كي أعرف كيف أمشي؟

ـ نعم.

ـ حسنٌ، لا أعتقد ذلك!

يقفز من على الطاولة، ويذرع المكان جيئةً وذهابًا بغضب:

ـ إذن، ما تقولينه أننا جميعًا فاسقون ووضيعون وأنتِ فوق ذلك؟

ـ ماذا؟ لا! لم أقل ذلك! لماذا تفكر هكذا؟ ابنة خالي مع رفيقها منذ عامين الآن. أحبهما كثيرًا، لن أفكر بسوء فيهما أبدًا. ماذا تظنني؟ واحدة وتنظر إلى الآخرين باحتقار فقط لأنني أؤمن بشيء مختلف؟!

لا يقول شيئًا، يهزُّ كتفيه ويزوم وحسب.

ـ لماذا عندما أؤمن بشيء مختلف أكون أنا التي تحكم عليك؟ ماذا عنك وأنت الذي تحكم عليَّ؟ لماذا يكون الأمر مزعجًا جدًّا بالنسبة إليك أن يكون هناك أشخاص لا يمارسون الجنس قبل الزواج؟ أو أن هناك مَن لا يفعلون الشيء الجسدي؟ مَن يهتم؟ أليس هذا شأني؟ أم أن ذلك غريب جدًّا عليك لتتقبَّله؟ واضح أنني أنا التي تقول لك «إذا كنت تحبني افعل ما أريد». يا له من منطق يا آدم!

نتبادل النظر، ثم ينزاح الغضب فجأة عن وجهه، وشيء أسوأ يحل محله. اللامبالاة.

ـ أيًّا يكن ما تؤمنين به فهو راجع إليك!

نبرته جافة وتبدو كأنه وضعها في إحدى تلك الآلات التي تستخدمها ماما لتجفيف الفاكهة، مثل مشمشة امتُصَّ عصيرها، وتُرِكت ككتلة ذابلة وجافة.

ـ ظننت أن بيننا شيئًا أكثر من الصداقة! لكنني أعتقد أننا مختلفان. مختلفان جدًّا!!

يُطلق ضحكة مريرة.

أهمس:

ـ أنت لا تفهمني بعد كل شيء!

ينظر إليَّ بعينين فارغتين ويهزُّ كتفيه على نحوٍ عَرَضي:

ـ أعتقد أنكِ محقَّة، لا تفهمينني ولا أفهمك، نحن متعادلان!

أشعر كأنني سأختنق من شدة التوتر، فأركض إلى خارج الفناء ثم إلى

داخل البيت. أصطدم بـ«تيا» في طريقي وتقف أمامي، منفجرة في الضحك وهي تنظر إليَّ من الأعلى إلى الأسفل.

تسألني، وصوتها خليط مخمور من لهو مغرور ومتغطرس:

ـ ماذا تفعلين هنا؟ أليس ذلك خطيئة بالنسبة إليكِ؟ هل ستُحرقين في النار؟ تتمردين الليلة، أليس كذلك؟ وكل ذلك لأجل آدم؟!

غضب شديد يطرق رأسي، وأنا في هذه اللحظة أكثر اكتظاظًا بالانفعالات من أن أتحرك أو أن أقول شيئًا. تأخذ رشفة من شرابها وتميل نحوي بشكل تآمري:

ـ نصيحة صديقة: ينبغي أن تخلعي ذاك الشيء قبل أن تفعليها معه، لأن ذلك قد يعيقه!

أدفعها. تقع على ظهرها على الأرض، وتتهشم كأسها إلى جانبها.

تصيح:

ـ كدت تجرحينني. كيف تجرئين؟ لِمَ لا تخرجون من بلادنا وتعودون إلى أحد الكهوف الصحراوية حيث تنتمون؟!

أقف فوقها، وقلبي يدق كالطبل في صدري:

ـ هذه بلادي! وإذا نسيت ذلك مرة أخرى فسأفصل رأسك عن جسدك!

أنصرف وأشق طريقي بين الحشد بحثًا عن «إيلين» و«سيمون».

(٢٩)

تسبَّب لي فكرة رؤية آدم يوم الاثنين مغصًا حادًّا طوال عطلة نهاية الأسبوع. أقضي يومي السبت والأحد بطولهما على السرير مع جهاز «الووكمَن» الذي تتفجَّر منه أغاني الحب العاطفية، لكي أشعر بالأسف على نفسي.

هل كان عليَّ أن أتوقَّع ذلك؟ هل أغريته؟ أتذكَّر تحذير «إيلين» لي، لكنني كنت أقضي وقتًا جميلًا وأنا قريبة منه، لدرجة أنني لم أفكر قطُّ أنه سيفسر ذلك على أنه دعوة إلى أن نكون أكثر من صديقين حميمين حقًّا! حسنٌ، صديقان حميمان حقًّا يتغازلان أحيانًا، ويتحدثان ساعات على الهاتف، ويتبادلان التعليقات المكتوبة في الصف، ويتشاطران الأسرار. آخ! لا! يا لي من منافقة كبيرة!

ومع ذلك، هناك جزء فيَّ، جزء صغير يحدث ضجيجًا كثيرًا في رأسي إذ أتساءل عن الشعور الذي كان سينتابني إذا قبَّلني آدم.

الأمر محيِّر! لست نادمة على قراري ولو لحظة، ولكن ما زلت غير قادرة على التوقف عن التفكير في شفته، وما إذا كانت ناعمة أم مقززة، ومبتلة أم رقيقة وناعمة. أتساءل هل يفقد الناس أنفاسهم عندما يقبِّلون؟ هل عليهم أن يتوقفوا تلمُّسًا للهواء؟ يبدو الأمر معقدًا. هل سيصطدم أنفي بأنفه؟ كيف أعرف في

أي اتجاه أميل؟ كان رأسه مائلًا في اتجاه اليمين، لذلك أظن أن عليَّ أن أميل برأسي ناحية اليسار. ماذا سيحدث لو شعرت بأنني أريد أن أعطس؟

تساءلت مرات كثيرة حول هذه الأشياء، لكنني الآن، وبعد أن صرنا قريبين جدًّا، أتساءل أكثر، لأنني عند مستوى معين أودُّ في الحقيقة أن يقبِّلني آدم، وأستطيع تخيُّل ذلك في ذهني بدقة لتلفزيون رقمي عالي الجودة! لا أعرف إن كان شيئًا سيئًا أن أحس بمثل هذه الرغبة تجاهه. ومع ذلك لا أستطيع مقاومة هذا الشعور. كانت رائحته رائعة جدًّا. كان سيكون شيئًا خاصًّا.

لكنني أعرف أن الشيء الأكثر خصوصية بالنسبة إليَّ أن أظل مخلصة لما أؤمن به. أريد أن أكون مع شخص واحد في حياتي. أريد أن أعرف أن الشخص الذي سأقضي حياتي معه، هو أول شخص أتقاسم معه شيئًا حميمًا ومثيرًا. حسنٌ، أنا في السادسة عشرة فقط، ما يعني أن أمامي متسع كبير من السنوات حتى يحدث ذلك. مع ذلك، أنا راغبة في الانتظار، ولكن ليس انتظارًا سيئًا. إنه ليس ذاك الانتظار المزعج والمؤلم الذي تمر به في مركز طبي، أو عندما تكون جالسًا في ردهة مطار تنتظر إعلان ركوب طائرتك المتأخرة.

أفترض أن حقيقة أن تكون لي الحرية الشخصية في الخروج مع شاب وتكوين علاقة معه، وفي تقبيل آدم، ولكنني أختار ألا أفعل، تجعل القرار سهلًا بعض الشيء بالنسبة إليَّ.

ليست لديَّ فكرة عمَّا أتوقع حدوثه في المدرسة. هل سيتجاهلني آدم؟ ألن نتحدث بعضنا مع بعض مرة أخرى؟ هل سيكره أحدنا الآخر؟ هل سيهزأ مني أمام أقرانه؟ هل سأصبح معروفة على أني الحمقاء الفاترة المشاعر؟

ولكن، شيء ما يحدث فيما بعد، شيء لا يحدث خلال عشرة كواكب شمسية مما أتوقع. يفجِّر مجموعة من المجانين ناديًا ليليًّا في «بالي» يوم السبت، قاتلين ومشوِّهين كثيرين من السياح الأستراليين.

أذهب إلى المدرسة غير عارفة بالحدث. إنه واحد من تلك السلاسل الغريبة من الأحداث. إنه أمر سريالي، لأن والديَّ هما أكبر مدمنين على الأخبار، ولكنهما لسبب ما كانا مغمورين بالعمل خلال عطلة نهاية الأسبوع. يخرج كلاهما صباح الاثنين قبل أن أستيقظ، ولذلك لا أسمع الأخبار في أثناء الإفطار. ببساطة أنهض وأتهيأ وأفطر، ثم أدرك الأتوبيس للذهاب إلى المدرسة. لا يفتح سائق الأتوبيس الراديو، ولا تتلاقى نظراتنا حتى. أمرِّر تذكرتي خلال الآلة وحسب، آخذ مقعدي وأتكئ على النافذة وجهازي «الووكمن» في أذني.

عندما أصل إلى المدرسة، هناك إعلان بأن نصطف جميعًا في قاعة الاجتماعات العامة من أجل اجتماع مدرسي كبير. أضع حقيبتي في خزانتي وأتوجه إلى القاعة متسائلة عمَّا إذا كانت «إيلين» و«سيمون» هناك.

أجدهما واقفتين في الطابور فأهرع إليهما. أمرُّ بآدم في طريقي وينظر إليَّ. يرفع رأسه ويتجاهلني، بروده يقطعني كالسكين. أقف إلى جانب «سيمون» و«إيلين»، مغالبةً دموعي.

أسأل:

- ما الذي يحدث؟

- ألم تسمعي؟

تهمس «إيلين» في أذني بينما تمشي مس «والش» على المنصة، ويبدأ المعلمون وشوشاتهم الآمرة بالصمت.

أسأل هامسة:

- أسمع عن ماذا؟

تقول «سيمون»:

ـ بالي؟

ـ هه؟

تنظران إليَّ باندهاش.

ـ إرهابيون فجروا ناديًا ليليًّا في «بالي» يوم السبت. أمر مروِّع!

الأمر أشبه بصبِّ صندوق من الرمل في حنجرتي.

يدوِّي صوت مس «والش» فوقنا:

ـ أعلم كم أنتم محزونون بسبب التفجيرات التي حدثت في بالي في عطلة نهاية الأسبوع. رجاءً تأكدوا أن تتحدثوا إلى معلميكم وإلى الأخصائيين في المدرسة إذا ما احتجتم إلى ذلك. أنا متأكدة أنكم جميعًا ستحصلون على فرصة المشاركة بأحاسيسكم ومشاعركم فيما بينكم في صفوفكم.

إنه أمر معذِّب! لا أحس بالألم فحسب، ولا بالرعب، ولا بالغضب، كل شيء مختلط تمامًا. أفكار متضاربة، ومفككة ومجنونة تمامًا عبرت مخيلتي. كان بابا وماما يريدان أن يحجزا للاحتفال بعيد زواجهما هناك. أيَّة أغنية كانت تصدح عندما انفجر المكان؟ هل كان هناك متزوجون حديثًا يقضون شهر العسل؟ أوه يا إلهي! كيف يمكن أن يكونوا قتلوا هكذا؟ هل كان المفجرون يتفرجون على النار وهي تحوِّل بشرًا أحياء إلى بقايا؟ هل سألقى الذنب بسبب جرائمهم هم؟ هل سيُسمَح لي أن أشارك في حداد بلادي أم إنني سأُلام؟ كم مات من الإندونيسيين؟ هل الناس مهتمون؟ مَن سيهتم بأولادهم؟ هل فقد الإخوة إخوتهم؟ والأمهات والآباء أبناءهم؟ والأبناء أمهاتهم وآباءهم؟ هل سيُترَك الزوج أو الزوجة أو الأب أو الأم

يشاهد ناقوس الموت يدقُّ على التلفزيون من «سيدني» أو «دارون»، متسائلًا عمَّا إذا كان نصفه الآخر حيًّا؟ كان يمكن أن يكون بابا وماما هناك.

أبكي، لكن ذلك يَبدو غريبًا؛ لأنني لا أستطيع أن أنهار أو أتألم، حتى من دون أن أتساءل عمَّا يعتقد الآخرون عني. أجفل كلما تذكر مس «والش» كلمة «مجزرة» مع كلمة «إسلامية»، وكأن هؤلاء البرابرة ينتمون إلى مجتمعي المسلم بطريقة أو بأخرى، وكأنهم الخرفان السود بين القطيع، الشوكة المنغرسة في جنب مجتمعنا. ذلك ما يعطيهم الشرعية، الهوية التي لا يستحقونها. هؤلاء الناس غرباء عن ديننا.

بعد الاجتماع نذهب إلى حجرة اللقاء المدرسية. الجميع تقريبًا عيونهم حمراء وملطخة. صمت قلِق يملأ الصف، آدم يجلس إلى مقعده واضعًا رأسه بين يديه. يقرأ مستر «بيرز» قائمة الأسماء بصوت منهك بينما نجلس بترنح إلى مقاعدنا.

- هؤلاء الإرهابيون الإسلاميون اللعينون! لا بد أن يكونوا هم!

لا أجفل حتى.

يقول مستر «بيرز» بلطف، وهو ينظر إليَّ بقلق:

- يكفي! في هذه الأوقات علينا أن نعرف كيف نوجِّه ألمنا وغضبنا.

أحد آخر يصيح:

- ليس كيف نوجهه، وإنما نوجهه صوب مَن؟!

- لا أريد أن أسمع أي أحد يستخدم ما حدث فرصة لعنصرية قبيحة أو لجعل الأستراليين الآخرين يشعرون أنهم أقل...

يحجب ذهني كلماته. لست مهتمة أن يكون هناك من يدافع عني أو يحميني.

عانيت بما يكفي حتى وقت الاستراحة. أقضي ما يتبقى من اليوم منزوية في عالمي، وأتعجب كم كنت ساذجة عندما اعتقدت أنه باستطاعتي أن أجد مكاني في وطني، وألا أتأثر بالرعب والسياسة في العالم!

ما من مكان آخر يمكنني الذهاب إليه، ولا أرغب في الذهاب إلى مكان آخر. مرة أخرى لا أعرف أين هو موضعي في الوطن الذي تنفست فيه أول نفس في حياتي!

* * *

أرفض الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي، واليوم الذي يليه.

أقول لوالديَّ: «قولوا لهم إنني مصابة بالجدري»، وأقضي اليومين بأكملهما في الفراش.

في البداية هما حذران، لطيفان، متفهمان. ولكن في الليلة التالية أسمعهما مصادفة يتجادلان حول كيفية مفاتحتي بشأن ما إذا كنت سأكون أفضل في المدرسة.

يقول بابا متنهدًا:

ـ ربما كان خطأ هذا الحجاب!

تصيح ماما:

ـ لا تكن سخيفًا! به أو من دونه ستظل دخيلة بالنسبة إليهم! سئمت ذلك! سئمت من الموضوع برمته! إنها في السادسة عشرة فقط وعليها أن تمر بكل هذا؟ ماذا يريدون منَّا؟

ـ لا تصرخي! ستسمعك!

ـ تسمعني؟ لا تحتاج إليَّ لأخبرها. إنها تعيش ذلك كل يوم!

لم أسمع ماما سلبية جدًّا، وقاسية جدًّا هكذا من قبل.

يتجادلان وقتًا طويلًا، وأريد أن أصرخ فيهما أن يسكتا. أغرق في سريري وأضغط المخدة فوق رأسي.

* * *

بعد يومين عصيبين في المدرسة نحضر وقفة احتجاجية مسائية للسلام في عطلة نهاية الأسبوع: والداي، وعائلة خالي «جو»، وياسمين وعائلتها، و«سيمون»، و«إيلين»، و«جوش». نقف هناك بين الجموع، حاملين الشموع، متشبِّثين بعضنا ببعض، مؤدِّين الابتهالات، ومردِّدين أغاني «جون لينين»، ونحن نتمايل مع نسائم ليلة لطيفة، تنبعث منها روائح شموع ككعكة عيد ميلاد، ومأساة، وعدم فهمٍ معذِّب. إنها المرة الأولى التي لم نسائل فيها بعضنا بعضًا، المرة الأولى التي لم نقف خلالها لنفكر في تصنيفاتنا ونسوِّغ مشاركتنا. لم يتحدث أحد عن الهوية أو الدين أو السياسة أو الأيديولوجيا. نتمايل ونحزن مع الجموع وحسب. وثمَّة شيء يتنامى داخلي عندما أرى قسًّا وحاخامًا وشيخًا وناسكًا يقفون معًا على السلالم أمام مجلس البرلمان، ويثبتون لنا أن تصنيفاتنا لا تعني شيئًا مقارنة بما نشترك فيه، وهو الإرادة وحق الحياة!

أستطيع أن أتصور أن ثمة كرهًا كثيرًا موجودًا الآن، وإذا انتهى إلى تحويل الناس بعضهم ضد بعض فإنني سأُشل من الخوف: إنه أمر يوقع في نفسي الغثيان عندما أفكر أننا سنسمح لأولئك القتلة أن ينتهوا منتصرين.

(٣٠)

هذه لحظتي العاطفية المفرطة المبتذلة، ويا ربي! يا ربي! هل أصدِّق ما يحدث؟ أتمدد على السرير مستمعة إلى «سي دي» من أغاني الحب المشهورة، الذي يتضمن أغنية «شانيا توين» «فروم ذِس مومنت» (من هذه اللحظة)، ونعم، سأعترف، بضع أغانٍ لـ«سيلِن ديون». يبدو واضحًا أنني أعاني من حالة اكتئابية خطيرة؛ لأنني أجد أن كل سطر في كل أغنية عبارة عن وصف تام لحياتي. بدت هذه الأغاني فجأة مثل بطاقات الحظ، ومع كل لحن من ألحان البيانو و«السكسفون» أصير أكثر وأكثر كآبة...

أفتقد آدم، وسأستمتع بهذه الجرعة من ألم رثاء الذات ما دمت أستطيع. أفتقد التحدث إليه في التليفون بينما يشاهد كلانا مشهدًا للشرطة والمحامين أو طردًا من «بيج برذر». أفتقد عينيه الضاحكتين، وفضوله، والهشاشة في صوته عندما يحدثني عن أمه، على الأقل أحب أن أعتقد أنها هشاشة، على الرغم من أنني أشك في وجود إشارة خفية إلى لامبالاة وانفصال. أفتقد بحثي عنه في ممرات المدرسة، وإحساسي باحتياجه إليَّ عندما لا يفهم شيئًا ما في الصف. أفتقد طريقته في مشاركة «سيمون» في أكل الجزر والكرفس من دون أن يسألها أي سؤال، وكيف

يصير كل شيء في أعماقي ملخبطًا ومتكهربًا عندما تتلاقى عيوننا في الصف. لم يتصل منذ الحفلة، لم يرسل إليَّ رسالة نصية، لم يسألني عن الواجبات المدرسية، وما نظر في عيني أو جلس معنا في أثناء استراحة الغداء، أو أظهر أقل اهتمام بوجودي على كوكب الأرض. أكره نفسي بسبب إحساسي بالعجز حيال عواطفي بشكل يثير الاشمئزاز؛ لأن ذلك يعني أنني أفتقد السيطرة على نفسي وأتركها هشة مثل شخص معصوب العينين يعبر طريقًا سريعًا بالزلاجة. مكتبة أحمد

لست مغفلة! أعرف أني رفضته وأنه غضب مني لأنه كان يحاول أن يحتفظ بماء وجهه، واستياؤه من اعتقاداتي كان طريقة سهلة لإخفاء حقيقة أنه في الأساس رغب في قُبلة ولكنني صددته. أقصد، أن الرفض الجنسي في عالم المدرسة الثانوية أمر كارثي. أتمنى فقط لو يفهم آدم أنني لست على وشك إخبار العالم أنني رفضته، أتمنى أن يدرك أن الأمر لا علاقة له به. أعني أنني إذا ما رغبت في أن أقبِّل أي شاب في المدرسة، سيكون هو أول شخص على قائمتي، بلا شك. وإذا كان في حاجة إلى حملة علاقات عامة تساعده على استعادة تقديره لذاته، سأكون أول من ينشر الخبر في المدرسة أنه شاب جدير بأن يُحَب. ولكنه عوضًا عن ذلك، هو يفضِّل أن يُبقي الأشياء بيننا باردة كالجليد، وذلك يؤلم قلبي كقضمة الصقيع.

إن لم يكن ذلك سيئًا بما يكفي، فإن ماما تعزيني؛ بأن ذلك يدل على أنني أمرُّ بحب مراهِق، بمرحلة سأتخطاها، وكأنني أريد أن أسمع كلام الكبار المبتذل عندما يغازل آدم واحدة أخرى في حصة الأحياء أمام عيني تمامًا.

* * *

تدنو مني «لارا» خلال الأسبوع، وتسألني بنبرة صوتها التي تقول: «كم أنا

رئيسة اتحاد طلاب رائعة»، عمَّا إذا كنت راغبة في تقديم كلمة في اجتماع المنتدى المُقبل حول موضوع الإسلام والإرهاب.

ـ سيكون ذلك مفيدًا حقًّا يا أمل. أعني أن ما فعله المسلمون في «بالي» كان مريعًا جدًّا، فإذا ما استطعت أن تشرحي للجميع لماذا فعلوا ذلك وكيف يبرره الإسلام، قد يكون بمقدورنا جميعًا محاولة الفهم. ماذا ترين؟

ـ أرى أن... لا!

ـ لا؟ أوه! هيَّا يا أمل! رجاءً. ذلك في الواقع سيضفي نكهة على اجتماع المنتدى المقبل. الكل لديه كمية وافرة من الأسئلة وأنت الشخص المناسب للإجابة عنها.

ـ لماذا؟ لأني مسلمة؟

تقول:

ـ نعم، هذا واضح!

ثم ترمقني بنظرة معناها «وياه وعرفتيها لوحدك»! لِمَ عليَّ أن أتعامل مع هذا؟ أشعر كأن رأسي محشور داخل فرن باستمرار. في كل مرة يحدث شيء في العالم، ويبدأ الساسة ينبحون عن الإرهابيين الإسلاميين، ويكتب الصحفيون عناوينهم البرَّاقة، يبدو الأمر كأنهم يديرون قرص الفرن إلَى أعلى، ويرفعون من حرارته. بدأ رأسي يتحمَّص ويحترق، أحتاج إلى هواء، برودة، أحد ما يمنعني من الانفجار.

ـ أنت مسيحية، صح؟

ـ نعم، ما علاقة ذلك بالأمر؟

ـ حسنٌ، سأقدم الكلمة إذا قدمت أنت كلمة عن «كو كلاكس كلان»(*)!

ـ هه؟

ـ نعم، لِمَ لا؟ كانوا متدينين حقًّا، واضح جدًّا أن ما فعلوه كان من تعاليم المسيحية، صح؟ وماذا عن هؤلاء الجنود الإسرائيليين الذين يفجرون بيوت الفلسطينيين أو يطلقون النار على الأطفال؟

ـ لا يجب أن...

ـ وبما أننا في صدد ذلك في الاجتماع، ربما يستطيع أحد ما أن يتحدث عن جمهورية أفغانستان الإسلامية؟! تذكرين أننا غطينا جزءًا من ذلك في مادة الدراسات القانونية الفصل الماضي؟ إنني فقط أتحرَّق شوقًا إلى فهم كيف يسمح الكتاب المقدَّس للناس أن يلقوا القنابل على الأفغان ومع ذلك يذهبون إلى الكنيسة.

أستطيع أن أحس بالاحمرار يصبغ وجهي، كما يزداد نفسي ثقلًا وغضبًا. أطوي ذراعي فوق صدري وأحدِّق في وجه «لارا».

تبدو متفاجئة وتسعل بتحفُّظ:

ـ اسمعي، لم أقصد إيذاءك، حسنٌ؟ فقط اعتقدت... حسنٌ، إنهم مسلمون وما إلى ذلك، والأخبار تتحدث عنهم، لذلك اعتقدت لأنك مسلمة يمكنك...

أتنهَّد ويتلاشى غضبي فجأة وأنا أحس بالصدق في صوتها:

(*) عبارة عن ثلاث منظمات عنصرية أمريكية منها القديم ومنها ما يزال يعمل حتى يومنا هذا. تؤمن هذه المنظمات بالتفوق الأبيض ومعاداة السامية والعنصرية، وتعمد إلى استخدام العنف والإرهاب. (م).

ـ نعم، ولكن يا «لارا» كلمة مسلم مجرد تصنيف بالنسبة إليهم. وهم في النهاية مجانين ألقوا المتفجرات وقتلوا بشرًا. إنها السياسة. كيف يمكن لأي دين أن يطلب من الناس شيئًا مريعًا كهذا؟

ـ أظن...

ـ وإذا كنت تريدينني أن أتحدث نيابة عنهم، وأتصرف وكأنهم جزء مني، ماذا تخبرينني أنت بما تعتقدينه عني؟

ـ أنا... أنا...

ـ اسمعي، فقط... لا بأس... آسفة... لا أستطيع فعل ذلك.

تهزُّ كتفيها ويبدو أنها تناضل لكي تفهم:

ـ حسنٌ يا أمل... آسفة مرة أخرى إذا أغضبتك أو أي شيء... لم أقصد ذلك حقًّا.

تقترب وتلمس كتفي وتبتسم لي مطمئِنة. لا أعرف لماذا! لكن لطف ودفء ابتسامتها أثَّرا فيَّ. يتسرب التأثير مباشرة عبر حنجرتي، وأوردتي، وأوعيتي الدموية. أبادلها الابتسام. بطريقتها، تجعلني أشعر كأنها أدارت مؤشر الفرن إلى أسفل.

(٣١)

إنه عيد ميلاد ليلى السابع عشر، والذي أتى في يوم سبت، ياسمين وأنا نرتب لها مفاجأة في مطعم في «تشابل ستريت» في «توراك». المشكلة الوحيدة إقناع أم ليلى. ياسمين تريدني أنا أن أتصل. يبدو ذلك مفهومًا على اعتبار أن ياسمين تقع ضمن قائمتها من المهرطقين الذين سيغيرون دينهم.

وقبل أن أتصل، ياسمين معي على الهاتف وتعرض نصائحها في الدقائق الأخيرة. تحذرني:

ـ تأكدي أن تركزي على أنها حفلة مفاجأة، وإلا فإنها ستلوم ليلى على الفكرة وتثور ثائرتها عليها.

ـ حسنٌ.

تضيف:

ـ في الواقع، لا تسميها حفلة، قولي إنه... لقاء... أو تجمع.

أقول متأوِّهة:

ـ هذا مؤلم!

ـ علينا أن نقوم بذلك، من أجل ليلى. إذا بقيت محبوسة في البيت مع أمها في يوم عيد ميلادها أعتقد أن قتلًا متعمَّدًا سيحدث.

ـ حسنٌ، أعرف، أعرف. سأتصل الآن.

عندما أتصل ببيت ليلى يجيب أبوها. يقول بصوته الأجش:

ـ آلو!

ـ إحم... مرحبًا، عمي... إحم... هل خالتي هناك؟

ـ مَن المُتصل؟

ـ أنا أمل.

ـ آلو، أمل. كيف حالك؟

ـ بخير، شكرًا، كيف حالك؟

ـ بخير، سأنادي خالتك.

بعد دقيقة أو اثنتين تلتقط الهاتف:

ـ أمل؟

ـ مرحبًا، خالتي.

ـ آهه! أمل! كيف حالك؟

ـ أنا بخير، شكرًا، خالتي. كيف حالك؟

ـ أوه! لست بخير! لست بخير، أمل. كل ما أقوم به هو تنظيف تنظيف تنظيف. وأولادي! إنهم فوضى. آه! عندي صداع نصفي من هؤلاء الأولاد. لا يهتمون بأمهم. ليلى لا تساعدني؛ كل يوم في غرفتها، تدرس تلك الكتب. كل يوم كتب كتب! أووف! لا تساعدني مثلما كنت أساعد أمي عندما

كنت بنتًا. كيف تكون ربة بيت يومًا ما؟! لا أعرف! لا أعرف! أووف! تجعلني غاضبة جدًّا!

أضغط بأظافري على راحة يدي.

ـ رفضت رجلًا جيدًا تقدم لها الشهر الماضي. هل تصدقي؟ تعتقد أن الرجل الجيد يأتي دائمًا! لا أفهم ماذا فعلت هذه الكتب بعقلها. يا الله! لو أن الله يريها الطريق الصحيح، توقفت...

أقاطعها لأنني إذا سمعت كلمة واحدة أخرى سأتقيأ غدائي. لذلك أغرس أظافري أعمق على راحة يدي، وأبدأ في مسح الجوخ:

ـ إحم، خالتي. عيد ميلاد ليلى السبت المقبل.

ـ نعم، أعرف. سبعة عشر عامًا. ما عادت صغيرة. إنها تكبر وانظري كيف ترفض...

ـ البنات وأنا، نريد أن نرتب لعشاء. جلسة عشاء حيث نأكل ونتحدث. نريد أن نعطيها هدايا ونشتري لها عشاءً؛ حيث يمكنها أن تجلس في مكان جميل معنا وتأكل وتتحدث. تريدين ذلك من أجل ليلى، أليس كذلك؟

أحبس أنفاسي، وأضغط عيني المغلقتين، متحرِّقة إلى موافقتها. يا له من مسح جوخ معتبر!

ـ إه؟ أين هذا العشاء؟ بيتك؟

أسعل وآخذ نفسًا عميقًا:

ـ إنه مطعم، الطعام لذيذ هناك، مكان جميل جدًّا. العائلات والمتزوجون يذهبون إلى هناك ويتناولون العشاء.

أرتعد وأنا أسمع نفسي. لا أعتقد أنني كنت بلهاء تمامًا هكذا من قبل.

ـ مطعم؟ تذهبون في النهار؟

ـ إحم... لا! إننا سنذهب للعشاء.

ـ عشاء؟ لا! لا! لا! ليلى لا تذهب في الليل!

أتوسَّل:

ـ أرجوك، يا خالتي!

أنتقل مباشرة إلى ناقل الحركة الثالث، والانتقال من مسح الجوخ لتقبيل الأحذية:

ـ إنه شيء ستحبه! إنه مطعم محترم جدًّا، ولن نعود في وقت متأخر، نعدك! ستكون في البيت في العاشرة والنصف. أرجوك يا خالتي، إنه عيد ميلادها!

ـ لا! ليلى لا تخرج في الليل! لا أريد لابنتي أن تجلب العار لعائلتها! المشي في الشوارع في الليل عار! تتناولون العشاء في البيت، جيد. ولكن في الخارج؟ مستحيل! إذا رأوها الناس! سيتكلمون! أي عار!

ينسحق قلبي حزنًا وأنا أوافق على تغيير خطتنا وتناول العشاء في بيتنا.

* * *

تتصل بي ليلى تلك الليلة:

ـ سنذهب إلى «تشابل»؟

ـ ماذا؟ كيف عرفت؟!

ـ ماما أفشت السر. لم أعد أحتمل هذا الهراء. أعرف أنني لا أفعل شيئًا خطأ!

ـ لكن... ماذا لو... ليلى، ماذا لو اكتشفت؟ ستُجن!

ـ ستُجن تمامًا!

ـ الأمر فيه مخاطرة كبيرة!

ـ تدفعني إلى الجنون، إنها تحرِّف الأشياء. تدفعني إلى الجنون. وبابا يقضي كل وقته في المصنع، أو في البيت وهو جالس على الأريكة يدخن سيجارته «المارلبورو» ويشاهد النسخة التركية من برنامج الكاميرا الخفيَّة على الدِّش. نحن لا نختلط مع الآخرين، كل شخص غريب هو «صحبة سيئة». قابلت تلك المرأة في المسجد في عطلة نهاية الأسبوع، طالبة طب. دعوتها إلى فنجان قهوة في البيت، ماما قلبت الموضوع رأسًا على عقب. قالت إنه من العار أن تدرس فتاة مسلمة الطب وتنظر إلى أجساد الذكور! هل تصدقين؟ وأخي، «حاقان»، إنه يفعل ما يحلو له. غيَّر اسمه إلى «سام»، وأكون أنا من تتنكر لثقافتنا! عاد إلى البيت في الخامسة صباحًا بالأمس، وكانت قد لفَّت له الطعام في رقاقة من ورق الألومنيوم في حال إذا جاع. نعم، أظن أنه جاع، على اعتبار أنه قد عبَّ كل ما في الحانة من كحول، وأصابها بالجفاف. أوه! ولكن اذكري لها أن ابنها يشرب مثل مدمن كحول فإنها تنسى بارتياح أن ذلك أكبر خطاياه. وماذا عن رفيقته المنحلَّة؟ التقطها من أحد البارات، وتأتي إلى هنا ونصفا ثدييها بارزين ليتفرج عليهما العالم، وماما تدعه يفلت من ذلك من دون عقاب! حتى إنه لا يبدي احترامًا كافيًا لعائلته بأن يطلب منها أن تضع سترة أمام ماما وبابا. شيء يصيب بالغثيان! فكرتها في توبيخه فقالت: أوه «حاقان»، أوجِد لك بنتًا جيدة واستقرّ. لكنها تضحك فيما بعد عندما يتباهى كيف أن رفيقته مجنونة به. لا أعرف ما الذي يعجب تلك المنحلة فيه. أعرف أنه يدخن الحشيش؛ لأنه يأتي إلى البيت أحيانًا وهو مهتاج، وتعتقد ماما أن يومه كان عصيبًا في العمل وحسب. جميعهم يصيبونني بالغثيان! لا أفهم كيف لي صلات جينية معهم!

أسألها بقلق:

ـ ماذا لو هاتفتْ والديَّ؟

ـ سأخبرها أن تتصل على نقَّالي؛ لأننا سنكون على اتصال بالإنترنت ونستخدم خط الهاتف. سأخبرها أننا متصلون بغرفة دردشة خاصة بإيجاد شريك حياة تركي، وأننا نحاول إيجاد زوج مناسب لي. ذلك سيُسعدها.

* * *

في اليوم التالي في المدرسة أمشي عبر المدخل عندما أرى آدم يلعب بكرة السلة ويجعلها تثب في طريقه إلى خارج المبنى. ينظر إليَّ على نحو أخرق، وأبادله النظر على نحو أخرق، ثم يشيح كلانا بنظره على نحو أخرق. ثم يحدث شيء محرج فعلًا؛ يمشي إلى يميني، ولكنني أظن أنه سيمشي إلى يساري. نقوم بحركة «اليمين ـ اليسار» مرتين وأشعر بالخزي حتى أودُّ لو أذوب على الأرض أسرع من بسكويتة مغموسة في الكاكاو. ثم، وبينما يهمُّ بالخروج عبر الباب، يستبدُّ بي شعور ما فأصيح به أن ينتظر دقيقة.

يسألني بنفاد صبر:

ـ ماذا؟

ـ ما الذي حلَّ بك مؤخرًا؟

ـ ما قصدك؟

ـ أوه! إذن ذلك في رأسي فقط، أليس كذلك؟ مجرد تفكير بناتي، هاي؟

ـ امنحيني مُهلة يا أمل. ما قصدك؟

ـ لِمَ لا تعاملني على نحوٍ أقلَّ قسوة؟ بتَّ تتصرف بتكبُّر شديد مؤخرًا. لم أقصد أن... أعني لم يكن الأمر له علاقة برفضي لك. هذه أنا، هذا ما أؤمن به. هل يعطيك ذلك الحق في تجاهلي؟ لماذا صرت تتصرف كأني واحدة غريبة؟!

- لم أفعل!

- بل فعلت!

- لم أفعل!

- بل فعلت!

- أمل، هل تظنين أني سأمشي بين الناس مثل ضعيف فقط لأنك لم... بسبب ما حدث في حفلتي؟ لأني حاولت أن أقبِّلك ولم ترغبي؟ لأن دينك يقول إنه لا يمكن أن تكون لك علاقة طبيعية مع شاب قبل أن تجدي المناسب؟ ذلك جيد وحظ موفق لك، إنها حياتك. أعني، أنه شيء حدث في لحظته فقط فلا تتوتري، وأنا تجاوزته تمامًا!

- أوه!

(إنها اللحظة الخاطئة أن أبقى خرساء. أين ردِّي اللاذع؟ هيا يا عقلي.)

يقول وهو ينقِّل قدميه على الأرض بنفاد صبر:

- على كل حال، الشباب ينتظرونني في الملعب.

- ممم...

(هذه خيانة. عقلي خانني كليَّةً.)

بعد أن ينصرف، أهرع إلى مبنى الحمامات وأقفل على نفسي في أحد الحمامات، مغالبة دموعًا غبية مثيرة للشفقة. يبدو جسدي في حالة خيانة تامة، يدرك ذقني أني في حاجة إلى أن أبقى هادئة فيرتعش. مجاري دموعي تعرف أني لا أستطيع العودة إلى الصف بعينين حمراوين منتفختين فتصرُّ على الانهمار مثل شلالات «نياجرا».

بينما أغسل وجهي تدخل «تيا» و«ريتا». يريانني فيتوقف حديثهن على الفور.

تسألني «ريتا» بقلق:

ـ ما الخطب؟

لا رد.

تقول «تيا»:

ـ نعم، ما خطبك؟

آخذ نفسًا عميقًا وأغلق الحنفية:

ـ لِمَ لا تعودان أنتما الاثنتان إلى فعل ما أنتما بارعتين فيه؟ اذهبا وسبِّبا اضطرابًا في الأكل لأحد ما، لفِّقا بعض الإشاعات، خذا حيوانًا ما أضحية للشيطان، ولكن اغربا عني وحسب!

تقول «تيا»:

ـ تعرفين، أمل، لديك أسوأ مزاج!

تقول «ريتا»:

ـ نعم، وكأنك تعانين من متلازمة ما قبل الدورة الشهرية طوال الوقت!

أقول:

ـ جيد، فكرة أصيلة أخرى لـ«ريتا ماسون».

تقول «تيا»:

ـ ربما نحن متبلدتا المشاعر، أحدهم هجركِ، أمل؟

تقول «ريتا» مقهقهة:

ـ نعم، هل كان آدم؟

تقول «تيا» مبتسمة بتكلُّف:

ـ جميعكم أصبحتم عصافير كناريا مُحبة، أليس كذلك؟ آدم وأنت، «جوش» و«سيمون». حسنٌ، ثمَّة شيء ينبغي أن يُقال في تجاذب الأضداد: السمينة والنحيل. الأنيق والمتخلِّفة عن ركب الموضة. هاي «ريتا»، ربما عليَّ أن أضع مفرش مائدة فوق رأسي وأعيش على ألواح شوكولاتة «سنيكرز» وسأجد رجلًا أيضًا!

تنفجر «ريتا» ضاحكة وأطلق لهما ابتسامة العارِف:

ـ لا بدَّ أن ذلك يحرقك، يا «تيا»؟ أقصد: ها أنت تشربين مياهك المعدنية، وتسمِّرين بشرتك بمستحضرات التجميل، وتملسين شعرك وترمين نفسك على «جوش»، لكنه يختار «سيمون».

تطوي ذراعيها وترمقني بعينين ضيقتين غاضبتين:

ـ دعيني أصحِّح لك شيئًا، لم أركض خلف «جوش» قط. ولو كنت أريده لحصلت عليه.

ـ لا بد أنك تمزحين، صحيح؟ «تيا» أنت أكثر من مجرد مبتذلة. هل يحدث ذلك معك تلقائيًّا أم إنك تسهرين حتى وقت متأخر في الليل وتتدربين على كل هذا الأداء «الهوليوودي» الدرامي الغبي لدور ملكة السفالة؟

وقبل أن أمنحها فرصة الرد أنصرف. لو كان ثمَّة من لحظة بدا فيها التعليم في المنزل مغريًا، فهذه هي.

(٣٢)

إنها ليلة دافئة من ليالي أكتوبر، والسيدة «فاسِلي» وأنا نجلس في الخارج في شرفتها نحتسي كوبين من الشوكولاتة الساخنة. إنها ترتدي الشال، استغرق الأمر منها وقتًا كي تظهر أمامي بالشال. في كل مرة أزورها أرى شُرَّابة أو اثنتين مُنسلَّتين من خزانة الرواق. وذات مساء اتجهتُ إلى الخزانة، أخرجت الشال ووضعته حول كتفيها.

تقول بصوت أجشّ، محاولة إنقاذ كبريائها:

ـ كان ينبغي أن يكون أسود.

أقول مازحة بتعمُّد:

ـ كان ينبغي أن يكون أي لون عدا الأزرق؟

فتنظر إليَّ لحظة ثم تفلت ضحكة جافة قصيرة.

تقول شادَّة الشال أكثر حولها:

ـ نعم، أي لون عدا الأزرق.

أسألها الليلة:

ـ ألا تحسين برغبة في الاتصال به؟

تقول بفظاظة:

ـ أهيانًا.

أقول وأنا أهزُّ لها بإصبعي:

ـ ألن يغضب منك عيسى لأنك تكذبين، سيدة «فاسِلي»؟

تقول بقسوة:

ـ لا تمزهي معي بعيسى!

ـ لا تكذبي عليَّ بشأن ابنك.

تتنهَّد وتعود لتستند على كرسيها وتعبث بشرابات شالها:

ـ هو لم يتسِل بي!

ـ لكن لا بد أنه اتصل في البداية. ماذا حدث؟

ـ قلت له لا أريده أن يتسِل بي.

نظر بعضنا إلى بعض بحذر شديد. هي غير متأكدة من مقدار ما ينبغي أن تفصح عنه، وأنا غير متأكدة إلى أي حد يحق لي التدخل.

ـ لكن... من الواضح أنه لذلك لا يتصل.

ـ هه.

لا تتأثر.

ـ سيدة «فاسِلي»، أعرف أنه يؤلمك، أن يرفض دينك...

ـ دينه!

ـ حسنٌ، دينه. ولكن كل شخص... لا يمكنك أن تقاطعيه هكذا!

ـ أعرف لا خلاص له الآن. كيف أكون سعيدة؟ كيف أراه وأنا أعرف أنه سيدخل النار؟ كل زلك بسبب تلك التي تزوجها!

ـ لكن... لكن... لا أحد يعرف أين ينتهي مصيره. لا أحد باستطاعته أن يأخذ دور الله في التحكم في مصائر الآخرين.

ـ أعرف أنه اختار دينًا خطأ.

ـ نعم، ولكن بعد ذلك كل الناس سيقاطعون بعضهم بعضًا إذا صنفوا بعضهم بعضًا حسب مَن يدخل الجنة ومَن يدخل النار.

ـ هه! أنت لا تفهمي. عندما يكون عندك ولد ربما تفهمي. يدخل دين آخر وتجلسي مُرتاهة؟!

أغضِّن وجهي لأفكر:

ـ لا أعرف... ولكن ألا تفتقدينه؟ لا أفهم ما يحدث. أتقولين لي إنه إذا ما دخل ابنك من الباب الأمامي لبيتك ستغلقينه بعنف في وجهه؟

ـ تظنين الهياة مثل الأفلام. أنتم مولودون هنا ولا تعرفون ما هي الهياة. تعيشون هياة سهلة. لا تمرُّون بما نمرُّ به. تغيِّري دينك وثقافة أمِّك وأبوك كما تغيِّري الملابس. ابني لم يهترِم أمه وأبوه... أنت، أنت تفكري، أعرف، أني امرأة سيئة. أرفض ابني ولا أتكلم معه. لكن أنا أُمّ. نعم؟

أومئ برأسي.

ـ تسألين إزا جاء ابني أغلِق في وجهه الباب؟

ـ نعم.

ـ أنا أُم. سـ... سأقوم... اسمعيني. أولًا هو لن يأتي إلى بابي! أغضب عليه وأقول أشياء وهو يقول أشياء. ألومه على موت أبيه. أبوه مات بسكتة قلبية وأنا ألوم ابني. وفي داخلي ما زلت ألومه. وأنا غاضبة وهزينة وأدعو أن يعود إلى عيسى. ولكن تأخر الوقت كثيرًا. أنا لا أتسِل به. بعد كل ما فعلته له يرفض. ولا يتسل بي... ما عاد يتسل بي... إِزن... لن تنهلّ المشكلة يا أمل!

تنظر إليَّ بحزن وتتنهَّد.

ـ اسمعي، أعرف أنك بنيت حياتك هنا من الصفر، من دون أن تكون عندك لغة إنجليزية، ومن دون أمك وأبيك أو أصدقائك. ولذلك فقد يعني الوفاء بالنسبة إليك كل شيء، خصوصًا بالنظر إلى أن لك ابنًا واحدًا فقط.

ـ نعم! تفهمي الآن!

ـ وعملت بجهد فعلًا، عرفت وفاة والديك بالبريد، ولم تعرفي قطُّ كيف يكون شعورك أن تكون لك عائلة ممتدة.

ـ نعم، بالضبط. هياتي قاسية جدًّا جدًّا!

ـ وعمل زوجك بكد من أجلك ومن أجل ابنك، حتى يبني لكما حياة جديدة هنا.

ـ ليباركك عيسى.

ـ حسنٌ إذن، ما لا أفهمه هو لماذا تعاقبين نفسك بالوحدة عندما تكون مكافأتك في الكِبر ابنَك وعائلتَه! لا أفهم. لم لا تتصلين وحسب؟!

تصيح، وتلقي برأسها بين يديها وتهزُّه:

ـ لا! لمازا لا يتسل هو بأمّه؟!

ـ وكيف ستعرفين ما لم تتصلي؟ ربما يعتقد أنك ستغلقين الهاتف في وجهه.

ـ دائمًا إجابة غبية! لمازا أسمعك؟ أنت طفلة! لا تفهمي!

ـ أظن أنني أفهم سيدة «فاسِلي»... أفهم أنك تركت وطنك من دون أن تعرفي حتى لِمَ أتيت، وأنك فقدت أطفالك من دون أن يكون هناك كتف أمٍّ تبكين عليها. أفهم أنك متدينة بحق، وأن ابنك فطر قلبك عندما تحوَّل عن دينه. أنحدر من عائلة متدينة. أستطيع أن أتخيَّل كيف ستكون ردة فعل والديَّ لو فعلت الشيء ذاته.

ترفع ناظريها نحوي باندهاش.

ـ ولكنك وحيدة الآن... بعض الناس يعيشون في الألم متمنين لو توفرت لهم دقيقة واحدة فقط؛ ليكونوا مع مَن يحبون ممن تركهم. الأمر بيدك... لديك ابنك الوحيد هناك، ويمكنك قضاء ما تبقى من حياتك مجتمعة بشمله.

تنظر إليَّ بانفعال، وأتوقَّعها أن تصفعني أو تأمرني أن أخرس، لكن جسدها يبدو واهنًا، هيكلها يتهاوى في كومة، عيناها تتدفق بالدموع:

ـ لا أعرف مازا أفعل!

تهمهم وهي تحدق في الأسمنت:

ـ أنا فقط لا أعرف مازا أفعل!

المكان مظلم جدًّا في الحديقة. كل ما هنالك ضوء وحيد في الشرفة،

يلفُّنا في دوامة من ظلال وبركٍ نورية زائفة أو حلكة مسائية. الحشرات الليلية تحتفل حولنا بصخب كاسرةً صمت الشارع.

أدنو منها بحذر. أمدُّ يديَّ لألمسها، ولكنني أتراجع خائفة، مِمَّ؟ لا أدري. هل خفت أن ينتقل ألمها بطريقة ما من جلدها إلى جلدي؟ أمدُّ يديَّ مرة أخرى، فأضع يدًا واحدة فوق كتفها وأنا جالسة على ذراع الكرسي. لا تتحرك، تجلس منكمشة وحسب، متحررة من القوة والغضب. لا تقول أي شيء فأتكلم.

ـ أجهضت ماما ثلاث مرات. لم أعرف حتى إذا كان سيكون لي أخ أو أخت.

تتحرك قليلًا، ولكنها لا تتكلم.

ـ أخبرتني أن بعض الناس كانوا يقولون لها أشياء غبية فعلًا عندما كانوا يأتون لزيارتها، وحاولوا أن يجعلوها تشعر بالتحسن. كانوا يقولون لها إن الله أنقذها من طفل سيئ. يا له من شيء فظيع! أو كانوا يقولون لها إنها لم تعرف الطفل، ولذلك لا ينبغي أن يؤلمها ذلك كثيرًا، وأنها ستتخطى ذلك. كيف يكون الناس حمقى هكذا؟ لأنني أعرف في الحقيقة أن ماما تتألم حتى اليوم. ربما أنت غاضبة جدًّا؛ لأنك تعتقدين أنك فقدته. لكن، أليس ذلك، مثل... اسمعي، لا تجهضيه سيدة «فاسِلي». ليس بسبب الدين. لا شيء يستحق ذلك.

نجلس صامتتين. ثم أفلتُ ضحكة مجفِلة.

ـ لا أعرف لماذا أخبرك بكل هذا سيدة «فاسِلي»؟ لماذا أهتم؟ إنني لم ألتقِ بابنك حتى. لأنني في الواقع عندما أفكر في الأمر، أعتقد أنك أكثر جارة نكدية ومتذمرة قابلتها في حياتي!!

ترفع ناظريها نحوي وأتمكَّن تقريبًا من تبيُّن رعشة ابتسامة.

تقول ببطء:

ـ يا لكِ من بنت وقحة.

ـ اسمعي، إذا لم تتصلي به، أعتقد أني سأفعل، لأنك عنيدة جدًّا! إنك تُخجلين بابا! هناك تلك المقولة العربية التي تقولها ماما دائما لبابا عندما يكون عنيدًا جدًّا. تقول إن عقله يصبح مثل الجزمة.

ـ جزمة؟

ـ نعم.

أهزُّ كتفي:

ـ أعتقد معناها يضيع عندما تترجم.

تنفجر ضاحكة. لا تتوقف، صدرها يعلو ويهبط، ثم تتكئ على كرسيها وهي تمسح عينيها وتهتز من الضحك بينما تتلمس رئتاها الهواء. أنظر إليها فأتفاجَأ ونحن نجلس في الشرفة، عجوز بشالها ذي الشُرَّابات، وأنا بحجابي، ونكتشف أن بيننا ارتباط كاف لتؤثر إحدانا في الأخرى. ونضحك.أكثر عندما ندرك أننا ارتبنا في ذلك يومًا ما.

(٣٣)

الحياة في المدرسة الثانوية كلها عن التبعية، وتحديدًا، عن اليد العليا (اليسرى أو اليمنى لا يهم). دعوني أشرح لكم: سواء كنت تغلبت على سخرية ما، أو على حَب الشباب، أو على تكتل دهني، أو على رفض عاطفة، أو على رغبة غير مشبعة، أو على سفالة، أو على كل ما يمكن أن يجعل المدرسة الثانوية مكانًا جميلًا (طبعًا لا)، فإن ذلك يعتمد كليًّة على من تكون له اليد العليا. مثلًا، «تيا» وأنا، في جهودنا المستمرة في تدمير إحدانا الأخرى، ننهمك في صراع من أجل أن نثبت مَن له اليد العليا. في بعض الأيام تكون ردودها اللاذعة أبلغ كثيرًا من ردودي، وتعرف كلٌّ منا أنها انتصرت عليَّ. وفي أيام أخرى، ولأقل ذلك بصراحة وعلى بلاطة، مسحتها بأستيكة.

هذا ما أفكر فيه بينما أشاهد مستر «بايبر» يطوِّح بذراعيه في الهواء، ويذرع الصف في غمرة تحمُّسه لشرح معركة «السُّوم» في الحرب العالمية الأولى. لا أفهم حقًّا كيف يستطيع المعلمون إدخال أنفسهم في حالة ذهنية مظللة كهذه؟ كيف يمكن له أن يعتقد، عند أية درجة من الصدق، أننا مهتمون؟ ألا يدرك أنه تمكن من جعل «تيم» و«ريتشل» و«كارلوس» ينامون في الصف

الخلفي؟ وعلى يميني هناك «تيا» و«ريتا» و«كلير» يخبئن المجلات في كتبهن المدرسية ويتظاهرن بالاستغراق في الفصل السادس.

حسنٌ، أهلًا، أهلًا. آدم، الذي يجلس إلى المقعد قريبًا مني، والذي لم تلتقِ عيناه بعينيَّ منذ بداية الحصة، فجأةً تلتقي عيناه بعينيَّ، و... انتبِهوا، يقلِّب ناظريه. ليس سيناريو تقليب ناظريه فيَّ، ولكنه سيناريو تقليب ناظريه في الأستاذ تضامنًا مع زملائه. أتساءل عمَّا إذا كانت هذه فرصتي لأكسب اليد العليا مجددًا. لأنه حتى الآن هو من يحظى بالامتلاك الكلي بلا ريب. في البداية، أنا من حظيت بذلك، عندما رفضته. ولكن بعد حادثة الرفض بسبب المبادئ وليس بغضًا لآدم، فإن التصرُّف العابس، الذكوري الذي أبداه آدم لمدة أسبوعين مكَّنه من استعادة اليد العليا. أعتقد أنني قد أحاول إعادة الأوضاع إلى طبيعتها مرة أخرى. ولذلك أمرِّر لآدم الملاحظة التالية، مهروسة داخل غطاء قلمي الحبر السائل لأتجنب عيني مستر «بايبر» اليقظتين: «هل تعتقد أنه يلبس هذا الشعر المستعار حينما يخلد إلى النوم؟ بالمناسبة، ما قصتك مع الإمساك الكلامي؟».

يستمر باقي حديثنا الأدبي على هذا النحو:

آدم: لا، سيخلعه. ربما سيضعه في بيت للكلاب طوال الليل. ملحوظة: نفد من عندنا الملين.

أنا: هناك دائمًا عصير خوخ.

آدم: ذلك سيؤثر على استهلاكي لساندويتشات السردين والموز.

أنا: لذييذ...

آدم: لاحظت الآن فقط أن خطك رديء جدًّا بالنسبة إلى فتاة.

أنا: شكرًا ☺ إذن، قبّلت أحدًا مؤخرًا؟ هاها ☺ ☺

آدم: معاذ الله! ذلك إثم! ملحوظة: أكره عندما يرسم الأشخاص، وخصوصًا البنات، وجوهًا مبتسمةً غبية. هناك كلمات كافية في القاموس تعبِّر عن الفرح. وسِّعي من مفرداتك، وتوقفي عن ترويج الفن السيئ.

أنا: ☺ ☺ ☺ ☺

آدم: ناضجة.

أنا: ألا تعتقد أن لون شعره المستعار لا يتلاءم مع لون الزغب على أذنه؟

هناك شيئان أودُّ قولهما بخصوص ملاحظاتنا الثقافية المتبادلة: أولًا: أن الأمور تعود إلى طبيعتها بيننا. ثانيا: لقد ضبطني مستر «بايبر» حالًا.

ـ أمل عبد الحكيم!

نطقه لاسمي الأخير جدير بالثناء.

ـ إحم.. أفندم يا مستر «بايبر».

ـ ناوليني تلك الملاحظة فورًا! لن أتسامح مع الطلاب الذين يلعبون في صفي!

كما يعرف أي طالب حكيم، عندما يضبط معلم معك ورقة تبادل ملاحظات، ينبغي عليك أن تفرك الورقة جيدًا على أمل أن يتلطَّخ الحبر في الورقة ولا تصبح الكلمات مقروءة. أفرك الورقة بجنون.

لا ينجح ذلك! أعتقد أن القلم من تلك الماركات التي يجف حبرها بمجرد احتكاكه بالورقة. يا لها من أقلام فعَّالة غبية! أناول مستر «بايبر» الورقة، ووفقًا للدرس الأول في شهادة الدبلوم في التعليم الذي يقضي بأنه

يجب على المعلمين دائمًا أن يجدوا متعة بالغة في إذلال وفضح الطلاب، يقرأ الورقة بصوت عالٍ. يحمر وجه آدم مثل قطعة فحم مشتعلة ويرمقني بنظرة متعاطفة. الباقون يضحكون ضحكات نصف مكبوتة، بينما تبتسم لي «سيمون» و«إيلين»؛ تبتسمان ابتسامات مسانِدة. يتنهد مستر «بايبر» ويقلِّب ناظريه فيَّ:

ـ بصيرتك النافذة مُلفِتة يا أمل!

يقول بنبرة ضجِرة وساخرة، مسقِطًا الورقة على مقعدي:

ـ من المريح أن أعرف أن هناك أشخاصًا في صفي لهم من النضج والذكاء ما يجعلهم يخرجون بملاحظات ازدرائية عن المظهر الخارجي للآخرين!

والآن بماذا بحق الجحيم سأرد على ذلك؟

ـ ما لديك قوله دفاعًا عن نفسك؟

قارئ أفكار لعين.

ـ أنا آسفة حقًّا، مستر «بايبر»!

ـ لماذا؟

ـ لأنه كان خطأ مني أن أسخر منك!

ـ لماذا؟

ـ لأنه، إحم، نفاق وعدم إحساس من جانبي!

ـ لماذا؟

- لأنني أيضًا لا أرضى أن يسخر مني الآخرون!

- إذن، ندمك ينبني في الأساس على حقيقة تعاطفك معي؟ مجرد تقمُّص عاطفي حثَّك على الاعتذار؟

هذا أحد الأسئلة المراوِغة. متأكدة أنه كذلك.

- مم...

- ذاك ما ظننته. لا تدعيني أضبطك مرة أخرى وإلا ستتعرضين للحجز.

- نعم مستر.

* * *

تصل «تيا» إلى المدرسة في صباح اليوم التالي وحول ذراعها ضمادة. لم تمضِ دقيقتان وخمس ثوان في حجرة اللقاء المدرسية إلا وجميع طلاب الصف يُجبَرون على سماع حكايتها المروِّعة.

تقول وهي تنشَق، وتمسح أنفها بمنديل لتضفي تأثيرًا دراماتيكيًّا:

- تعرضت لهجوم!

- كيف؟

- مستحيل!

- يا للمسكينة! ماذا حدث؟

- حسنٌ.

تقول وهي تجلس إلى مقعدها، وتضم قدميها بحشمة.. لا، فهي ترتدي ملابس تحتية سوداء.

ـ كنت في نادي «هييت» الليلي...

تقول «كريستي» بصوت عالٍ:

ـ لكنك لم تبلغي الثامنة عشرة بعد!

ربما كانت هناك مخدة على الأرض إلى جانب المهد بعد كل شيء، فلم تُصَب «كريستي» بارتجاج في المخ.

ـ لديَّ طرقي الخاصة!

تعلِّل بنبرة متظاهرة بالخجل ومعتدَّة بنفسها:

ـ كنت مع أختي وأصدقائها في الجامعة.

ـ أوه!

بعض البنات والشباب مبهورون تمامًا.

ـ كنت على المنصة أرقص مع أصدقائي عندما أقبلت تلك المجموعة من الآسيويين ليرقصوا قريبًا منَّا.

تبدأ «إيلين» بالخربشة بغضب في كتابها، صابَّةً جام غضبها على قلمها حتى ينكسر نصفين.

ـ عرفنا أنهم أصحاب مشاكل فور رؤيتنا لهم. لديهم تلك النظرة وحسب، كما تعرفون.

تسألها «ريتا»:

ـ أية نظرة؟

تردُّ «تيا» بحدة:

ـ تلك النظرة، تجرَّأ أحدهم وقفز إلى المنصة، وبدأ يحاول الرقص قريبًا منا بشكل بذيء. أخبرناه أن يغرب عن وجوهنا. كان ذلك شيئًا مقززًا!

تقول «كلير» في عدم تصديق:

ـ لا!

تزعق «ريتا»:

ـ كيف يجرؤ!

يسأل آدم بارتياب:

ـ هذا عندما كنت على المنصة؟

تجيب بحدة:

ـ نعم، المضايقات تحدث في أي مكان.

ـ همم.

تنظر إليه بغضب وتستدير إلى جمهورها، الذي زاد من «كلير» و«ريتا» إلى بعض البنات والشبان الآخرين الذين لهم علاقة حب أو كره معها؛ كره لمظهرها وسفالتها، ولكنهم ينتشون حين تقول لهم كلمة لطيفة واحدة أو تعيرهم أقل انتباه.

ـ وضع يديه القذرتين عليَّ فصفعته، ثم وقعتُ من فوق المنصة وجرحت ذراعي!

ـ أوه! لا!

ـ عليك أن تقاضيه!

يقول «جوش» مغمغمًا لآدم:

ـ أكيد لم تتعثري بكعب حذائك؟

تتجاهلهما «تيا».

ـ بصدق، أصبحت النوادي الليلية مبتلاة بعصابات مثيرة للمشاكل. سأتجنب الذهاب إليها بسبب هذه الأنواع من الناس. إنه أشبه بغزو للـ...

ترشق «إيلين» بنظرة حادة، ولكنها تواصل باعتداد وهي تعرف أن رسالتها قد وصلت:

ـ بابا محقٌّ، تعرفون، إنه يتوقَّع أن ينقرض الأستراليون الأصليون من هذه البلاد قريبًا!

ترمقنا شزرًا، بينما أشرح للجميع بالتجربة العملية، ومن دون أي كلام كيف يمكن للبشرة أن تتحول بسرعة من اللون الأبيض إلى الأحمر البركاني. أنا على وشك قول شيء، «إيلين» على وشك قول شيء، «سيمون» وآدم يظهران إشارة إلى رغبتهما في قول شيء، لكننا لا نضطر إلى ذلك؛ لأن «جوش» يتكلم عوضًا عنًّا.

ـ حسنٌ، نظرًا لعدد الأشخاص الذين تنامين معهم، ينبغي أن تكوني قادرة على حل تلك الأزمة وتزويد بلدة كاملة بالسكان!

منتهى الفجاجة! منتهى الإهانة! منتهى السوقية!

لا نستطيع الكفَّ عن الضحك.

(٣٤)

نُدعى ليلة الجمعة إلى عُرس صديقة للعائلة. يعرف والداي أهل العروس منذ مدة بعيدة عندما كنت ما زلت رضيعة تلبس الحفاظات. لم نكن على اتصال فعلًا، لكنَّ والديَّ التقيا بهما في بيت صديق مشترك منذ عدة أشهر وتلقيا الدعوة بعد ذلك بقليل.

هناك حوالي أربعمائة وخمسين مدعوًّا، والعُرس مُقام في صالة استقبال ضخمة تطل على بحيرة تتلألأ وكأنها معبأة بـ«السفن أب»! هناك أربعة مطربين يغنون طوال الليل وفرقة مكونة من عشرة أشخاص. وهناك عشرة أشخاص في حفل العروس.

يبدو عُرسًا صغيرًا. هذا بحسب بعض المدعوين الذين يحبون الأعراس؛ لأنها تمنحهم فرصة التهام كل الطعام بينما يمسحون بنظراتهم القاعة الممتلئة بعائلاتهم وأصدقائهم، في مهمة الكشف عن أي فرصة لطعن الآخرين في ظهورهم. ندعوهم نمَّامي الأعراس. إنهم مشهورون بحضورهم المكثَّف لأعراس كثيرة، يحضرون عُرسًا تلو الآخر، ويمتصون (أو يختلقون) إشاعات طازجة، ثم يتقيؤونها.

عُرس الليلة سيسيل لعآبهم؛ فالعروس سورية والعريس أفغاني. وطبعًا، الأفواه الكبيرة وعادة ما تبدأ كلامها بعبارة خافتة «لا تقولي إنني قلت لك إن....».

العروس، أمينة، التقت بـ«حُسنو» في آخر سنة لتأشيرته المؤقتة. تعمل موظفة هجرة، والتقيا في مركز الرعاية الصحية لطالبي اللجوء حيث تعمل. والأمر كله بسيط جدًّا، وقعا في الحب وتمت خطبتهما. وهكذا أخذ يرقص لسان نابشي الفضائح من السعادة: إنه أجمل منها بكثير، ما يثبت أنه تزوجها من أجل التأشيرة فقط. إنها على عتبة الثلاثين فهي حقًّا وصدقًا كان سيفوتها القطار. أهل العروس دفعوا غالبية مصاريف العُرس. يا للخزي! عندما تكون هذه هي مسؤولية الرجل! ولكنني أعتقد لأن والديها سعيدان جدًّا أنها أخيرًا وجدت شخصًا ما.

يبدو الأمر مثلما هو مع ممثلة شخصية «بريدجيت جونز»، مع فارق أن أمينة ليست من نوعية الفتيات اللائي يجلسن مرتدين منامتهن ويغنون أغاني عن الوحدة ومعهم دلو من الفشار بالزبدة ولوح من الشوكولاتة.

عمي طارق وخالتي «كساندرا» يعرفان أهل العروس أيضًا، نجلس جميعًا إلى نفس الطاولة. ياسمين وعمر هنا أيضًا. وبعد الاستماع إلى خالتي «كساندرا» وماما وهما يخبراننا عن قصص عرسهما للمرة البليون، يعلن الـ«دي جاي» أخيرًا أن العروس والعريس ينتظران خارج قاعة الاستقبال، ويطلب منا جميعًا الوقوف. ثم تبدأ الطبول وآلات النفخ تصدح بحماس، ويغني المغنون بصوت آسر ومسكِر، يجعل قلبي يثب داخلي إثارةً وترقبًا. ماما وخالتي «كساندرا» تبتسمان بابتهاج، وبابا وعمي طارق يضعان المناديل في آذانهما، مبتسمين ببلاهة. سدادات المناديل تقليد قديم معهما كلما واجها مكبرات صوتية متحمسة أكثر من اللازم. ماما وخالتي «كساندرا» تشعران بالخزي.

مجموعة من الأشخاص، غالبيتهم أفراد عائلة ممتدة وأصدقاء مقربون، يقفون عند المدخل مصفقين في انسجام مع الموسيقى وهم ينتظرون فتح الأبواب. الطبول تدقُّ بشغف حتى إني أحسُّها، تضرب داخل جلدي. ثم تُفتَح الأبواب فجأة وجميعنا يُطلق شهقة عندما تدخل العروس والعريس، بوجهين متوهجين كمنارتين.

يمشيان ببطء على السجاد الأحمر بينما الفرقة تعزف حولهما والمطرب يغني. يبدأ الناس برقص الدبكة السورية، حيث تتماسك الأيدي ويتحرك الراقصون في دائرة، راقصين وضاربين الأرض ومحركين أقدامهم في حركة دائرية بطرق معقدة، ولكنها رشيقة. في كل مرة أذهب إلى عرس غير فلسطيني وتدفعني ماما إلى الرقص وتخبرني أن أكف عن خجلي، أنتهي إلى أن أبدو مثل فتاة مرتبكة. في الأعراس الفلسطينية أنا محترفة. لكل طريقته، للبنانيين طريقتهم، وكذلك السوريون والأتراك. وحتى ضمن نفس الجنسية هناك طرق لكل رقصة، ولذلك أؤدي خطوة واحدة، ضربة واحدة، والتي تضمن لي النجاح بمقبول، تصلح أيضًا في الأعراس اليونانية واليهودية.

أصفِّق مع الموسيقى حتى تحمرَّ يداي وتوجعانني، لكنني أكثر استمتاعًا من أن أهتم. تلتقي عيناي بعيني أمينة فأبتسم لها ابتسامة عريضة، قائلة لها مبروك. «حُسنو» يبتسم مثل رجل مُنِح فرصة جديدة في الحياة. تدمع عيون ماما وخالتي «كساندرا»، على الرغم من أنهما على الأرجح تبادلتا خمس كلمات مع أمينة في حياتهما كلها، ولم تلتقيا بـ«حسنو» قطُّ. يرى بابا عيني ماما، ويعرض عليها مازحًا المنديل الذي في أذنه.

عندما يشقُّ العروسان طريقهما أخيرًا بين الحشد، ويأخذان مقعديهما على المنصة، تستمر الموسيقى لأربعين دقيقة أخرى. تغضب ماما عليَّ

وعلى ياسمين؛ لأنها تريدنا أن ننهض ونرقص. نقف ونندفع إلى وسط باحة الرقص، وندسُّ نفسينا بين حشد الأجساد حتى لا يرانا أحد. يبدو الأمر محرجًا جدًّا بوجود جميع الأهل يراقبون.

أحب الموسيقى العربية وبمجرد وقوفي على باحة الرقص تتلبَّس جسدي موجة من الطاقة. ياسمين وأنا نبدأ الرقص الشرقي، نضحك ونغني بصوت عالٍ الأغاني العربية الشعبية المعروفة، ونحن نهز أوراكنا وجذوعنا بطرق مختلفة. وبعد نصف ساعة من الرقص الشرقي نشبك أيادينا في صف الدبكة. إلى يميني عجوز يبدو أكثر نشاطًا مني بشكل مدهش، ويده المعروقة تصيبني بالغثيان حقًّا. يبتسم لي وأتساءل أين طقم أسنانه. لون عينيه أزرق مخضر فاتح. راح يميل في اتجاهي ويصيح «ما شاء الله» بنبرة إعجاب مؤكدًا لي أنه خرِف. يثني على عينيَّ الخضراوين وكأنهما عمل من صنع يدي، ويصرخ في خضم الموسيقى سائلًا إياي عمَّا إذا كنت عَزَبَةً. أتظاهر بعدم سماعه. باستثناء كونه عجوزًا جدًّا، لا يبدو أنه يمكن خداعه لثانية، ويصرخ سائلًا عمَّا إذا كنت أعرف حفيده، رامي صلاح، «المعروف» و«المشهور جدًّا»؛ لأنه يملك محل أجهزة موبايل في «بورك ستريت» ويقود سيارة «الكسيس». أضغط على يد ياسمين أكثر، لكنها مشغولة جدًّا بينما تستجوبها امرأة طويلة عريضة بشعر أحمر كالكرز، وأساور ذهبية على كلتا ذراعيها تمتد حتى مرفقيها، وعقد ذهبي ضخم يتدلى على شق نهديها. السيد «إنرجايزر» على يميني يسألني الآن عمَّا إذا كان عندي نقَّال، فأجذب ياسمين إلى خارج الصف. نهرع إلى الحمام وننفجر هناك في نوبة من الضحك. نضع أحمر الشفاه اللامع، ونلف رموشنا لأعلى بـ«الماسكرا»، ونعدِّل شعر ياسمين وحجابي، ونتأكد من عدم وجود ورق حمام عالق بكعوب أحذيتنا.

ـ إذن ذاك العجوز يرقص الدبكة.

تقول ياسمين عندما نعود إلى طاولتنا ونشرع في أكل الطبق الرئيس:

ـ هل هذه هي المرة الأولى لمحاولة أحدهم خطبتك لشخص ما؟

أقول متذمرة:

ـ نعم الأولى. يمكنني التعليم عليها في جدول الخُطَّاب.

ـ هذه مرتي الثانية. الأولى كانت عند البهو، عندما وصلنا. كانت تريد أن تعرف إذا كنت مسلمة، وعلامتي في الثانوية، وهل التحقت بجامعة أم بكلية تقنية. أما هذه فسألتني عمًّا إذا كنت مسيحية، وأعرف الطبخ وأتحدث العربية. أخبرتها أني مسلمة تعرف كيف تستخدم «المايكرويف»، وتتحدث القليل من الأوردو، هل ذلك مناسب؟

ـ مستحيل!

ـ ذُهِلت تمامًا. لحسن الحظ أنك سحبتني في الوقت المناسب. بدت كأنها على أتم استعداد لهرس أصابع قدمي تحت كعب حذائها!

نقضي ما تبقى من الليل جالستين إلى طاولة في الخلف بعيدًا عن الحشد، نراقب مجموعة مختارة من الشباب. وينتهي بنا الليل إلى الاقتناع بأن من اخترناهم في قائمتنا القصيرة إما أن يكونوا مرتبطين وإما أبناء أمهاتهم المدللين. وأي واحد منهم يرتدي جوربًا أبيض وحذاء أسود يكون غير مؤهل.

أظن أن لا أحد خالٍ تمامًا من التحيُّز.

(٣٥)

القصة التي حبكناها لوالديَّ كالتالي: وافقت أم ليلى على العشاء في «تشابل ستريت»، ولكن أباها يعاني من فتق، ولذلك عليهما ألا يجيبا على الهاتف البتَّة في حال اتصاله لجلسة استجواب. وإذا ما احتاج إلى التحدث إلى ليلى، فهناك النقَّال دائمًا. بابا يعتبر ذلك مرادفًا لـ«شريك في وقوع الجريمة» (شاهد المسلسل البوليسي «لو آند أوردر» (القانون والنظام) الليلة الماضية)، لأنه بذلك سيكون خائنًا لثقة والد ليلى. أقول له إن هذا شأن خاص بأم ليلى وهي التي تقرر ما تخفي وما لا تخفي عن زوجها، ومَن نحن حتى نتدخل في علاقتهما الزوجية؟

أنا وياسمين نستخدم حيلة المراوغة بشكل سيئ جدًّا، ولكن ما من خيار أمامنا. إما هذا وإما غرفة الدردشة الخاصة بإيجاد شريك حياة تركي.

أقف أمام المرآة ثلاث ساعات. لا أمزح. أفرغ دولاب ملابسي كله على السرير والأرض، أقرر أني أكره كل ملابسي، كل شيء. أنا فتاة ليس لديها ما تلبسه. ولجعل الأمور تسوء، أضع الكحل السائل فيتلطَّخ، ذلك يحدث عندما أكون مهتاجة. أعني، أنني أرتدي الحجاب، وإذا لم يبدُ مظهر وجهي جيدًا، فأي أمل يتبقَّى لي؟ طلاء أظافر جميل؟ أهجم على جفنيَّ بتنظيفهما

بكُرات القطن، لكن ذلك يزيد الأمر سوءًا. عيناي الآن سوداوان ومتورِّمتان. عظيم! أحس أني بشعة حقًّا وصدقًا، وكل ما أريد هو أن أجلس على الكنبة ومعي لوح ضخم من الشوكولاتة وأشاهد حلقات متتالية من برنامج «سرفايفر».

أشعر بتحسن بسيط جدًّا بعد أن أرمي بملابسي على الجدار، مع قليل من الصراخ والصياح في ماما أن تتركني وشأني، وألا تتجرأ على دخول الغرفة. أمسح وجهي أخيرًا، وأبدأ من جديد.

أستغرق وقتًا طويلًا ليبدو مظهري شبه لائق. ظلَّلت عيني بالكحل وبمحدِّد الرموش، واضعة أحمر شفاه لامع، ومسحة خفيفة من أحمر الخدود. ستكون ياسمين فخورة. أقرِّر أن أرتدي حجاب شيفون لونه وردي فاتح، مع عصابة قطنية بيضاء تحته. ألفُّ الحجاب حول رأسي من دون شده حتى تبرز العصابة، واضعة طرفيه فوق كتفيَّ وشابكة إياهما ببروش ابتعته من محل للمجوهرات الروشة في «بريدج رود». أختار تنورة سوداء بسيطة وطويلة، وقميصًا كشميريًّا ضيقًا بلون وردي ناعم، وحذاء ورديًّا بكعب عالٍ. أصلح أن توضع لي صورة في ملصق مجاني داخل مجلة. ما زلت أحس بالاشمئزاز، ولكن إذا كانت (أحس أني مثل عارضة أزياء) هي رقم عشرة من عشرة (حتى ماما ستعتقد أني أبدو قبيحة) وهي رقم واحد من عشرة، فإنني أحوم حول الخمسة إذن. يستحيل أن أدخل «تشابل ستريت» ليلة سبت بنسبة تتراوح بين واحد وأربعة.

تأخذ ماما لي صورًا قبل وصول البنات. تقول إني أبدو مثل دمية «باربي»، مع إشارة واضحة إلى النسخة التي تباع في السعودية وليس في أستراليا.

«سام»، أخو ليلى، يوصلها إلى بيتنا وتفتح ماما الباب. حمدًا لله أن أخلاقه سيئة لأنه لم يكلِّف نفسه بقول مرحبًا، ينطلق بسيارته الحمراء

الـ«نيسان ١٨٠ إس إكس» وحسب. من الباب الأمامي للبيت أستطيع أن أرى قطعة النرد معلقة في مرآة السائق، وملصق «لا خوف» يغطي النافذة الخلفية لسيارته. يده تتدلى خارج نافذة السيارة، والموسيقى تضجُّ ضجيجًا، على افتراض أن الناس في الشوارع القليلة التالية تتلهف لمشاركته ذوقه الرديء.

تبدو ليلى فاتنة. عيناها بنيتان واسعتان كعيني المها تحفهما غابة من رموش بنية كثيفة. خططت عينيها بكحل تحديد العين السائل، فبدتا مشرقتين ومبهرتين جدًّا إلى حد أنه يمكننا الاستعانة بهما كمصابيح أمامية. ترتدي حجابًا حريريًّا أسود، تحته عصابة حمراء. فستانها أحمر، بقَصَّة ملتفة حول جسدها، ترتديه فوق بنطال ضيق أسود وحذاء أحمر بكعب عال. تنظر إليها ماما مرة واحدة ثم سرعان ما تنهي نصف فيلم التصوير عليها.

عندما تصل ياسمين تبدأ في العواء والصراخ، معانقة ومقبلة إيانا، ومبتهجة أننا فتحنا علب المكياج. شعرها مُملَّس ومسرَّح إلى الخلف، وترتدي فستانًا أسود يصل إلى تحت الركبة.

«تبدوان فاتنتين!» تضع حقيبتها في الممر. ستبيت الليلةَ هنا، لكنَّ حقيبتها قد تكفيها أسبوعًا كاملًا.

تقلُّنا ماما بسيارتها إلى «تشابل ستريت». نريدها أن توصلنا إلى شارع جانبي؛ لأننا لا نريد أن نبدو مثل البلهاوات، لكنها راحت تقول لي:

ـ تستعرين من أمك!

وهكذا أتركها تقود ست دقائق متواصلة حتى تركن أمام محل لعصير الفواكه والذي يقع خارج مجمَّع مصانع للمربى.

ندخل المطعم بشكل درامي للغاية. هذا محرج جدًّا.

نجلس إلى مائدة، وتبدأ ليلة من أجمل الليالي التي قضيناها معًا. ليلى مسترخية وغير متحفظة، تطلق النكات وتتحدث عن أي شيء وكل شيء، لكنها لا تذكر عائلتها أبدًا؛ لا مكان لهم اليوم في الحديث. وبينما نأكل مكرونة الدجاج والمشروم تعلن ياسمين أن وقت الهدايا قد حان ويبدأ وجه ليلى بالتورُّد.

ـ ما كان ينبغي أن...

تقول ياسمين متنهِّدة:

ـ ليلى! لا تلعبي معنا لعبة الخجل والتواضع وأسطوانة «لا أحتاج إلى هدايا!» إنه عيد ميلادك! عيشي!

تبتسم ليلى ابتسامة عريضة وتسأل:

ـ حسنٌ، لا بأس. ماذا أحضرتما لي؟

عندما تفتح ليلى صندوق المجوهرات المغلَّف، تقفز مقلتاها وترتدُّ مثل لعبة الزنبرك، وتهمس، رافعة سلسلة من الذهب الأبيض ذات دلاية بيضاوية:

ـ تحفة!

أخبرها:

ـ اقرئي الكلام المنقوش، نعتذر عن حجم الخط، كان لا بد من تصغيره حتى يناسب حجم الدلاية.

تفتح ليلى الدلاية وتقرأ بصوت عالٍ:

لقوتك وإيمانك الملهِمين. ي ـ أ.

نعيش لحظة فوتوغرافية، كان ينبغي أن نصورها بكاميرا كوداك، ثم نتعانق.

بعد ساعة يصل «التشيز كيك»، وبينما نحشو أفواهنا ونتجادل حول عدد الدقائق التي تحتاجينها للجري على جهاز المشي الرياضي لكل قضمة من «التشيز كيك»، تُفلِت ليلى صيحة مجفِلة وتُسقِط ملعقتها على الطاولة.

يقف «حاقان» عند الباب الأمامي بجانب فتاة ترتدي تنورة جينز قصيرة جدًّا، وبوتًا، وقميصًا خفيفًا مثل المنديل. من الغريب أن يفكر عقلك في أغبى الأشياء في أسوأ الأوقات، فردة فعلي الأولية لم تكن «أين سيدفنون ليلى»، بل كان عقلي يتساءل إذا كانت تلك البنت تدرك أنها تجعل «جيسيكا سيمبسون» تبدو إلى جوارها مثل جرَّاحة مخ، عندما تمشي هكذا بينما تبلغ درجة الحرارة أربع عشرة في الخارج. ثم تصدمني حقيقة الموقف بعنف حتى إني بصقت ما كان في فمي من كعك في منديل.

تهمس ياسمين:

ـ يا الله!

تمسك كلٌّ منا بيدي ليلى ولا تفلتها. يندفع «حاقان» عبر المطعم، ثم إلى طاولتنا، ورفيقته تحاول اللحاق به بصعوبة؛ لأن كعبي حذائها عاليان.

يسألها ببرود، مثبتًا نظرته الغاضبة عليها:

ـ ما الذي تعتقدين أنك فاعلة هنا بحق الجحيم؟

تقول ببطء وهدوء:

ـ عشاء عيد ميلادي يا «حاقان»، هذا ليس بالخطب الكبير!

تنطق الفتاة ذات القميص المنديلي:

ـ «حاقان»؟! مَن «حاقان»؟! أليس اسمك «سام»؟!

يرمقها بنظرة صامتة، فتبتسم له نصف ابتسامة بخجل، متراجعة إلى الخلف وعابثة بأظافرها.

ـ هل يعرف بابا وماما عن هذا؟

أقول قبل أن تجد ليلى الفرصة للرد:

ـ لا، لا يعرفان، يعتقدان أنها في بيتنا، لأن هذا ما قلناه لليلى؛ إننا سنتعشى هناك، لكننا كذبنا. كانت مفاجأة ولمَّا وصلت بيتنا جئنا بها إلى هنا. ليس خطأها!

ـ نعم، ليس لديها فكرة!

تقول ليلى هامسة:

ـ اصمتي!

ولكنني أضغط على يدها أكثر.

ـ إذن أنتما الاثنتان تتسكَّعان مثل الفاسقات وتسحبان أختي معكما؟

تصيح ياسمين:

ـ لا تتجرَّأ وتنعتنا بالفاسقات!

يتجاهل ياسمين، ويثبت نظراته على ليلى:

ـ لملمي أشياءك، ستذهبين إلى البيت!

ـ أنا... أنا...

تضيع ملامح وجهها في كتلة حائرة ومهزومة من الرعب والتعب. تجمع هديتها وتضعها في حقيبتها.

أصيح:

ـ لا، سنأخذها إلى البيت. حسنٌ؟ ستقلُّنا ماما وسنوصلها إلى البيت.

ـ لن تذهب معكما إلى أي مكان أيتها الساقطتان.

أريد أن أضربه! أريد أن أصرخ في وجهه، لكنني لا أفعل ذلك من أجل ليلى. أتجاهله وعروقي تتدافع في جمجمتي من شدة حبس غضبي.

فجأة يظهر أمامنا مدير المطعم، طالبًا منًّا دفع الفاتورة والمغادرة. أنا وياسمين نضع النقود على الطاولة ونجمع أغراضنا ونخرج جميعًا، «حاقان» إلى جانبنا مثل حارس أمن يرافق زبونًا مفضوحًا إلى خارج المحل. الناس الجالسون إلى الطاولات القريبة ينظرون إلينا ويبتسمون بتكلُّف، وكأنما نثبت أنهم محقون في الاعتقاد أننا بعد كل شيء «وُجز» مثيرو مشاكل. تحمرُّ وجوهنا ونحن نقف في الخارج، وتغمرنا روائح الدخان وكولونيا بعد الحلاقة والبيتزا والكحول ونحن في دوختنا تلك، والريح الباردة تجرح وجوهنا.

أناشده:

ـ أرجوك! دعنا نوصلها إلى البيت. اخرج مع صديقتك ونحن سنشرح كل شيء لأمك وأبيك!

ياسمين وليلى تقفان جنبًا إلى جنب، أيديهما متشابكة، أسنانهما تصطك، ونظرة ذعر يائسة على وجهيهما.

رفيقة «حاقان» تتشبث بذراعه، مرتعدة من البرد. إذن هي تدرك أن البرد قارس؛ مجرد فكرة من أفكاري الخارجة عن السياق تلك.

تقول بدلال في أذنه وهي تضغط صدرها على صدره وتخمش ذراعيه بأظافرها:

ـ هيا يا «سام». لنتركهم. سنقابل الشلة في «هييت»، هل تتذكر هذا؟ لا بد من أن «كايلي» و«ديف» يتساءلان عن مكاننا الآن.

يسترخي وجهه لثانية تقريبًا ثم أندفع أنا.

ـ أعدك أن توصل ماما ليلى. اسمع، سأهاتفها الآن أمامك، اذهب أنت واستمتع بوقتك. أنا آسفة إننا تصرفنا هكذا من دون علم أهلك، ولكن بجدٍّ، ليلى لا تعرف شيئًا، نحن ضغطنا عليها، ولم يكن هناك خيار أمامها.

أحاول التقيُّؤ. تقيُّؤ. أوه يا إلهي! دعه يقل نعم، أرجوك!

يقول وهو ينظر إليَّ متهكمًا:

ـ يا لك من مسلمة شريفة!

لقد ربح. فأخذل ليلى وأجعلها تخسر، لا أستطيع الصمود أكثر. يكاد يغمى عليَّ من شدة كبت غضبي، فأشتم وأصرخ فيه لكونه حثالة ومنافق ومتعصِّب وقذر، ولأنه يثور على ليلى بسبب عشاء بريء بينما هو مَن يتسكع، ويشرب حتى إنه يسكر طينة، ويتعاطى المخدرات. أشتمه لأنه تجرأ على ازدرائنا والحكم علينا. لا أستطيع التوقف. أرى ليلى مقهورة من الصدمة، وياسمين تشير إليَّ أن أخرس، لكنني أخذل صديقتي العزيزة وأفقد السيطرة.

يتقدَّم خطوة نحوي ويحدِّق في عينيَّ ويقول بنبرة منخفضة:

ـ لن تري ليلى أبدًا بعد الآن!

يمسك بذراع ليلى ويندفع منصرفًا، تتبعه رفيقته مترنحة. تنظر ليلى خلفها وتلتقي نظراتنا لحظة، لكنه يسرع في المشي، نقف هناك، ننظر إليهم وهم يختفون في الحشد.

* * *

لا تقول ماما شيئًا في طريقنا إلى البيت. ياسمين وأنا نجلس متكورتين في المقعد الخلفي، لا تتوقف ياسمين عن البكاء بينما أنا فاقدة الإحساس. لا أستطيع البكاء، لا أستطيع الكلام، لا أستطيع الهمس، وكأني تحت التخدير.

عندما نصل إلى البيت بابا ينتظرنا في غرفة الجلوس. ياسمين وأنا ننهار على الكنبة وتجلس ماما بقربه إلى الطاولة.

يصيح بابا ممرِّرًا يديه خلال شعره من الخيبة:

ـ ماذا كنت تعتقدين؟ أنت تعرفين أهل ليلى. كذبت علينا! وكذبت عليهم! كيف تفعلين؟

أقول:

ـ الأمر يستحق، بالنسبة إلى تلك الساعتين الأولين يستحق.

ـ يستحق؟ الله وحده يعلم كم المشاكل التي ستقع فيها البنت المسكينة الآن. كذبت علينا يا أمل! كيف تخدعيننا هكذا؟ وكيف لم تفكري في عواقب تصرفاتك؟ لطالما وثقت في تفكيرك وأحكامك الصائبة يا أمل، لكنك خذلتني حقًّا الليلة!

ذقني يرتجف وأنا أغالب دموعي.

تقول ماما، وصوتها هادئ ومطمئِن على نحو غريب:

ـ أمل، لا عذر للكذب أبدًا!

أتوسل إليهما:

ـ أرجوكما! يجب أن تتصلا بأهلها وتخبراهما أنني وياسمين رتبنا الموضوع كله. لا ينبغي أن يعتقدا أن لها علاقة بالموضوع. أرجوكما!

يتنهَّد بابا واضعًا رأسه بين يديه ومحدقًا في الطاولة، بينما تقول ماما:

ـ أنت ممنوعة من الخروج!

وتنهض لإحضار الهاتف. تدخل المطبخ وأسمعها تتحدث مع أم ليلى. ثم أبدأ النشيج وياسمين تعانقني وتنشج أيضًا.

بعد نصف ساعة تخرج ماما من المطبخ مجهَدة تمامًا.

تقول:

ـ ليلى بخير، تكلمت مع «جولشن» وحاولت تهدئتها. أخذت تقول غاضبة إن ما حدث يوشك أن يدمِّر كل شيء لابنتها، وقالت أشياء دراماتيكية كهذه. لم تأخذ الأمور بتعقُّل. لكنني وضَّحت لها أنها لم تكن فكرة ليلى.

تخبرني النظرة في عينها أنها تعرف مزيدًا لكنها لا تقول شيئًا، وأودُّ لو تلفني بذراعيها وأنام على صدرها، لكنها تأمرنا بأن نصعد إلى الغرفة للنوم.

(٣٦)

لا أجرؤ على مهاتفة بيت ليلى يوم الأحد. نرسل إليها، أنا وياسمين، رسالة نصية لكنها لا ترد. ندخل إلى «إم إس إن مسنجر» ولا نجدها.

تعدني ياسمين:

ـ سأخبرها أن تتصل بك عندما أراها في المدرسة يوم الاثنين!

ولكن ياسمين ترسل إليَّ رسالة نصية يوم الاثنين تخبرني أن ليلى غائبة.

أجلس في استراحة الغداء مع «سيمون»، منشغلة بـ«موبايلي» أرسل الرسائل إلى ياسمين.

تسألني «سيمون» بقلق:

ـ أنت بخير؟

ـ نعم، بخير!

أجيبها بشكل فجائي. لا أريد إخبارها بما حدث لأني خائفة. أعلم أن ذلك يبدو غبيًّا، لكنني أخشى أن تعتقد، أوه! مسلمين مجانين نموذجيين.

يحبسون بناتهم في البيت. لا أستطيع التعامل مع ذلك الآن. لا أستطيع التعامل مع أي شيء. فقط أريد أن أعرف أن ليلى بخير.

لا تقول «سيمون» شيئًا، وأنا شاكرة لها على ذلك. كل ما أراه في عقلي هو مشاهد عن ليلى وهم يصرخون في وجهها، ويحبسونها، ويخرجونها من المدرسة. أنا مشوشة جدًّا حتى إنني لم ألحظ انضمام «إيلين» إلينا. أرفع ناظري، فأجدها تجلس بقربي واضعة رجلًا على رجل. هي و«سيمون» تحدقان فيَّ وعلى وجهيهما تعابير قلق.

تسألني «إيلين» بلطف:

ـ أنت بخير أمل؟

ـ ليس تمامًا... أنا... يا ربي! لا أشعر برغبة في البقاء في المدرسة اليوم.

ـ ومنذ متى نشعر بذلك؟

تقلِّب «سيمون» ناظريها. نجلس صامتات لدقائق معدودة. ثم يستبدُّ بي شعور ما.

أصيح، وأسحبهما معي:

ـ لنخرج من هنا!

تسأل «سيمون»:

ـ ماذا؟

ـ لنتحرك، نذهب إلى الشاطئ، أو نستقل قطارًا إلى حدائق «داندنونج»، أو نلعب سباق السيارات، أو نذهب للتزلج. لنخرج وحسب. أحس أني أختنق هنا.

لا أصدق أنني من تقترح ذلك. إذا اكتشفت مس «والش» وعرف أهلي، ستكون نهايتي. ولكنني لا أبالي. أخرج أهلي من رأسي، وألقي بطانية على وجه مس «والش»، وأنسى ما سيقوله الآخرون، وأتوسَّل إليهما أن تخرجا معي، وتوافقان.

نتسلَّل من المدرسة، نستقلُّ الترام إلى شاطئ «سانت كيلدا»، ثم نركب المعدِّية إلى «ويليامز تاون». عندما نصل نبتاع أنا و«إيلين» أكواب آيس كريم ضخمة، وتبتاع «سيمون» تفاحة، ثم نتمشى على طول الرصيف. إنه يوم كئيب ملبد بالغيوم. وكأن الغيوم تتضافر ضد الشمس، رافضة أن تخترقها الأشعة. هناك نسائم خفيفة تصفر، منعشة جدًّا ومالحة جدًّا. شيء أشبه بـ«الفيجميت» في الهواء، أظن، أبتسم بهدوء لنفسي وأنا أتذكر السيدة «فاسِلي». نمرُّ بصياد، ينظر إلينا ويضحك.

يقول مبتسمًا ابتسامة عريضة:

ـ هاربات من المدرسة؟

نومئ برؤوسنا ونبادله الابتسام.

ـ اصطدت شيئًا؟

أحدِّق في دلوه.

ـ ليس بعد. ولكن عندي وقت، ولم أسأم نسيم البحر بعد!

أقول:

ـ بالتوفيق!

نجلس فوق جدار الرصيف ونؤرجح أرجلنا.

أقول بصوت يأخذ في التلاشي:

ـ كنت سأسمع مستر «بايبر» يتكلم عن «ستالين» الآن...

تقول «إيلين»:

ـ همم. كنت سأكون في حصة اللغة الإنجليزية، أسرح وأنا أتخيَّل اللحظة التي أنتهي فيها من الامتحانات وأقفز إلى الإنترنت وأحجز لرحلة خارج البلد.

تقول «سيمون» بحزن:

ـ يبدو جميلًا، كنت سأحلم بدخول الصف ومقاسي عشرة والكل سعيد بي ويطلب مني الخروج معه في موعد.

أسألها بقصد إغاظتها:

ـ الكل؟

ـ نعم، الكل. و«تيا» ستتوسَّل إليَّ أن أرافقها إلى أروع نادٍ ليلي، وعندما يراني الحارس يسمح لنا جميعًا بالدخول.

أصرخ فيها:

ـ أنا سأجعلك تقولين: «أنا جميلة كما أنا» عشر مرات في اليوم، «سيمون»، ليس أقل من عشر مرات في اليوم، بدءًا من اللحظة!

تقول وهي تدفعني:

ـ مستحيل!

ـ هيًّا «إيلين»؛ دغدغيها حتى تقولها.

نبدأ بدغدغتها حتى تفقد أنفاسها من الضحك.

أحذِّرها:

ـ هيَّا!

تقول لاهثة:

ـ طيب طيب، أنا جميلة كما أنا. آخ، يا لك من فاشلة. سعيدة؟

ـ قوليها وأنت تقصدينها!

ـ أمل، اخرسي! كم مرة عليَّ أن أقول لك إنك لست «أوبرا»؟

تخرج سيجارة، تنظر إلينا بخجل وهي تشعلها.

أسألها:

ـ ما زلت تمارسين هذه القذارة؟

تقول «إيلين»:

ـ إنك لا تجيدين التدخين حتى!

تقول «سيمون»:

ـ إنها مسألة تدريب وحسب.

تصيح «إيلين»:

ـ مُدهش! تتدربين على تسميم نفسك وجعل رائحة أنفاسك كريهة!

ـ كفِّي عن الوعظ!

ـ كفِّي عن التدخين!

ـ كفِّي عن تمثيل دور الأم عليَّ!

ـ كفِّي عن تجاهلي!

ـ كفِّي عن التظاهر وكأنك تعرفين كيف يكون الشعور بهذا!

ـ كفِّي عن التظاهر بكره نفسك!

أصيح:

ـ ألا تخرسان أنتما الاثنتان؟!

تقول «إيلين»:

ـ على كل حال، إنها حياتك «سيمون»!

ـ أصبتِ في هذه. على كل حال، أمل، أنت لم تخبرينا حتى عمَّا ستكونين تحلمين به!

أرفع لهما حاجبيَّ وأستلقي على ظهري، وقدماي ما زالتا متدليتيْن فوق جدار الرصيف. تستلقيان وتشاركانني، ونحدق في السماء.

تسأل «إيلين» بعد عدة دقائق:

ـ إذن؟

أجيب:

ـ سأحلم بأشياء كثيرة، بليلى... أن تكون ما تتمنى... وتمشي إلى أخيها وتقول له أن يغور في ٦٠ ألف داهية.

تقول «إيلين»:

ـ أوه! ارجعي إلى الخلف قليلًا! ماذا حصل لليلى؟

أتوقف، عاضَّة أظافري وأنا أحدق في سحابة تتحرك وتتداخل مع الأخريات. أحاول اتباع حركتها، وظلها البعيد، وهي تذوب وتتلاشى. ثم أفقد تتبُّع شكلها فأنظر إلى بقايا مشوشة من الأشكال المزغبة تتداخل بعضها في بعض.

أخبرهما بكل شيء عن ليلى. لا تقولا إنها قصة مسلمة. ولا تقولا إنها قصة تركية. تفهمان أنها قصة ليلى، وأخجل من نفسي أني أسأت بهما الظن.

(٣٧)

التاسعة صباحًا. الثلاثاء. مكتب مستر «بيرز». شخص ما رآنا نهرب ووشى بنا. نُعاقَب بالحرمان أسبوعًا من استراحة الغداء. يسمح لـ«إيلين» و«سيمون» بمغادرة مكتبه ويطلب مني البقاء لحظة.

ـ أمل، أريدك فقط أن تعرفي أنني لا أخطط لإخبار مس «والش» أو والديك عن ذلك.

أنظر إليه باندهاش، وأنا أغالب ابتسامة تشق طريقها إلى وجهي:

ـ حقًّا؟

ـ نعم، حقًّا.

يستند إلى كرسيه وينقر بقلمه على ركبته:

ـ اسمعي، لا تعتقدي أننا لا نفهم ما تمرين به هنا. أعرف أنك لم تلجئي لأخصائي المدرسة. ربما ينبغي أن تفكري في ذلك.

أهزُّ كتفيَّ:

ـ لِمَ؟

ـ حتى تتعاملي مع أي موضوع يخصك. لست ساذجًا يا أمل. أعرف أن هناك أشخاصًا ينتقدونك. سأخبرك شيئًا شخصيًّا، رفيقتي كورية. عندما نمشي في الشارع معًا، نلاحظ كيف يحدِّق الناس فينا، ويتهامسون ويرفعون حواجبهم. إنها كثيرًا ما تكون في مواجهة الفرضيات والتعميمات: كل الكوريين مدمنين على الخمر، كل الكوريين اتكاليون ينتظرون معونة من الحكومة. تعرفين عمَّا أتحدث. الأفكار التي ينتجها الإعلام والساسة للحصول على أصوات أكبر في الانتخابات..

ـ ممم...

ـ لذلك أفهم ما تمرين به.

ـ إنك تجعلني أشعر أنه ينبغي أن أُوضَع تحت المراقبة لِئَلا أحاول الانتحار، يا مستر «بيرز».

يتنهد ويهزُّ رأسه:

ـ آسف يا أمل! لا أقصد أن أجعل منك ضحية. أريدك فقط أن تعرفي إذا ما واجهتك أية مشكلة..

ـ أنا بخير.

لا يبدو عليه الاقتناع.

ـ فكَّرت أنه ينبغي أن تعرفي أنني سأكون مرافقًا لفريقكم في المناظرة بين المدارس.

ـ إحم... طيب.

ـ إذا أقدم أحد من الطلاب على إزعاجك ستلجئين إليَّ، أليس كذلك؟

- نعم.

- لا تجيدين الكذب.

يبتسم بلطف ويجلس مستقيمًا. بعض المعلمين يفهمون أنه حينما يتعلق الأمر بزملائكَ، وحتى أعدائك، فهناك قاعدة صارمة بالصمت وعدم الوشاية.. يبدو أن مستر «بيرز» لا يدرك ذلك.

- اعرفي أنك لست مجبرة على تحمُّل المتنمرين ضدك.

- نعم، شكرًا، هل يمكنني الانصراف الآن؟

* * *

أتصل حوالي عشرين مرة ببيت ليلى وموبايلها تلك الليلة. وأخيرًا، يرد أبوها في الثامنة وأربعين دقيقة ويحوِّلني إليها.

- يا إلهي! أين كنت؟ هاتفك المحمول مغلق. جربت وحاولت الاتصال بالبيت ولا أحد يرد. أنت بخير؟

- أهلًا أمل. أنا بخير!

صوتها بارد ومنطفئ، وقلبي يعتصر لسماعها.

- هل جُنَّ جنونهم؟ أنا آسفة جدًّا أن عليك أن تمري بهذا!

- لا، انسي. ليست غلطتك. ما علاقتك أنت بهم؟

- لِمَ لم تذهبي إلى المدرسة إذن؟

- كنت مريضة... على كل حال، أمل، آسفة لكن عليَّ الانصراف الآن!

- لماذا بهذه السرعة؟ مشتاقة للتحدث معك!

ـ لدينا ضيوف هنا.

ـ أوه! كالعادة؟

تتنهَّد وصوتها مثقل بالتعب:

ـ نعم يا أمل، كالعادة!

ـ أوه! حسنٌ يا ليلى. هاتفيني غدًا إذن!

ـ نعم، تمام.

ـ حسنٌ... باي، أحبك!

ـ وأنا أحبك... باي.

* * *

أخرج الليلة لإلقاء القمامة بعد العشاء عندما تلوِّح لي السيدة «فاسِلي» بيدها للجلوس في شرفة بيتها الأمامية.

تسألني:

ـ تريدي شايًا؟

أبتسم لها:

ـ حسنٌ، أكيد. سأخبر ماما فقط وإلا ظنَّت أني اختُطِفت.

لا تلقي السيدة «فاسِلي» بالًا للمبادئ الأساسية، لذلك أعود في غضون لحظات وأدخل البيت. تداهمني رائحة الكعك المخبوز توًّا فور دخولي. تصرُّ أن أجلس إلى الطاولة بينما تُعدُّ هي الشاي، وتقطع لي قطعة كبيرة من الكعك.

ـ رائحتها شهيَّة!

ـ أكيد، إنها كزلك. أنا أهضر أهسن كعك.

تبتسم لي وتناولني صحنًا:

ـ حضّرت واهدة لأمك أيضًا. هي امرأة مشغولة جدًّا. دائمًا مشغولة. وضعت كعكة في سَهْن أَوْسِلِيه لها. لكن تزكّري أن تعيدي سَهنِي.

أضحك وأطمئنها أنني سأعيده نظيفًا «بيبرق». بينما أحتسي الشاي وأثرثر عن المدرسة ألاحظ أن طقم الشاي الصيني ذا لون اللافندر واللون الأبيض مصفوف عند زاوية المقعد.

أسألها بارتياب، مشيرة إلى الطقم الصيني:

ـ لديك ضيوف؟

تتجنَّب التقاء نظراتنا وترتشف شايها:

ـ قريبًا... ربما... سنرى.

ـ مَن؟

ـ أنتِ دائمًا تسألي!

ـ نعم، أعرف. إذن مَن يكون؟

لا أستطيع تمالك دهشتي لأنني لم أرَ السيدة «فاسِلي» بهذا المزاج الرائق من قبل.

تسعل وتغيِّر من جلستها:

ـ «سبيرو» وزوجته. تريدي كعك زيادة؟

ـ اتصلتِ؟!

أقفز من على الكرسي متحمسة، أوشك أن أُسقِط كوب الشاي من يدي.

تهزُّ كتفيها بشكل عَرَضي وتحدِّق في كوبها، لكنني أعرفها جيدًا الآن. أستطيع رؤية زاويتي شفتيها تتحركان؛ لتتمددا في ابتسامة عريضة.

ـ هل الأمور على ما يُرام؟ هل سيأتي؟ متى اتصلتِ؟ ماذا قال؟

ترفع ناظريها وتبتسم أخيرًا، ترتخي الخطوط المتغضنة في وجهها:

ـ نهن نتكلم الآن... ابني... نتكلم!

ـ حان الوقت! إذن ماذا حصل؟ ماذا قلتِ؟ هل سترينه؟

ـ لا أعرف. ربما... أتمنى. أريد ترتيب بيتي ومطبخي عندما يأتيا... ربما... لديهم عمل كثير الآن.

ـ إذن ماذا حصل؟ أريد التفاصيل.. من البداية إلى النهاية.

تضحك وتقف وتقطع لي قطع كعك أخرى:

ـ كُفِّي عن الأسئلة وكُلِي المزيد من الكعك.

أقول ضاحكة عليها:

ـ تريدينني أن آكل كعكة كاملة؟ احتفظي بها لنفسك للغد يا سيدة «فاسِلي».

تبتسم لي:

ـ لا تقلقي بشأن الكعك أمل. أفكر أن أسنع مزيدًا منه ومن هلويات يونانية من الآن. سأسنع هلويات لأسرتك... وربما لأسرتي أيضًا.

(٣٨)

أعود إلى البيت من المدرسة في اليوم التالي لأجد والدي ليلى يجلسان مع والديَّ في غرفة الجلوس. أم ليلى في حالة من يُرثى لها. عيناها غائرتان بين جفنيها المنتفخين، وثمة انتفاخات ثقيلة ومتهدلة تصل إلى أعلى وجنتيها، ووجهها متورم للغاية، وكأنها كانت تبكي لأيام. زوجها يجلس بقربها، صامتًا، ورأسه بين يديه. يجلس بابا إلى الطاولة ممسكًا يد ماما.

أصبح ملقية حقيبتي على الأرض وواقفة أمامهم:

ـ ما المشكلة؟ ماذا حدث؟

تصرخ أم ليلى مشيرة بإصبع الاتهام نحوي:

ـ أمل! كلُّه بسببك! أين ليلى؟!

ـ ماذا؟ لا أعرف عمَّا تتحدثين!

تزعق:

ـ لا تكذبي عليَّ!

تقول ماما، وعلى وجهها نظرة سخط:

ـ «جولشن»! يجب أن تهدئي، أعرف أن الموقف صعب، ولكن لو كانت أمل تعرف مكان ليلى لأخبرتنا.

أسأل وأنا أنقل نظرات يائسة بين بابا وماما ووالديْ ليلى:

ـ ما الذي يحدث؟

تقول ماما:

ـ ليلى ذهبت يا أمل، هربت!

ـ متى؟

ـ هذا الصباح. تركت ملاحظة في غرفتها تقول إنها تاركة البيت. هل اتصلت بكِ؟

أحدِّق فيها مصعوقة.

يقول بابا:

ـ أمل؟ هل اتصلت ليلى بكِ؟

أقول بهمس، وأنا أشعر بموجة مُمْرِضة من الخوف تجتاح جسدي:

ـ نعم، تحادثنا ليلة أمس!

تسألني ماما:

ـ هل لمَّحت لكِ أنها ذاهبة؟

ـ أبدًا. تحدثنا دقيقة أو دقيقتين فقط. لم تذكر شيئًا.

تقول أم ليلى:

ـ ظننتك بنتًا جيدة أمل، لكنك كذبت عليَّ! وافقتُ أن تذهب إلى بيتكم ولكن ليس إلى مكان آخر، وأنت كذبت عليَّ! جعلت ابنتي تخرج في الليل مثل بنت سيئة وترفض رجلًا مناسبًا والآن هربت!

أنهار على الكرسي وأحدِّق في السجاد بارتباك، غير قادرة على فهم كلماتها. أم ليلى تحملق فيَّ وتعصر يديها.

تسألها ماما فجأة:

ـ ماذا تقصدين برفضها رجلًا مناسبًا يا «جولشن»؟

ترفع أم ليلى ناظريها وعلى وجهها مسحة تعب:

ـ أحضرت رجلًا جيدًا ليخطب ليلى!

تسأل ماما بتعب:

ـ متى؟

ـ السبت. رجل ممتاز من أمريكا. أهله وأهلنا من نفس البلد في تركيا. عندما عادت ليلى تلك الليلة كان هو في زيارتنا. رآها تدخل البيت مع أخيها في وقت متأخر وشعرتُ بالعار. ومع ذلك لم يرفضها!

أقول:

ـ هذا هراء!

تقطِّب وجهها، لكنها تواصل الحديث:

ـ أخبرنا «حاقان» بما حصل وغضبت كثيرًا! ليلى خذلتني! ذهبت إلى غرفتها وكنت غاضبة جدًّا عليها، وأخبرتها أني سأسامحها إذا تكلمت معه، هو رجل جيد، يريد أن يخطبها.

ينفغر فمي عن آخره. ويطلق بابا وماما تنهدات ثقيلة ومحبَطة.

ـ بعد ذلك أخذت ليلى تصيح وتصرخ. لا احترام! الرجل في بيتنا ويسمعها! بعد أن أقنعته أن يعيش هنا ولا يأخذ ليلى إلى أمريكا، ووافق. بعد أسابيع من التحدث معه أقنعناه أن يبدأ عمله هنا، لا أريد أن تبتعد ليلى عني.

تأخذ نفسًا ويشدُّ زوجها على يدها.

يطرق الغضب فجأة رأسي:

ـ لِمَ لم تتركيها وشأنها؟

تجفل وتنظر إليَّ:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ ليس هذا وقتًا مناسبًا للزواج!

ـ أنا أدرى بمصلحة بنتي!

تقاطعها ماما:

ـ هذه حياة ابنتك يا «جولشن»، لا يزال أمام ليلى وقت كبير لتقابل شخصًا وتستقر، لو اختارت ذلك. لا تزال صغيرة جدًّا، وواجبها يا «جولشن»... واجبها الإسلامي هو الحصول على التعليم والبحث عن المعرفة. لم تعطكِ أي سبب يجعلك تشعرين بالعار. ينبغي أن تكوني فخورة بها.

تنظر إلينا بسخط:

ـ أفضل لها أن تتزوج الآن، في هذا العمر، أفضل لها.

ـ لماذا؟

ـ لأنه سيكون لها بيت جميل وسيعتني هو بها ويجعلها تحس بالأمان. ستزورني وسأعلمها تحضير وصفات جيدة في الطبخ، وستنجب أطفالًا. هي بنت، ومن المفروض أن تفعل هذا، فلماذا تتأخر؟

ـ ما هذا الهـ...

يقول بابا بحزم:

ـ أمل!

ـ ... هراء!

تهمس أمي باسمي فأطوي ذراعي على صدري وأحملق في الأرض.

تقول أم ليلى:

ـ بنت قاسية!

تتدخَّل ماما مقاطعة بسرعة، لأني شعرت بأنني سأنفجر:

ـ ما الذي حدث هذا الصباح؟

ـ طوال الأسبوع وهي غاضبة. الرجل يأتي كل ليلة للعشاء، وتجلس هي مثل التمثال، لا تتكلم ولا تضحك. ترجيتها أن تريه كم هي جميلة ومُسلِّية، وأخبرتها أن تضع مكياجًا، لكنها دخلت مرتدية بنطالها الرياضي ومن دون مكياج، ومن دون أن ترتب حجابها جيدًا. حتى إنني أخبرتها أن تظهر غرَّتها قليلًا، ترفعها حتى يرى كم شعرها جميل!

أضرب برأسي على ظهر الكرسي من الإحباط وأُطلق «أوووف» كبيرة.

ـ ثم عندما قرعت باب غرفتها هذا الصباح لم ترد. دخلت و... غير موجودة... اتصلنا بالشرطة، لكنهم لم يساعدونا!

أصِلُ إلى آخر مقدرتي على التحمل. أصيح فجأة، وأنا أقفز من على الكرسي:

ـ تستحقِّين! إنك لا تستحقينها!

يصرخ بابا فيَّ:

ـ أمل!

تنظر إليَّ أم ليلى مصدومة:

ـ لماذا تتكلمين معي هكذا؟ أنا أكبر منك! تأدبي!

ـ أنتِ امرأة جاهلة جدًّا!

تصيح ماما:

ـ يكفي يا أمل!

لكنني خارج السيطرة ومندفعة:

ـ كيف تعاملينها هكذا بينما باستطاعتها أن تكون ما تريد؟ كيف تعتقدين أنك متدينة؟ أنت لا تعرفين أهم ما في الإسلام. تنتقدين ليلى وابنك أحمق!

أم ليلى تلهث ممسكة عنقها وكأنني أحكم قبضتي عليه:

ـ يا الله! هذه البنت مجنونة!

ـ لا تجرئي على الزجِّ بالله في هذا!

تحدِّق فيَّ بدورها، مُطبِقةً فمها، بينما يقف بابا آمرًا إياي أن أخرس:

ـ أمل، يكفي!

تمسك أم ليلى بيد زوجها:

ـ لنذهب!

تقف وتندفع إلى خارج غرفة المعيشة ثم إلى الباب الأمامي. تمرُّ من أمامي وتقف، تنظر إليَّ وتهزُّ رأسها وتقول:

ـ ما عرفتك هكذا من قبل، يا أمل دائمًا أعتبرك بنتًا جيدة. تلبسين الحجاب وتصلين. تقولين لي لا أعرف الدين؟! أين دينك عندما تكذبين وتردين بفظاظة على صديقة أمك؟

كلماتها سحبت قدرتي على التنفس؛ أشعر كأنها دفعت المكنسة الكهربائية داخل حنجرتي وشغَّلتها على أقصى سرعة. تجذب زوجها من ذراعه ويخرجان من البيت.

مكتبة أحمد

(٣٩)

ماذا تفعلين عندما تختفي صديقتك العزيزة؟ الحياة لا تتوقف. لا توجد فترة استراحة حيث تستند إلى كرسيك، وتجعل المشاهد والحوارات التي شاهدتها لتوك تتكرر مرة أخرى في ذهنك حتى تستوعبها. يبدو الأمر أشبه بتهجئة الحروف الهجائية أو مشاهدة فيلم في قناة «إس بي إس»، حيث ما من وقفات لعروض الإعلانات التجارية. الأشياء تمضي بسرعة ويُتوقَّع منك أن تواصل العيش. لا خيار أمامك سوى أن تضبطي شاشتك بحيث يمكنك تصغير كل فكرة أو ألم أو شعور. وإذن، أنا في حصة التاريخ وعليَّ تصغير أفكاري بشأن أين تنام ليلى الآن، بينما يتجول مستر «بايبر» في الصف يأمرنا بالإجابة على اختباره المفاجئ. أحضِّر المائدة للعشاء، وعليَّ ألا أنقر على زر هل تحصل ليلى على ثلاث وجبات في اليوم؟ وإلا سأنهار.

أواصل الذهاب إلى المدرسة، أتسكع مع الجميع، أفعل كل الأشياء الطبيعية المملة في يومي. لكنني أشعر بتشوش عاطفي. المناظرة بعد أسبوع. أتحرَّق شوقًا للتراجع، لكنني لا أقدر على حمل نفسي على خذلان آدم و«جوش» بعد كل ذلك التدريب. أنا متوترة جدًّا حتى إنني أصحو في منتصف الليل. وعندما لا أرى كوابيس بشأن وجود ليلى في مكان خطير،

أرى كوابيس عن نفسي وأنا أصرخ في المناظرة. أعرف ألا مقارنة بين الشيئين، ولكن هذا هو حال المدرسة. الأمور تمضي وحسب وعليك أن تتعاملي مع كل شيء بنفس المقدار.

لا أحس أني حقيقية. أحسني مثل مستنسخ يتظاهر أنه أنا، بينما أنا الحقيقية أبقى متكومة على السرير أفكر في صديقتي العزيزة أين يمكن أن تكون. المساءات أكثر قسوة. لا أرغب في الأكل. لا أرغب في مشاهدة التلفزيون أو العمل أو النمِّ عن المشاهير مع البنات في التليفون. فقط آتي إلى البيت وأذهب مباشرة إلى غرفتي. والداي حذران في التعامل معي، تاركين لي مساحتي، ويستخدمان الكلمات بانتقائية، وكأنما يخافان أن أنهار في بركة من الدموع إذا ما تفوها بكلمة تحمل نفس إيقاع اسمها.

الشخص الوحيد الذي أحظى بصحبته على وقت مستقطع من هذا البؤس هو ياسمين، فكلتانا لم تتصل بنا ليلى. تتصل أم ليلى بماما كل يوم لتسأل عمَّا إذا كنا تلقَّينا أي اتصال. أخوها يتصل بهاتفي المحمول متهمًا إياي بمعرفة مكانها وإخفائه عنه.

أتصل بكل الملاجئ، ولكن ما من أحد يرد على أسئلتي. مَن يعمل هناك متكتم بشكل صارم، وأفترض أنهم محقون، لكن ذلك يجعلني أتميز غيظًا على كل حال. ندور أنا وياسمين و«سيمون» و«إيلين»، في الشوارع والمحلات وحتى المكتبات التي اعتادت ليلى ارتيادها، على أمل كاذب أن نصطدم بها.

الأمر مؤلم في الليل، عندما أضطجع على سريري وأستمع إلى صوت خشخشة أوراق الأشجار في الريح، أحدق في السقف متسائلة: كم من السهل الاستخفاف بالحرية وبالأهل المتفتِّحي العقول. أتساءل عمَّا إذا

كان أفضل لها أن تكون بعيدة عن عائلتها. أتساءل عمَّا إذا كانت في أمان وحماية وقادرة على أن تكون ما تريد من دون أن تعاني الوحدة أو الخوف.

الوقت من دون ليلى يجعلني أحس مثلما كنت أحس في رحلات التخييم أيام المدرسة الابتدائية. حيث تودعين والديك، ثم تبدأ أحشاؤك بالاضطراب والتلوي وتشعرين بالضياع والرغبة في البكاء، حتى إنك ستفعلين أي شيء فقط لتري وجهيهما. أشعر بالوحدة من أجلها. أفتقد وجهها وابتسامتها، وطريقتها في إضحاكنا، وطريقتها في حفظ الإعلانات التجارية في التلفزيون، وطريقتها المزعجة في أكل التفاح وتصحيح القواعد لنا حين نخطئ فيها، وأفتقد كيف هي قوية وحقيقية وجريئة.

* * *

ظُهر الأحد تأخذني ماما إلى مجمع تجاري للتسوق. ننفصل بعد مدة. تريد أن تتفقد نقشات بعض الأقمشة في محل «لينينكرافت»، وهذا يعذبني جسديًّا ونفسيًّا مثل حساب عدد مرات استخدام الحرف «أ» في الجريدة. لذلك أذهب إلى ركن الطعام وأطلب مشروبًا، وبينما أمشي أرى محل تيك أواي يعلن عن وظائف مؤقتة.

التحقت بوظيفة مؤقتة العام الماضي، وعملت في محل «هنجري جاك» خلال عطلة نهاية الأسبوع. كنت سعيدة جدًّا أن يكون لي مصروف إضافي، وتعودنا اللهو كثيرًا في نوبات العمل. ثم جعلني بابا وماما أترك الوظيفة بسبب امتحانات شهادة «فكتوريا» في التعليم. سببت لهما القرحة من كثرة كلامي عن حرمانها لـ«استقلالي المادي»، ولكني عندما أفكّر في تل الواجبات التي يغدق بها المعلمون علينا، كنت أظن أن ذلك الحرمان قد يكون مفيدًا. ولكن عندما رأيت الإعلان، رغبت في التقدم للوظيفة. إذا استطعت أن أعمل بنوبة

واحدة فقط في الأسبوع، في عطلة نهاية الأسبوع، أعتقد أنه سيكون لا يزال باستطاعتي أن أدرس، وأن تكون لي حياة. أذهب إلى الحمام وأعدِّل حجابي وأضع أحمر الشفاه اللامع، ثم أقف بجوار الخزانة منتظرة انتهاء العاملة من خدمة الزبائن.. المحل يبيع السمك والبطاطس المقلية.

عندما يغادر الزبون الأخير، تلتفت إليَّ العاملة وتسألني عمَّا أريد.

ـ أنا هنا بخصوص الوظيفة... كيف لي أن أتقدَّم بطلب؟

ـ لديك خبرة؟

ـ نعم، عملت في «هنجري جاك».

ـ ممتاز!

تبتسم وتخبرني أن أنتظر ثواني حتى تتصل بالمالك الذي كان بالخارج.

ـ أهلًا «جورج»! شخص ما هنا لأجل الوظيفة!

يرد وهو يصرخ:

ـ دقيقة!

ـ كم عمرك؟

ـ ستة عشر.

ـ حلو!

تمسك بحزمة من المناديل وتبدأ بطيِّها مع شُوَك بلاستيكية:

ـ لم يتلقَّ ردودًا كثيرة على الإعلان. وهو في حاجة إلى شخص ما على الفور؛ لأن الفتاة الأخرى استقالت ومن المستحيل تمامًا أن نقوم بكل العمل

أنا وهو فقط. الإعلان معلَّق هنا منذ فترة طويلة، وجاءنا أربعة أشخاص فقط للسؤال عنه. اثنان منهما كانا شابين وكان الرد القاطع لا. لا!

ـ لماذا؟

ـ آه، لأنه يريد فتاة عند آلة الدفع. يعتقد أن ذلك أفضل، تعرفين، أن تخدم الزبائن فتاة.

ـ آه!

ـ والفتاتان الأخريان كبيرتان في السن، تقريبًا في العشرينيات، وهو يريد مراهقات لأنهن لا يكلفن كثيرًا. ها هو قادم.

«جورج» قصير، في الخمسينيات، له شارب مهذب جدًّا وعينان رماديتان جميلتان. يتقدَّم إلى آلة الدفع، يلحظني وفورًا يبدو عليه وكأنه أصيب بإمساك مفاجئ.

أقول بابتهاج قدر الإمكان:

ـ أهلًا! أنا هنا بخصوص الوظيفة. عمري ستة عشر. عملت في «هنجري جاك» وعندي خبرات كثيرة.

أظن أنني سأقول كل شيء مرة واحدة.

حسنٌ، هناك بعض الأشخاص يتصرفون بلباقة. يرون شخصًا لا يعجبهم، وينجحون في خداعه وفي استخدام إستراتيجيات التجنُّب بأقصى سرعة. وفي موقف كهذا، هناك مخارج كافية تتوفر أمام «جورج»: «تمَّ شغل الوظيفة»، «نريد شخصًا أكبر سنًّا»، «لا نريد الأشخاص الذين عملوا في محل كبير للأغذية». لكن «جورج» يقرر أن يكون صريحًا ويتخذ طريق «قلْ ما يخطر ببالك».

ـ متأسف يا حبي، لا نقبل أشخاصًا مثلك!

ـ ماذا تقصد؟

ـ الشيء الذي على رأسك يا حبي، هو ما أقصد. غير صحي ولا يعطي منظرًا جيدًا للمحل. آسف يا حبي، حاولي في مكان آخر.

أسعل، أدس أصابع قدمي أكثر في الحذاء، وأحاول تلمُّس الهواء لأتنفس:

ـ ماذا لو لبست قبعة؟ ستبعد الشعر عن الأكل. ذلك صحي!

ـ لا فائدة حبي. نحن نبيع الأكل مقدمين شكلًا جيدًا للمحل. عندي فتيات في الواجهة لسبب، فهمت؟ الآن أنا مشغول. شكرًا على وقتك لكن ما تطلبينه مستحيل.

يغير اتجاهه ويخرج إلى الغرفة الخلفية. أنا مذهولة تمامًا وأقف هناك، لا أعرف كيف أنصرف من دون أن أبدو مثل خاسرة ومرفوضة.

تهز الفتاة عند آلة الدفع كتفيها:

ـ آسفة على ما حصل! اعتقدت أنه سيتجاهل ما على رأسك بسبب خبرتك، لكن لا تأخذي الموضوع بشكل شخصي. لو ارتديت عمامة سيغضب أيضًا. جعلني أتخلص من الحلقة على حاجبي، ولكنني أضع خطًا أحمر على الحلقة في لساني. يستحيل أن أتخلص من هذه.

ـ نعم... أكيد... شكرًا.

أخبر ماما بما حدث وتريد أن تتقدم بشكوى إلى إدارة المجمع التجاري، لكنني لست مهتمة.

ـ ما الفائدة؟

ـ على الأقل سيكونون على دراية يا أمل. علينا أن نزيد من الوعي بحدوث هذه الأشياء!

ـ ماما، لا أريد، حسنٌ؟ الأمر لا يستحق!

ـ ماذا تقصدين بلا يستحق؟! طبعًا يستحق! عندما تحاول فتاة الحصول على عمل في المرة القادمة سيعرفون أن هذا النوع من التمييز غير مقبول!

ـ لا! لن أكبِّر الموضوع، حسنٌ؟ أريد أن أذهب إلى البيت وحسب.

ـ يا أمل، يجب أن تدافعي عن نفسك. لا يمكن أن تستسلمي هكذا!

ـ مَن الذي يستسلم ماما؟ أنا فقط... اسمعي، أريد أن أذهب إلى البيت وحسب. أريد أن أذهب إلى البيت، البيت وحسب!

ـ لماذا تصرخين؟ لا تصرخي فيَّ هكذا أمل!

أنظر إليها وأنفجر بالبكاء. نحن في وسط مجمع تجاري والناس يحدقون فينا. أم محجبة وابنتها تزعقان في المحلات. هناك لحظات تتمنى فيها لو تختفي. لا بد أن يحدث ذلك، جسدك يخبرك وإلا صرتِ هيستيرية واحترقت. أركض بين جموع الناس إلى خارج المجمع حيث تقف السيارة. تلحقني ماما منادية باسمي لكني أتجاهلها. أصل إلى سيارتنا وأتكئ عليها وأنشج بشدة، حتى أحسست رأسي غارقًا في الدموع والعرق. تسرع ماما إليَّ وتغمرني بعناق كبير. تقول:

ـ أوه! يا لك من حمقاء يا حبيبتي يا أمل.

تحشر وجهي في صدرها فأنتحب، وأهمهم بأفكاري وأنا مندسة في ملابسها.

ـ ماما، ربما ما كان ينبغي أن أرتديه... ربما كنت غبية... أين سأذهب الآن؟ سيقف عائقًا في طريقي... المناظرة هذا الأسبوع وأنا خائفة جدًّا. الناس سيسخرون مني، أعرف.

تمسك بذقني وتنظر في عيني:

ـ أنت حمقاء جدًّا يا أمل! بمقدورك عمل ما تشائين، ألا تعرفين ذلك؟ ستجعليننا فخورين بك هناك. لن تكون هناك مشكلة إلا إذا أردتِ أن تجعلي الأمر كذلك.

ـ ماما!

ـ نعم!

ـ مشتاقة إلى ليلى... أستطيع فعل هذا إذا كانت هي بين الجمهور تشجعني. لديها كل الجرأة والشجاعة وفي النهاية تهرب. أريد أن تعود الأمور إلى طبيعتها كما كانت، وأن تكون معنا بأمان. كل شيء أصبح بلا طعم.

لا تقول شيئًا، فقط تعانقني بشدة وتساعدني بلطف لأركب السيارة.

(٤٠)

كفوفي معروقة. الضفيرة تحت حجابي تسبب لي الحكة، وأفضِّل أن يحدث ثقب في جبيني على أن أتقدم للمناظرة.

نصل مدرسة «تشلسي جرامر» بأتوبيس المدرسة في السادسة والنصف مساء الخميس. تتألف الرحلة بأكملها من مستر «بايبر» الذي يعطينا النصائح أننا نستطيع فعل أي شيء إذا ركزنا، و«تيا» تمسحني بنظراتها وأنا أتدرب على بطاقاتي مع «إيلين» و«سيمون». آدم يجلس مع «جوش» ويراجعان بطاقاتهما. ينظر آدم ناحيتي ويغمز لي. أبتسم له وأرفع إبهامي في وجهه.

لم تعد الأمور بيني وبين آدم كما كانت. ولا يفترض أن أتوقعها أن تكون كذلك. المكالمات الهاتفية حتى وقت متأخر من الليل وجلسات الدردشة الطويلة في الـ«إم إس إن» انتهت. لا نزال نتسكع معًا كمجموعة في أثناء بعض استراحات الغداء، لكنني أستطيع أن أقول إن تلك الشرارة بيننا لم تعد موجودة. منذ بضعة أيام كنا جميعًا ندرس في المكتبة. سألته عمَّا إذا تحدث إلى أمه مؤخرًا وعمَّا إذا كانت الأمور قد تغيرت. هزَّ رأسه وغيَّر الموضوع على الفور. أنا متأكدة تمامًا أنه لن يكون منفتحًا معي بشأن أمه ولا بشأن أي شيء شخصي آخر بصدق بعد الآن.

ربما يشعر أنني خدعته. ظننت فقط أننا صرنا صديقين مقرَّبين. ولكن إذا كان يحس أني منجذبة إليه، وأنني كنت أرسل إشارات تشي برغبتي في أن أكون معه، فإنني أشعر وكأني منافقة. سأكون عبثت بعقله، وسأكون قد خنت إيماني أيضًا؛ لأن الإيمان لا يعني شيئًا من دون الفعل.

الأمر محيِّر برمته، وإذا كان الأمر مثلما يحدث في الأفلام لكُنَّا ربما تبادلنا القُبل، وانسجمنا، وعادت الأمور إلى طبيعتها، عدا أن مسألة التقبيل في حالتنا هي ما يقف حائلًا دون انسجامنا.

يصرُّ مستر «بيرز» على التقاط صور للفريق، ولذا نقف أمامه وعلى وجوهنا ابتسامات بلهاء أو بالعبوس لمن يرون أنهم أروش من أن يبتسموا.. أمسح القاعة بعيني بحثًا عن والديَّ لكنني لا أراهما.

يفتح الحكم القاعة وندخل في طابور. وجهه تحفة فنية: عينان مشعتان بندقيتا اللون على وجه مسمر ومنحوت إلى حدِّ الكمال. له جدائل ملتفَّة تصل إلى خصره، وقرط على حاجبه وقرط آخر في شق ذقنه. هو ليس من النوع الذي يستهويني في الحقيقة، لكنه يجعل «تيا» تدوخ.

نأخذ، أنا وآدم و«جوش»، أماكننا في مقدمة القاعة. يدخل طلاب الفريق الآخر: ثلاث فتيات؛ اثنتان منهما تبدوان كأنهما تريدان ملازمة المرحاض للتقيُّؤ من شدَّة توترهما، والثالثة تبدو واثقة جدًّا من نفسها إلى حد أنني رحت أحدق فيها مذعورة؛ شفتاها تتحركان في نصف ابتسامة معتدة بذاتها، ورأسها مرفوع وكأن هناك تفاحة حُشِرت بين ذقنها وعنقها، وصدرها بارز مثل فطيرة هشة مطهيَّة ومنتفخة أكثر من اللازم.

الحكم يدق بقلمه على مكتبه ويبدأ مستر «بيرز» ومعلم الفريق الآخر حملة محمومة لإسكات كل مَن في القاعة. في تلك اللحظة يدخل والداي

ويبدآن في التلويح لي وكأنني في قارب مغادر إلى «هايتي» ولست على بعد ثلاثة أمتار منهم. أطلق تكشيرة مختلطة بابتسامة عريضة فيفهمان قصدي ألا وهو: «توقفوا عن التلويح وأخرجوا كاميرا الفيديو بدلًا من ذلك». أحاول ألا أحترق داخليًّا من الحرج حتى لاحظت والدين آخرين يخرجان كاميراتهما أيضًا.

يبدأ الحكم تقديم نفسه:

ـ مرحبًا! اسمي «تيموثي». سأختصر المقدمة الطويلة: أدرس القانون، وأنا في سنتي الثانية الأخيرة. موضوع الليلة هو «هل ينبغي أن تصبح أستراليا جماهيرية؟». الفريق المؤيد من مدرسة «مكلينز جرامر»، والفريق المعارض هو فريق مدرسة «بارنيا» للبنات. حظًّا موفقًا. المتحدث الأول يبدأ.

تُشرق على وجهه ابتسامة عريضة وآسرة تمامًا.

المتحدثة الأولى، «إيميلي»، ممتازة. نكتبُ أنا وآدم باهتياج، ونمرِّر نقاط الدفاع إلى «جوش» الذي ينظر بسرعة في ملاحظاتنا محاولًا فك شفرة خطوطنا غير الواضحة. الدفاع، بلا ريب، أكثر أجزاء المناظرة إثارة للتحدي. الحكم يختبر قدرتك على الرد على النقاط المُثارة من قبل المتحدث الذي يسبقك. عليك أن تفكر على الفور وتخرج برد ذكي يقول شيئًا ما أعمق من «لا أتفق مع الفكرة لأنها فاشلة».

تتلقى «إيميلي» تصفيقًا حادًّا من الاستحسان وأثبّت نظراتي على «سيمون» و«إيلين» اللتين يمنحاني إشارة الإبهام المرفوع. التالي هو «جوش»، وبعد ثوانٍ من ربكة الأعصاب خلال المناظرة، يدخل في المناقشة التي تدرب عليها من قبل، بصوت جدي ومغامر واستخدام متحمس جدًّا لإيماءات اليد، خصوصًا عندما يشير إلى الجانب الآخر وكأنهم قمل. يبدو مندمجًا،

فننتفخ أنا وآدم معتقدين أننا فزنا. ألقي نظرة جانبية على الفريق الآخر والفتاة- الفطيرة تنحني على مكتبها مقوسة الظهر وهي تكتب دفاعاتها. ترفع ناظريها لحظة فتلتقي عيوننا، تكشر في وجهي فأنظر إليها بتكبر. أظهر وجهًا متكبرًا. تبتسم بتكلف وأضيِّق عيني وأنا أستعد لدفاع مستميت.

أستمع إلى المتحدثة الثانية في الفريق الآخر، «ناتالي»، التي ترد على كلام «جوش» ولكنها تقدم أداءً لدقيقتين تقلان عن الزمن المحدد. نحن على وشك إطلاق أغنية للاحتفال. تجلس على كرسيها بتثاقل وتسحق بطاقاتها بين يديها. تبتسم لها «إيميلي» مطمئِنة، ولكن المتحدثة الثالثة ترمقها بنظرة محبَطة. للحظة أشعر بالأسف لأجلها. لكن الأم «تيريزا» تغادرني في ثانية عندما أتذكر ما أنا لأجله هنا، أن أقنع الحَكَم الجذَّاب، وأعود ظافرة إلى «تيا»، أقصد مس «والش»، أقصد والديَّ، أقصد مستر «بيرز»، أقصد مدرستي. حسنٌ، لأفوز، نقطة.

حان دور آدم الآن و«جوش» يضربه على ظهره مشجِّعًا. يرمقني بنظرة مرتبكة فأرمقه بنظرة حولاء وأبتسم. يسترخي وجهه. يقف. يأخذ نفسًا عميقًا، ثم يتقدم ليفجِّر الفريق الآخر. يحفظ آدم بطاقاته عن ظهر قلب ولا يحتاج إلى إلقاء نظرة عليها حتى. إنه يطالبهم بدعم ادعاءاتهم، داحضًا حججهم، ومحاولًا أن يظهرهم كهواة يصلحون لمهنة تلوين الوجوه وليس للدخول في مناظرة.. رحنا ننظر إلى الفريق الآخر، ساخرين منهم بإيماءات الرأس التي تنمُّ عن الاعتداد بالنفس حتى أدرك أن دوري قد أزف، فتبدأ أحشائي تلعب كرة السلة في بطني.

المتحدثة الثالثة، «كارمن»، ذات الابتسامة المتكلفة. إنها ذكية. تسحق آدم وتحوله إلى غبار. تجعل «جوش» يبدو مثل أحد أعضاء فريق «ذي ويجلز»

السخيف. الجمهور يحدق فاغر الأفواه. مستر «بيرز» يبدو على حافة الانهيار. غمزاته التشجيعية لا تخدعنا لحظة. يدي تتشنج وأنا أندفع إلى كتابة النقاط الدفاعية. أختلس النظر إلى الجمهور مجددًا فتلتقي عيني بعيني «تيا»، ولثانية، نانوثانية صغيرة، أكتشف أننا نقع على نفس الطول الموجي: هي أيضًا تقلق أن نخسر! إنها المرة الوحيدة التي نكون فيها متحدتيْن معًا ضد شيء آخر، وليس بعضنا ضد بعض.

لا تعود «كارمن» إلى مقعدها. تتمايل وكأنها تمشي على سجاد أحمر. إنها على وشك البدء بالتلويح بتحية مَلَكيَّة. تتلاقى أنظارنا، ثمَّ، وهنالك أقرر أنني أريد أن أحصل على شهادة تجمع العلوم والقانون؛ لأنني أرغب في يوم من الأيام أن أعتمر الشعر المستعار في المحكمة، لأسحق خصمي أيضًا.

أقوم بأسرع تلاوة داخلية لبعض الآيات القرآنية. أعدل بنطالي وقميصي. أقف. أضع نفسي في مقدمة القاعة. أنظر إلى الجميع وأناظر.

وكأن أحدهم حقنني بوصفة الثقة بالنفس ومسح الآخرين بالأستيكة. ليس على الرغم من حجابي وإنما بسببه؛ لأنني أريد أن أثبت للجميع أنه مجرد قطعة قماش وأنني هنا، أمثِّل مدرستي، وأدعم فريقي، وأمسح بعض الشخصيات الخطيرة بأستيكة. الأجدر بـ«كارمن» أن تُسرِع إلى غرفة الخادمة؛ لأنه ما من صاحب فخامة هنا عدا فريقنا. أزهو بفخر أمام الفريق الآخر. مستر «بيرز» يتوهج فخرًا، وماما تحاول إنقاذ «الماسكرا». بابا يقرِّب العدسات، مبتسمًا لي ابتسامة عريضة. «سيمون» و«إيلين» تدليان أقدامهما من حواف كرسييهما، متحجرتين في حالة رفع دائم لإبهاميهما. «تيا» تغلق فمها بيدها محاولة خنق ابتسامتها. في حين يكتب الوسيم صاحب الجدائل

الملاحظات بسرعة، وأختم حديثي متمنية لو كانت ليلى هنا حتى ترى أنني حاولت جعلها أن تكون فخورة.

نكسب المناظرة بفارق نقطة واحدة، ويعلن الحكم أن أنا و«كارمن» أفضل متحدثتين. هذا قرار غير تقليدي، لكن «تيموثي» تحدث مدة خمس عشرة دقيقة محلِّلًا نقاط قوتنا، وفي النهاية لم يتمكن من اتخاذ قرار بشأن مَن المتحدث الأفضل، فاختارنا معًا.

من المرجح جدًّا أن هذه أفضل لحظات عامي هذا. إنني أطفو وآدم و«جوش» يطلقان ابتسامات عريضة. والداي يضيئان كاميراتهما ويغالبان صيحات الحماس. «سيمون» و«إيلين» تصفقان بعد أن توقف الجميع. أنا متأكدة تمامًا أن مستر «بيرز» يعيش لحظة «لهذا صرت معلمًا»؛ لأنه يحدق فينا وكأنما رتق فريق المدرسة ثقب طبقة الأوزون للتو. الجميع يقضي عشرين دقيقة خارج الفصل لاستعادة اللحظة، ومشاطرة النشوة. هذا رائع!

يأخذني والداي إلى «ليجن ستريت» لتناول الجيلاتي، ويجعلانني أشعر بسعادة أكبر، إذا كان ذلك ممكنًا: فصيحة جدًّا يا أمل! مقنعة جدًّا! واثقة جدًّا! محتاجة جدًّا إلى حجاب أكبر الآن؛ لأن رأسي أخذ يتمدد ويسد مرآة السيارة الخلفية.

أخبرهما أنني أخيرًا قررت ما أريد أن أدرسه في الجامعة، وأنني أفكر بشأن ما إذا كنت أرغب أن أصبح عالمة مع شهادة في القانون، أو محامية مع شهادة في العلوم. يسمعان كلمة قانون فيبدآن حماسهما الزائد: «مثل عمك تمامًا! محامٍ آخر في العائلة! أوه كم ستجعليننا فخورين!» ما الخطب مع الأهل وشهادات القانون؟ وكأن هناك مجموعة من الأطباء والمحامين يطوفون بعنابر الولادة ويخبرون الآباء والأمهات أن الجنة الخالدة، والإجابة

عن كل ألغاز الحياة والشرف والمكانة العالية، ستكون من نصيب أطفالهم إذا درسوا الطّب أو القانون. وكأن المجتمع سيكون في أفضل أحواله فعلًا إذا ما تأهل الجميع إما لعلاج المرضى وإما لمقاضاة الأطباء.

أتصل بهاتف ليلى المحمول، لكنه لا يزال مغلقًا. أتصل ببيتها، ولكن لا أحد يجيب. فأرسل إليها رسالة نصية على أية حال: «مرحبًا حبيبتي، أشتاق إليك كثيرًا. خمّني ماذا؟ إنني أضع القانون ضمن خياراتي في الجامعة. قد نكون في نفس الصف معًا مرة أخرى! سيكون ذلك رائعًا. أشتاق إليك. سلام».

أخلد إلى النوم وأنا في حالة من السعادة. في مسيرة حياتي، هي مجرد مناظرة، صح؟ لكنني أشعر أنني تخطيت مرحلة حرِجة الليلة. سموه ما تشاؤون: إثبات لذاتي، التنافس كندٍّ، تحقيق إمكاناتي. أيًّا كانت الطريقة التي تحللون بها، فإني أذهب إلى النوم ممتلئة بإحساس أن لا شيء يمكنه إيقافي.

(٤١)

أخطو في اتجاه الباب الأمامي لبيتنا، وتبدأ الطبول في الدق في صدري مجددًا. تجلس أم ليلى في الشرفة إلى جانب ماما. أحدِّق فيها. تبادلني التحديق. ماما ترمقني بنظرات غاضبة لكنني أتجاهلها.

ـ بنتي تكلمك؟

ـ لا!

ماما متوترة! توجه إليَّ إنذارًا بالعربية أن أكفَّ عن أن أكون قاسية وفظة. أجلس بتثاقل على الكرسي.

أقول بصعوبة بصوت مهذب قدر الإمكان:

ـ لم تتصل!

تومئ برأسها وأُذهَل. كنت أتوقع قائمة طويلة من الاتهامات. ألحظ وجهها. إنه نحيل ومنهك جدًّا. إنها لم تفقد وزنها وحسب، ثمَّة شيء آخر. يبدو كأن الغضب والتوتر قد ارتدًّا. ثمة شيء هادئ جدًّا في وجهها الآن.

تقول برفق وهي تنظر إلى ماما:

ـ أنا... لا أستطيع التعوُّد!

تسعل وتضغط ماما على يدها:

ـ أنا خائفة... أنا...

ـ فقط أخبريني يا خالتي. أنت نشأتِ من دون حرية. إذن لماذا تريدين لليلى أن تمرَّ بنفس ما تمرِّين به؟!

تهمس ماما:

ـ أمل!

تنظر إليَّ أم ليلى بضجر، وتطلق تنهيدة كبيرة. أنا مصعوقة. عليها الآن على الأقل أن تدعو عليَّ بالويل والثبور وعظائم الأمور.

ـ تعتقد أنني بلا حرية؟! أشعر أني حرة. عندي بيتي وحياتي، وسعيدة. لماذا تقول دائمًا كلامًا سيئًا عن ذلك؟! لماذا تحاكمني؟!

ـ لأنه لم تكن أمامك خيارات، وتريدين الآن أن تحرمي ليلى من خياراتها أيضًا. الإسلام ليس كذلك.

ـ تظن أنني أتخلى عن ثقافتي؟! هذه ثقافتي. إنها أنا. كل ما أعرفه هو كيف نشأت وماذا علمتني أمي. إنها ثقافة قريتي، وثقافة عائلتي، وثقافة بلدي. إذا فقدت ثقافتك تصيرين لا شيء. ألا تريدين أن تكون لك ثقافة؟

ـ أنا أختار وأنتقي بين ما أحب وما لا أحب. لكن الإسلام هو الذي منحني حقوقي، ولذا، إذا قالت لي ثقافة سخيفة أن أتخلى عن تعليمي، أو أجلس في البيت مدى الحياة، فتبًّا لها من ثقافة.

أتوقع أن تفقد أعصابها تمامًا وبصدق الآن، لكنها ببساطة تتنهد مرة أخرى وتقف.

تقول لماما:

ـ أنا تعبانة الآن، سأذهب إلى البيت وأنام. يحاول زوجي أن يطبخ العشاء الليلة. إنه قلق لأجلي، وقال استريحي وسأطبخ.

تضحك بخفوت:

ـ إنه لا يعرف كيف يسلق البيض حتى.

تبتسم ماما وتعانقها وتمشيان عبر الغرفة في اتجاه الردهة. أنظر إليها وأنا أقف على نحو أخرق أمام الكرسي. تلتفت لتنظر إليَّ:

ـ إذا اتصلت ليلى... أخبريها أني أريدها أن تعود إلى البيت. سأتركها تذهب إلى المدرسة ولن نتكلم عن الزواج.. فقط...

تتوقف وتهز كتفيها، عاضة شفتها لتشتت الانتباه عن ذقنها المرتجف. لا أعرف ما أقول أو أفعل. تومئ برأسها لي وتلتفت إلى ماما، تقبلها وتعانقها مودعة.

أجلس على الكنبة حائرة. لم أفهم أم ليلى قطُّ، ولا أريد أن أفهمها أبدًا. لطالما اعتقدت أنها تحتقر ليلى. كل ما فعلته لها هو الصياح والصراخ والانتقاد. لكنها الليلة لم تتحدني حتى عندما أهنتها. وما يذهل أكثر، أنها في الواقع تتصالح. لم أتخيلها أن تتراجع أبدًا ولو خلال مليون عام.

ثمة شيء مختلف جدًّا في عينيها الآن. شيء أمومي، وذلك صادم، لأنني لم أربط قطُّ كلمة أمومي بأم ليلى. لطالما فهمتها فيما يخص الصراع والتوتر، نزاعها مع ليلى، شكواها من «حاقان»، عراكها مع والد ليلى، ضغطها على ياسمين. كل ما رأيته امرأة متخلفة وقاسية لا همَّ لها إلا بتنظيف الأطباق وكي مناديل الشاي وتزويج ابنتها.

لكنني أظن أنني كنت مخطئة. بطريقة ما، لا يقل حبها لليلى عن حب ماما لي.

أشعر بالذنب. لم أحاول قطُّ أن أقرِّب بين ليلى وأمها! لم أمنح نفسي قطُّ فرصة رؤية الأشياء من منظور أم ليلى وفهم مخاوفها! كان من السهل رفضها كقروية جاهلة. كنت طوال الوقت أضحك عليها من ورائها مع ياسمين، أستسخف خوفها علينا أن نتعرض للمضايقات في المواصلات العامة، أو إنكارها الواضح فيما يتعلق بـ«حاقان».

ليس السبب أنني كنت متكبرة. إنها حقيقة أنني شعرت على نحو ما، أنه كوني متعلمة ونشأت في بيئة منفتحة، يحق لي أن أتصرف بتكبر وتعالٍ.

كنت كل هذه المدة أحيا وأنا أفكر أنني أصبحت تقية؛ لأنني اتخذت القرار الصعب بارتداء الحجاب. وكنت أفترض أنه بما أنني صرت أرتديه طوال الوقت، فهذا يعني أنني اكتسبت كل الحسنات.

ولكن ما فائدة الإخلاص للدين من الخارج، إذا لم تتغير من الداخل، حيث إنه هو ما يهم حقًّا؟!

لقد كنت أخدع نفسي. ارتداء الحجاب ليس نهاية الرحلة، إنه البداية فقط!

(٤٢)

يبدأ رمضان. نستيقظ في الثالثة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا لتناول طعام السحور. لا أتحمل في الحقيقة أكثر من قطعة واحدة من الخبز المحمص ومشروب دافئ. يُصر بابا أن أشرب الشاي لأنه يطفئ العطش. أنا على استعداد لتقبل أية نصيحة بما أنني لن أمس أي طعام أو شراب، من الفجر وحتى المغرب.

أذكر أول صيام لي في رمضان. كنت أتوسل لماما أن تسمح لي بالصيام من الفجر إلى الغروب «مثل الكبار». كنت في الصف الرابع. سمحت لي بالصيام حتى فترة الاستراحة. مضى أكثر من رمضان وفترة الاستراحة صارت فترة غداء، وفترة الغداء صارت وجبة خفيفة بعد الظهر. وبعد مدة قصيرة صرت أصوم المدة كاملة.

استغرقت بعض الوقت لأدرك أن رمضان ليس جوعًا وعطشًا فحسب. أظن أنه عندما نكون على بعد وجبة واحدة من وجبات التوفير من «ماكدونالدز» من تخفيف ألم إنسان جائع بوجبة في عالم يموت فيه الملايين من الجوع، فإن التعاطف يؤثر في ضمائرنا أكثر مما يفعل تقرير إخباري.

ولكن هناك الطفاسة.

يا إلهي هناك الطفاسة! تخمة ما بعد الغروب! أعرف أن ذلك يبطل الغرض من الصيام، ولكن بعد ست عشرة ساعة يكون لديَّ لحم وسلطة وخبز وشوكولاتة وجبن وطماطم مُذابان في خبز تركي محمص ومقلوبة و«تورتاليني» وكعكة الجزر وبيتزا مضافًا إليها كل شيء ما عدا «السوفلاكي»، وأجلس تحت صنبور آلة الآيس كريم وفمي مفتوح على اتساعه... فظيع جدًّا في الواقع.

أذكر أنني فهمت الهدف من رمضان عندما كنت في الصف السادس، في حفلة عيد ميلاد. كان المشهد المعتاد في المدرسة الابتدائية: الكعك، والخبز المدهون بالزبد والسكاكر والشوكولاتة، والحلويات، والبطاطس المحمرة، وما من فتاة مسلمة واحدة قريبة لعائلتي يمكنها أن تشي بي إذا ما لجأت إلى الغش. يستغرق الأمر نصف ساعة وأستسلم. وقت رائع. قضيت على ألواح شوكولاتة مارس، وسحقت بين أسناني الحلوى الموضوعة فوق فطيرتي، ورحت أنهب حلوى الفاصوليا الهلامية. وبعد ذلك، عندما كنا نلعب لعبة الكراسي وكنت أتجشأ مثبتة أني ملأت كرشي. غمرني الشعور بالذنب. انفجرت بالبكاء، حرمت من اللعبة؛ جلست أبكي، واعتبروا ذلك استحواذًا على الكرسي، وذهبت إلى البيت في وقت مبكر.

ولكن تبيَّن لي فيما بعد في نهاية اليوم أنه ما من أحد عرف عما فعلته خلف الأبواب المغلقة، إلا الله. إحدى الآيات المؤثرة فيَّ بشدة عندما يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

يا إلهي كم تصيبني تلك الآية بالرعشة! أفكر في حبلي الوريدي، وكيف

يجمع الدم من مخي، ويجعله يتدفق في عنقي ليتحد مع أوردتي الكبرى الأخرى، وفجأة أدرك كم أنا متأكدة أن الله يراني. أحيانًا يستحوذ عليَّ ذاك الإغراء بالتسلل إلى المطبخ وأكل بسكويتة، أو أخذ جرعة ماء عندما أغرغر فمي. والداي لن يعرفا. صديقاتي لن تلمحا، ولكنني أظن أن الأمر ليس كذلك.

على الرغم من عدم موافقة السيدة «فاسِلي» على صيامي؛ تعتقد أنه مضيعة للوقت لأنني لن أحصل على الخلاص، إلا أنها تصر على زيارتي لها كلما سنحت الفرصة بعد العشاء لتناول الحلويات معها. يبدو أنها أصبحت كثيرًا ما تصنع الكعك الآن. بينما نأتي على كمية من كعك الجبن أحاول التنقيب عن أخبار بشأن وضعها مع ابنها.

ـ الأمور جيدة. تأخز وقتًا. لكنهم بخير.

بطبيعة الحال، أعتبر ذلك دعوة لسؤالها عددًا لا يحصى من الأسئلة:

ـ ماذا قال لك عندما اتصل؟ هل تحدثت مع زوجته؟ متى سيزورك؟

تبتسم بهدوء وتطلب مني تقديم مزيد من الشاي لها:

ـ نبدأ من جديد أمل. يأخز وقتًا... اشربي شايًا زيادة وإلا سيغمى عليك في مدرسة. السنة القادمة جربي الاهتفال بعيد الفسه معي. أفضل لك.

أقول بينما تبتسم لي ابتسامة عريضة:

ـ لا مشكلة سيدة «فاسِلي».

(٤٣)

تقول «سيمون» عندما تقلني من بيتنا للمشي في الحديقة العامة بعد المدرسة:

ـ أعتقد أني سأُجنُّ، تريدين أن تعرفي لماذا؟

ـ قولي.

ـ أظـن... لست متأكدة... أقصد... قد أكون مخطئة... أعرف أني مخطئة... مجرد تخمين..

ـ «سيمون».

ـ حسنٌ، هل تعتقدين أن «جوش» مُعجب... بي؟

ـ واضح!

تتسع عيناها دهشةً:

ـ حقًّا؟

ـ «سيمون»، كفاك التصرُّف كإنسان من العصر الحجري! واضح جدًّا أنه مهتم بك!

ـ حسنٌ، حسنٌ، تحدث مواقف صغيرة ولا أعرف إذا كانت تعني شيئًا؛ لأنني لا أتخيَّل أن يُعجب بي.

ـ يكفي! عندك ورقة وقلم؟

ـ لا، لماذا؟

ـ ابحثي في حقيبتك وسأبحث في حقيبتي. لنجلس هناك على ذلك المقعد.

تنظر إليَّ بارتياب لكنها تتبعني. ننقِّب في حقيبتينا، ونتدبر أمرنا بمحدد شفاه مبري وورقة.

ـ ماذا تفعلين؟

ـ سنكتب كل شيء على الورق. سنضع قائمة بجميع الأشياء التي تقولين إنه يفعلها، والتي يمكن أن تُظهِر أنه معجب بك، وكذلك الأسباب التي تجعلك تعتقدين أنه غير مُعجب.

ـ تعانين من مشاكل ينبغي أن تتعاملي معها.

ـ أعرف، وافقي وحسب وابدئي القائمة.

هذا ما خرجَتْ به:

أسباب إمكانية إعجاب «جوش» بي:

- مجرد مصادفة؟؟؟ مثلًا: يقف إلى جانبي عندما أكون عند خزانتي ويبدأ حديثًا ما، ثم عندما أنتهي من وضع أشيائي في الخزانة ننصرف معًا ونتحدث(؟)

- عندما يحدث شيء مضحك في الصف ينظر ناحيتي وتلتقي عيوننا(؟) ليرى ما إذا كنت أضحك.

- هاتفني عدة مرات. يقول إن الأمر يتعلق بالمدرسة، لكن الحديث عن المدرسة يستغرق دقيقتين وخمس ثوان ثم يغيِّر الموضوع ويتحدث عن كل شيء(؟)
- اليوم الذي قضيناه في «سانت كيلدا». هل تعمَّد الجلوس بقربي عندما كنا على لعبة الأفعوانية؟

أسباب عدم إمكانية إعجاب «جوش» بي:

- لا يمكنني أن أكتب وإلا حاولت أمل أن تلعب دور الدكتور «فِل» معي.

عندما تنتهي تمرِّر لي القائمة:

ـ ما حكاية علامات الاستفهام هذه؟

ـ ما مشكلتها؟!

ـ انسي! طيب، ماذا تقصدين بهذه الملاحظة عن الدكتور «فِل»؟ تعرفين أنه باستطاعتك أن تقولي لي ما تشائين!

تنفجر في نوبة من الضحك:

ـ حقًّا، الآن؟

ـ طيب! على كل حال، بناءً على هذه القائمة ليس هناك ما تقلقين بشأنه. من الواضح أنه مُغرم بك.

ـ تعرفين ماذا قالت لي ماما الليلة الماضية؟ دخلت غرفتي بعد أن أنهيت مكالمة مع «جوش» وعقدت معي جلسة أم وابنتها.

ـ ألا تكرهين ذلك؟

ـ رائع! أخذت تقول إنها سعيدة جدًا أن هناك شابًا بدأ أخيرًا اهتمامًا بي. ثم قالت إنه عليَّ البدء بحمية عاجلة ـ الظاهر أن «لِز هيرلي» تتبع حمية شوربة الجرجير وسمعت ماما أنها خرافية ـ حتى أستطيع التخلص من بعض الكيلو جرامات بسرعة قبل ـ اسمعي هذا ـ أن يفقد اهتمامه!

ـ لِمَ لا تخبريها أنها إذا كانت ترفض أن ترى حقيقتك فما عليها إلا أن تذهب وتتبنَّى عود كرفس وتعتني به ليكون جزرة حتى لا تتدخَّل في حياتك؟!

ـ سأبحث عن مكتب تبنٍّي وأنا في طريقي إلى البيت!

ـ على كل حال، تريدين الذهاب معي إلى البيت الآن؟ نحاول التفكير فيما ستقولين له عندما يطلب منك الخروج معه؟

ـ اعتقدت أنك لن تسأليني أبدًا.

* * *

يصطحبني والداي إلى السينما لقضاء الوقت قبل الإفطار. الغروب الليلة في الثامنة وثلاث وأربعين دقيقة. أتى رمضان مع بداية الصيف ولذلك يطول النهار بطريقة لا ترحم.

حسبنا موعد إفطارنا ويمكننا البدء في الأكل بعد عشرين دقيقة من بدء الفيلم. حسنٌ، بعد ثلاث وعشرين دقيقة لأتوخى الدقة. عندما تصوم.. حتى الدقيقة تهمُّ! شخصيًّا، لا أحس أننا بالغْنا في كمية الطعام التي أحضرناها. وهذا ما يراه بابا أيضًا. تعتقد ماما أن كلينا مجنون. أحضرت ماما كيسًا صغيرًا من الفشار ولفَّتين من «السوشي». إنها مشمئزة قليلًا من مخزوننا: كيس ضخم من الفشار بالزبدة، كيس بطاطس شيبسي بالملح والخل، علبة

«برينجلز»، أربع لفات «سوشي»، شوكولاتة «مالتيزرز» من الحجم الكبير، أعواد عرق السوس، وحلوى الجيلي.

حسنٌ، يمكن النظر إلى ذلك على أنه مثير للغثيان، لكن اليوم كان طويلًا جدًّا. أنام عادةً حتى وقت متأخر من نهار السبت، ثم أقضي اليوم في مشاهدة أفلام «إلفيس بريسلي» القديمة، وأجرب ألوانًا مختلفة من طلاء الأظافر وأنا مرتدية ملابس رياضية وشبشب «ديزني». ولكنني استيقظت في الثامنة هذا الصباح، قرأت جميع دردشاتي مع ليلى التي احتفظتُ بها في «الهوتميل»، مارَّة على جميع الأشياء التي كتبناها بعضنا إلى بعض خلال العام. ثم قضيت ثلاث ساعات على الهاتف مع ياسمين. استمر ذلك حتى الثانية عشرة، مما يعني أنه تبقى لي ثمان ساعات ونصف الساعة حتى وقت الإفطار.

لكن عطلة نهاية الأسبوع سهلة مقارنة بالصيام في المدرسة: بحلول وقت الاستراحة أكون على وشك السقوط في إغماءة. من حسن الحظ أنني لا أشخر لأنني تمكنت من تصيُّد غفوة لدقائق قليلة في بعض الحصص. «سيمون» و«إيلين» متعاونتان معي جدًّا. في استراحة الغداء تجدان زاوية مظللة وهادئة في المدرسة وتتمددان معي لأخذ غفوة كسولة. انضم إلينا آدم و«جوش» أيضًا عدة مرات. الأمر لطيف؛ لأنهم يرفضون الأكل أو الشرب أمامي، حتى لو أخبرتهم أن لا مشكلة لديَّ مطلقًا. في أحد الأيام أخرج آدم لبانًا وراح يوزعه. كان على وشك أن يعرض عليَّ لكنه أدرك أنني صائمة. كان لطيفًا واعتذاريًا جدًّا، حتى إنني أردت أن أقبِّله. ليس حرفيًّا، بالطبع.

على كل حال، أصبحت الساعة الثامنة وثلاث وأربعين دقيقة أخيرًا.

لا أستطيع، في الواقع، أن أخبركم ماذا حدث في الفيلم بعد ذلك، فقد تشتت قليلًا.. وفي العاشرة وخمس دقائق ينتهي الفيلم، وتكتنز معدتي بمؤونة غذاء تكفي ثلاثة أيام تقريبًا، وتنظر إليَّ ماما في ثقة:

ـ قلت لكِ ذلك سيحدث.

إنها العاشرة وأربعون دقيقة ونحن نعود إلى البيت، أتمدد على الأرض في غرفتي باسطة قدمي ورجلي أتفكَّر في دخول إرادي إلى جناح الطوارئ لتعريض معدتي إلى الغسيل، فيرن موبايلي وأسمع صوت ليلى للمرة الأولى منذ شهرين تقريبًا.

ـ أمل هذه أنا!

صوتها هادئ ودقيق جدًّا حتى إنني أجد صعوبة في سماعه، لكنني أتعرَّف عليها على الفور.

ـ يا إلهي! ليلى! أين أنتِ؟

ثم أنفجر بالبكاء، وتنفجر هي بالبكاء، وفي الحقيقة تسألني ما إذا كان مناسبًا لوالديَّ أن تزورني.

تمضي ساعة وأفتح الباب الأمامي لشخص مريض هزيل. وجه ليلى، فعليًّا، غائر: عظام وجنيتها ناتئة، عيناها متسعتان وتبدوان متحجرتين في نظرة خائفة على نحو دائم. تلف بذراعيها حولي وتعانقني بشدة حتى إنني أخاف على جسدها الهش أن ينقصف مثل عود أسنان. ثم تندفع ماما إليها، ونتعانق وننشج حتى يأتي بابا، يغلق الباب، يرشدنا بلطف إلى غرفة المعيشة ويذهب ليعد لنا الشاي.

ـ كيف حال ماما؟

تقول بعد أن نجفِّف وجوهنا ونتكوَّم على الكنبة بصحبة الشاي والساندويتشات. ليلى في الوسط، ذراعي تستريح فوق ذراعها، ماما بقربها تمسك يدها.

تقول ماما:

ـ إنها... في حالة سيئة جيدة!

تغلق ليلى عينيها وتومئ برأسها، ثم تقول ووجها يتغضَّن:

ـ لم أستطع التحمُّل أكثر!

أحضنها بشدة وأتركها تبكي على كتفي. تلتقط أنفاسها أخيرًا وتجفف عينيها:

ـ هذه المرة كان العريس تركيًّا أمريكيًّا. شاب ممتاز. الظاهر أن جدتي وجدته من نفس البلد. ربما بالغت في ردة فعلي بالهروب. لكنني... كنت متعبة جدًّا!

أسألها:

ـ أين أقمتِ؟

ترتعد:

ـ في ملجأ للنساء في المدينة. كان فظيعًا... هناك مَن أوسعهُنَّ رفقاؤهنَّ ضربًا. أو مَن تعرضن للاغتصاب أو التحرش. هناك أمهات مع أطفالهن يختبئن عن شركاء فاسدين. ومراهقات مطرودات من بيوتهن لأنهن حوامل. بعضهن لا يعرفن حتى من يكون آباء أطفالهن. ومدمنات مخدرات متشبِّثات بأطفالهن ومستميتات من أجل الحصول على حقنة مخدِّرة. الوضع... فظيع...

تصمت مدة قصيرة ثم تواصل:

ـ أحس... لا أعرف. أفتقد البيت. أريد أن أشعر بالأمان مرة أخرى. خمسة وتسعون في المائة من وقتي يضيع في نقّ ماما عليَّ بالزواج، بينما يرتكب أخي الأخطاء ويفلت من العقاب، ولكنني كنت مؤمنة جدًّا أنني إذا أنهيت المدرسة الثانوية سيكون لي الحق أن ألتحق بالجامعة، وتكون لي حياة جديدة ومستقلة. كل ما أردته أن أنجح في امتحان شهادة «فكتوريا» في التعليم وحسب! أليس ذلك مضحكًا؟ ستعتقدون أني كنت أتعاطى الهيروين بسبب الطريقة التي تعاملني...

ـ ما الذي حصل ليلة السبت تلك؟

ـ أخذني «حاقان» إلى البيت. طبعًا كان يشتم ويصرخ فيَّ طوال الوقت. كان غاضبًا جدًّا. جلست من دون أن أتفوَّه بكلمة. لم أكن أرغب في احترامه بالرد عليه بأي إجابة وهذا أغاظه أكثر. كل ما استطعت التفكير فيه كم كنت مذعورة وكم كان جنونيًا أن يحدث ما حدث بسبب عشاء عيد ميلاد! بعد ذلك تحوَّل خوفي إلى غضب. عندما وصلنا كان هناك شخص آخر في البيت، جالسًا على الكنبة يشرب الشاي ويتملَّق لوالديَّ. ماما كانت، عمليًّا، ترشيني، بأن قالت إنها ستسامحني على خيانتي لها إذا ما أعطيت هذا الرجل الذي يملك أعماله الخاصة ورأس ماله بالدولار الأمريكي فرصة!

ثم أطلقت ضحكة لم أشعر فيها بأي نوع من الدعابة.

أقول:

ـ أنا آسفة جدًّا ليلى أنني ورطتك! ما كان ينبغي أن نفعل ذلك بك!

تنظر إليَّ بتركيز:

ـ لا أفعل أبدًا شيئًا لا يريحني، لا علاقة لك بهذا ولا ياسمين. لا تزال الليلة رائعة بالنسبة إليَّ.

أومئ برأسي مغالبة دموعي.

تقول ماما بعد هنيهة:

ـ ليلى، أعرف أن هذا قد لا يعني لك كثيرًا الآن، لكن «جولشن» جاءت إلى هنا منذ بضعة أسابيع وحالتها مزرية تمامًا، تتوسل إلينا أن نخبرك أنها آسفة جدًّا ولن تفعل ذلك مرة أخرى أبدًا.

ترفع ناظريها مندهشة:

ـ قالت ذلك؟ إنها آسفة؟

تقول ماما:

ـ نعم، عندما جاءت هنا أول مرة كانت مقتنعة تمامًا أنها محقَّة، وأنها كانت تحاول إنقاذك والاهتمام بمصلحتك، لكنها هذه المرة امرأة أخرى.

تتكئ ليلى على الكرسي وتحدق في السجاد مفكِّرة:

ـ لو كنت أعرف أنها لن تفعل ذلك مرة أخرى لكنت عدت؛ لأعيش تحت سقف يحميني! ولأجل نسبة الخمسة في المائة من اللحظات السعيدة! ولأجل الإحساس أنني لست شخصًا ملقى في الشوارع! لكنت عدت ودرست وحصلت على ما أريد، ثم لن أكون هشة بعد ذلك أبدًا! لكانت أمامي خيارات! هل تعرفان ما أقصد؟

نومئ برأسينا لها.

ـ إذن، كيف لي أن أتأكد؟

تضع ماما ذراعيها حولها:

ـ أظن أنه بإمكانك التأكد... بالطبع، سأزعجها بكلامي أنها تخاطر بفقدانك إذا لم تتغيَّر، لكنك تعنين لها أكثر مما يعني لها أخوك حتى؛ إنها متساهلة معه لأنها فقدت الأمل فيه. أنت ابنتها الوحيدة. عليك أن تكوني قوية كما كنت، وواصلي طمأنتها أنك لن تفقدي هويتك أو أخلاقك بسبب الدراسة.

أضيف:

ـ مستر عزيز يستطيع التدخُّل، مثلما فعل في نهاية الصف العاشر عندما أرادت أن تخرجك من المدرسة.

تهمس مبتسمة:

ـ نعم... أستطيع الاعتماد عليه دائمًا. كان يتصل بها كلما كانت هناك رحلة مدرسية ويخبرها أنه مزَّق ملاحظة رفضها السماح لي بالحضور. تذكرين مخيم الصف التاسع؟

ـ عندما لطختِ وجه «دِلبا» بحلوى الموس وهي نائمة؟ كيف أنسى؟

ـ ما كان لذلك أن يحصل لو لم يقل لها إنه سيتعهَّد شخصيًا بألا ألتقي بأي رجل أو ولد، وبألا أسبِّب العار لنفسي، أو أن أُرى وحدي في الشارع.

تهز ماما رأسها غير مصدقة وتهز ليلى كتفيها:

ـ معك حق، كان هناك يساعدني. هل تعتقدين هذه المرة...؟

أقفز، أمسك التليفون وألقي به بين يدي ماما. تسألها:

ـ ليلى، تريدينني أن أتصل؟

تتوقف ليلى وتفكر:

ـ لا، أنا سأفعل.

تجد ماما لها الرقم وتمسك ليلى بالتليفون، تتنفس بثقل وتعض أظافرها وهي تحدق في الجدار، يتغضَّن وجهها وهي تفكر. تجلس هناك عشرين دقيقة لا تتفوه بكلمة. أريد أن أقول شيئًا، ولكن ماما تمنعني، ونجلس صامتتين محترمتين وقتها. ثم راحت تنعم النظر في التليفون وتدير الرقم، وأعرف أنني أنظر إلى أحد أشجع الأشخاص ممن قابلتهم في حياتي.

* * *

كانت السيدة «فاسِلي» مُحقَّة بالطبع. الحياة ليست كما يحدث في الأفلام. الناس لا يتغيرون بين عشية وضحاها. الناس لا يتحولون من الكِبْر وتزكية الذات إلى الخجل والندم. إنهم لا يعطون فجأة بعد أن يكونوا قد قضوا سنوات يأخذون. «لا» لا تصير «نعم» بطريقة سحرية. إنكِ لا تتحوَّلين هكذا من رغبتك في أن ترمي ابنتك شهادة في الثانوية العامة لتستبدليها بشهادة زواج إلى أن تكوني قائدة للتعليم والاستقلال في «ملبرن» لصالح ابنتك. أظن أن ليلى لا بد قد عرفت ذلك. لذلك توقفت قبل أن تدخل رقم مستر عزيز. إنها تعرف أنه مهما غضب وتوعد (فهو عندما يغضب منك ويزعق يجعلك تتمنين لو كنت مرتدية بامبرز منعًا للإحراج) لا تزال هناك ثمة خفقة من إيمان أن تعتقد بتغير أهلها.

ولكن هذا ما كانت ليلى عليه دومًا: الإيمان؛ الإيمان بأنها ستفعل شيئًا في حياتها، الإيمان بالناس، الإيمان بالله، الإيمان بأنها تعرف مَن تكون وماذا تريد وما هي حقوقها، الإيمان بتلك الأشياء التي تتعامل معها وكأنها حقائق مكتسبة ولا تفكر فيها.

خلال نصف ساعة من اتصال ليلى بمستر عزيز، صار هو عند باب بيتنا. لم أره مرتديًا الجينز من قبل. تلك فكرة أخرى متروكة للبحث. إنه فارس ليلى، ينقصه الدرع اللامع، ولكنه برأس أصلع ولحية بيضاء وأذنين مشعرتين.

يتحدث مع ماما وبابا وليلى، ثم يأخذها إلى البيت في سيارته. إنها الآن الثانية عشرة والنصف منتصف الليل. تتصل بنا في الرابعة صباحًا، وقبل الفجر بست عشرة دقيقة ونصف (تذكروا: كل دقيقة تهم في رمضان). كان مستر عزيز قد غادر بيتهم للتو وليلى تأكل الخبز المحمص مع المربى، وتشرب الكاكاو الذي أعدته لها أمها، وتطمئنني بأن هناك أملًا.

(٤٤)

تصادف امتحانات نهاية العام النصف الثاني من رمضان. ولذلك فإن روتيني المعتاد في الإفراط في تناول الشوكولاتة والبطاطس الشيبسي من أجل تحمُّل معادلات الرياضيات ومقالات التاريخ، ليس خيارًا. ولكن عندما تغرُب الشمس، وأكون قد حشوت معدتي في الإفطار بالدجاج والأرز والمقلوبة والفتوش، عليَّ الضغط على بطانة معدتي حاثة إياها على الانفجار، أمتلئ بالطاقة لمهاجمة كتبي المدرسية. أحس نفسي مثل مصاص دماء يعود إلى الحياة في الظلام. تلك ليست طريقة جيدة للتفكير في تجربة دينية، ولكن هذا ما يفعله الجوع بالعقل.

أحاول حفظ بعض صيغ التفاضل والتكامل عندما تتصل «سيمون». تتمكن من التحدث دقيقة كاملة من دون أن أفهم منها أكثر من ثلاثة في المائة مما تقول.

ـ «سيمون»! رويدك! لا أستطيع فهم ما تقولين! شيء عن «جوش»، اللون الأحمر، وتريدين القفز من فوق برجي «ريالتو»؟ ما الذي يحدث بحق السماء؟

تضحك:

- يا إلهي! أمل! «جوش» وأنا تبادلنا الرسائل النصية طوال الساعة الماضية! بدأنا في أثناء عرض فيلم «الكل يموت» لـ«فز ريموند» واستمر ذلك حتى برنامج «بيج برذر». هذا يعني قرنًا من الزمان! وكنت أرد عليه، حتى صار عدد الرسائل التي تبادلناها أربع عشرة! أَيُعقَل ذلك؟ أقصد، هذا رائع! أليس كذلك؟

- واو! ذلك رهيب! ماذا قال؟

- بدأ بهذه الرسالة على نحوٍ غير متوقَّع: «هل تساءلت يومًا لماذا نقول شققًا سكنية بينما هي ملتصقة بعضها ببعض؟» فأجبته قائلة: «هل تساءلت يومًا لماذا لا نكتب كلمة «اسمعوا» مثلما نسمعها؟» ثم واصلنا تبادل نكت كهذه، تعرفين، أشياء سخيفة من تلك التي تصل عبر الإيميلات المتداولة ونحاول تمريرها وكأننا مَن اخترعها، ثم قال، وهنا أقتبس: «لماذا تبدو شفتاك حمراوين دائمًا؟ هل تضعين أحمر الشفاه كل الوقت؟»

أنفجر ضاحكة:

- هل تمزحين؟ هكذا سألك بكل بساطة؟

- نعم! إنه في الواقع لاحظ شيئًا فيَّ يا أمل! فيَّ! إنه أمر لا يُصدَّق!

- نعم، «سيمون»، إنه مشوَّش ذهنيًا كونه منجذب إليك. هيًّا لنستدعي أطباء الأمراض العقلية.

- على كل حال، لم أعرف كيف أجيب. أصابني الذعر وأنا أحاول التفكير في رد ذكي ولكنه لطيف. وكلما فكرت في الأمر طال الوقت على الرد، وكنت قلقة لأنني قبل هذا كنت أرد فورًا، وفجأة يكون هذا التوقف الطويل

الكبير. ثم خرجت أخيرًا برد عادي جدًّا: «لا، لا أضع أحمر شفاه»، لأن خيالي الإبداعي انتهت صلاحيته عند تلك اللحظة.

ـ وبعد؟

ـ أجاب بسؤاله عمَّا إذا كنت أضع عدسات لاصقة زرقاء!

ـ يا إلهي! إنه مغرم بعينيك!

ـ ولثانية لم أعرف بما أُجيب مرة أخرى، ثم استحوذ عليَّ شيء ما، وفكرت، ليكن، إلى الجحيم، سوف أغازل!

ـ أخيرًا!

ـ لا يأخذكِ الحماس. استمر ذلك ثلاث ثوانٍ.

ـ لا!

تضحك:

ـ أمزح فقط. فقدت حيائي. أجبت: «لا، إنهما عينيَّ، وإذا كنت تتساءل، فوالدي ليس لصًّا».

أتوقف:

ـ هه؟

ـ ألم تفهمي؟

ـ لاااا!

ـ هيَّا! تعرفين تلك العبارة الغزلية: «هل والدك لص؟» لأنه لا بدَّ أنه قد قطف النجوم من السماء ووضعها في عينيك. لا بد أنك تعرفينها.

ـ يا إلهي! طبعًا أعرفها! لكنها لا تلائم السياق! هل فهمها «جوش»؟ بماذا أجاب؟ تلك رسالة نصية انتحارية!

تنفجر ضاحكة:

ـ لا، لم يفهم. ولم يُجبْ أيضًا.

ـ ماذا؟ كان يمكنه التظاهر بالفهم. كيف يتجاهلك هكذا؟ كيف يكون فظًّا هكذا؟

ـ اهدئي أمل! لم يُجبْ لأنه اتصل.

ـ «جوش» اتصل؟

ـ نعم، اتصل ليقول لي إنني رسميًّا كتبت أسوأ رد في رسالة نصية في تاريخ المراهَقَة، وهل أذهب إلى السينما معه ليلة الغد.

ـ أحتاج إلى الأكسجين! ليزودني أحد ما بالأكسجين! لقد كشفت عن نفسك تمامًا وفتى أحلامك يرد بطلبه أن تخرجي معه. يا إلهي! «سيمون»!

ـ أمل، أشعر كأني أطفو في أرجاء غرفتي! لا يبدو الأمر حقيقيًّا! لكنه حقيقي! «جوش جولبرج» يدعوني أنا ـ وليس «تيا» ـ إلى السينما! سيكون موعدي الأول وسيكون مع «جوش»!

* * *

«إيلين» وأنا، نقضي نهار اليوم التالي مع «سيمون»، نفكِّر فيما سترتديه ونصفف لها شعرها ونضع لها المكياج. أنا مسؤولة عن خزانة الملابس، و«إيلين» عن المكياج. شعر «سيمون» حريري ومنساب ولذلك لا يحتاج إلى أن يمر بدراما التجفيف الحراري والتمشيط أو التثبيت.

ـ «إيلين»، لا تدعيني أبدو مثل رجل متنكرٍ على هيئة امرأة! أريد فقط القليل من «الماسكرا» وأحمر الشفاه اللامع.

ـ مظلّل الجفون؟

ـ لا.

ـ أحمر الخدود؟ تعرفين، لإبراز محيط الوجنتين؟

ـ همم.. حسنٌ.

أسألها:

ـ جينز أو بنطال قماش؟

ـ ما يجعلني أبدو أنحف منهما.

ـ ربما بنطال أسود. الجو معتدل جدًّا اليوم، لذلك يمكنك ارتداء هذا القميص الجميل بالفعل ليبرز خصرك.

ـ مستحيل! أريد سترة جينز لتغطي خصري كله.

ـ إنه ليس خليعًا «سيمون». أتعتقدين أنني سأتركك تخرجين بلباس خليع؟ أهلًا! أتنسين أن مَن تختار لك ما ترتدين فتاة هي في الأساس تحتاج إلى وضع كريم واقٍ من الشمس على يديها ووجهها فقط؟

تبتسم «سيمون» ابتسامة عريضة معترفة بالهزيمة.

ـ حسنٌ، حسنٌ. أنا فقط غير معتادة على ارتداء القمصان الضيقة.

ـ ستبدين خرافية، كفاك توترًا.

ـ «سيمون»! توقفي عن التململ! ستتلطخ «الماسكرا».

ـ كعب عالٍ، ولكن ليس عاليًا جدًّا. يبرز الساقين.

ـ اعتقدت أنني سأرتدي البنطال؟

ـ حتى تشعري بالسعادة عندما تعرفين أن ساقيك بارزتان. البسي حسبما تشعرين وحسبما تبدين أيضًا.

ـ أمل، إن لم تخرسي وتوقفي هذا الكلام التافه وتتوقفي عن جعل «سيمون» تتململ وتتلوى على كرسيها، فسألوِّن أنفك بهذه «الماسكرا»!

(٤٥)

أتلقَّى نتائج الامتحانات مع نهاية رمضان وبداية عيد الفطر الذي يستمر ثلاثة أيام.

أحصل على امتياز في نتيجة الامتحانات ويرقص والداي الدبكة حول طاولة الطعام. يرغب بابا أن يصوِّر علاماتي ويعلقها في صورة. عذرًا! ربما في حياة أخرى. أنا متحمسة لكن هناك أشياء تتعدى الابتذال.

يصادف اليوم الأول لعيد الفطر الثلاثاء في الأسبوع الأخير في المدرسة. سُمح لي بعدم الحضور ذلك اليوم. أستيقظ مبكرًا مع ماما وبابا ونصلي الفجر. لا نعود إلى النوم. نقرأ القرآن ساعة ونحن مرتدون مناماتنا، ثم نرقب شروق الشمس من شرفة بيتنا ونحتسي الشاي بالنعناع. أمامنا ساعتان حتى نذهب إلى المسجد لأداء صلاة العيد. لا يوجد مسجد في منطقتنا، ولكن حسبما تسعفني ذاكرتي كنا نذهب إلى ذلك المسجد في «بريستون». إنه أول مسجد في ولاية «فكتوريا»، وقد نشأت وأنا أستمع إلى خُطب الإمام هناك، الذي كان أحد المؤسسين الأصليين للمسجد. إنه الإمام المفضل عندي دائمًا. له أكثر شخصية مسالمة ولطيفة وحس بارع في الدعابة. كلما أستمع إليه، ترتفع معنوياتي وأحس بالإلهام.

تعدُّ ماما فطورًا ضخمًا لنا بينما ينطلق بابا إلى شراء الخبز الطازج. ثم نجلس ونلتهم الفلافل والبيض المقلي واللحم المفروم مع الحمص. بعد شهر من تناول الطعام بعد الغروب، يبدو غريبًا أن نتناول الفطور مرة أخرى. دائمًا ما أشعر بالحزن والحنين عند تناول الفطور صبيحة عيد الفطر. صحيح أن رمضان قاسٍ، ولكنني، بصدق، أحب أجواءه كلها.

إننا نتأخر على الصلاة، لأنني أستغرق وقتًا حتى أستعد. قمت بكي حجابي لكنه صار متجعدًا، ولم يتعدَّل شكله، وأصابني الصداع النصفي حتى وجدت ماما بخَّاخًا مُضادًّا للتجعد، وحلَّت المشكلة الطارئة قبل أن أرتكب جريمة «هاري كاري»(*) بالدبوس.

بابا يقود السيارة الآن كالمجنون وهو يحاول إيجاد موقف في الشارع حيث يقع المسجد. ماما تعطيه محاضرة عن السرعة، وعن خطأ معارضة قوانين المرور، وعن تعريض حياة الآخرين للخطر، وهل يفكر حقًّا أن بمقدوره مواجهة ربه بعد تجاهل المعبر المخطط بعد الملف؟

بطريقة مرعبة يتمكن بابا أخيرًا من ركن السيارة بين سيارتين تحاذيان حافة الرصيف، ثم ننطلق بخطى سريعة نحو المسجد، يوقفنا الأصدقاء كل خمسة أمتار ويطوقوننا في عناقات وترحيبات ضخمة و«كل عام وأنتم بخير»، أو التهنئة المختصرة «عيد سعيد» (هذا بالنسبة إلى المسلمين المولودين في أستراليا مثلي الذين لا يجيدون النطق بالعربية، حفظًا لماء الوجه).

بابا يقبِّل كلتينا وينضم إلى الرجال، وماما وأنا إلى النساء. نفترش السجاد،

(*) أحد طقوس انتحار المقاتلين على الطريقة اليابانية ليموتوا بشرف ولا يقعون في يد العدو، حيث يعيِّن المقاتل أحد المقربين ليقطع رأسه، أو يبقر بطنه بنفسه. (م).

وتمشي النساء حاملات دلاء التبرعات بين الصفوف الجالسة. بعد تحمل شهر من التذكير بمعنى الجوع والعطش، يسارع الجميع إلى فتح حقائبه.

رأيت ليلى وأمها في الصف الأوسط، فذهبت أنا وماما وجلسنا بقربهما. إنها المرة الأولى التي نرى فيها أم ليلى منذ أن جاءت إلى بيتنا.

أعرف أن الناس لا يتغيرون بين ليلة وضحاها. أعرف أن فصل ما نشأت عليه عن مَن تكونين مثل محاولة فصل الطحين عن الزبدة في كعكة. ولكن هناك ثمة شيء مختلف في أم ليلى اليوم: عندما تراني تعانقني بحرارة وتقبلني على خدي قائلة: «عيد مبارك».

ثم نبدأ في الاصطفاف في صفوف لأداء صلاة العيد؛ حيث نشكر الله على الطعام بعد شهر من الصيام، وندعو لأجل الجوعى. إنه تذكير جميل ملازِم للمرء؛ بأن الوقت قد حان للخشوع إلى الله، وتصيبني القشعريرة وأنا أستمع إلى ذلك.

ألقي نظرة على ليلى وأمها وأعرف أنهما يشعران بنفس الإحساس.

كل ما قلته في البداية، بشأن لا مبالاتي بالبثور وشكل جسمي... إلخ، كله كلام فارغ بالبنط العريض. أستيقظ هذا الصباح، آخر يوم في المدرسة، ببثرة ممتلئة بالصديد بحجم كرة جولف في أسوأ بقعة جغرافية ممكنة: أسفل فتحة أنفي اليمنى. وبناء على ذلك، أبدو وكأن هناك قطعة مخاط تتدلى من أنفي. تدخل ماما تمامًا عندما أبدأ في فقء البثرة، وتبدأ في إعطائي محاضرة عن ندوب الوجه، وترك البثرة حتى تجف في وقتها. أصرخ في وجهها أنها: ١ ـ تدمر حياتي. ٢ ـ غير منسجمة أبدًا مع عالم المراهقين. ٣ ـ من الواضح أنها تجعل مني منبوذة اجتماعيًّا فيما تبقى من حياتي المدرسية. تهز كتفيها ولسان حالها يقول: كيف أتصرف مع ابنتي

الجاهلة الفظة. وتخرج مندفعة من الحمام تاركةً إياي في سلام لأواصل عملية إزالة البثرة.

أقصد، على من تضحك هي؟ نظريًا، أعتقد أنني الآن أحمل وعيًا كبيرًا بشخصيتي. وإن يكن، لست راغبة بارتكاب فضيحة اجتماعية بالخروج من البيت، في آخر يوم لي في الصف الحادي عشر، وعلى وجهي بثرة تشبه مخاطًا ملتصقًا بأنفي، ليكتب عنها جميع سكان المدرسة في الكتاب المدرسي السنوي.

باءت كل جهودي بالفشل. في حجرة اللقاء المدرسية أحصل على الملاحظات التالية: تحتاجين إلى منديل. عندما تطلقين عطسة من الجيد أن تمسحي أنفك رجاءً. أوه! نحتاج لوضع إريال لذلك الشيء، هل من اسم له؟

الملاحظتان الأخيرتان من آدم. أُقطِّب ما بين حاجبيَّ وأنفخ له قبلة في الهواء. لم يتمالك نفسه من الابتسام. هذه اللحظة تستحق أغنية خاصة بصدق.

في استراحة الغداء، نشرع أنا وآدم و«إيلين» باستجواب «سيمون» و«جوش» بشأن موعدهما، لكن كليهما يتورد خجلًا ويقهقه ويدخلان حالة: «لنحدق بعضنا في عيني بعض». تخبرنا «سيمون» شيئًا فيما بين الحصص، أنها أوقفت التدخين. «جوش» يكره الرائحة عليها. وأدركَ أيضًا لماذا تفعل ذلك عندما أخذها لتناول البيتزا بعد الفيلم وأرادت أن تدخِّن لتتجنب تناول الخبز بالثوم. يبدو أنه جُنَّ جنونه وقضى باقي الليلة يقول لها كم تبدو فاتنة كما هي. «إيلين» وأنا على وشك القيام بحركات بهلوانية حول الخزانات المدرسية.

إذن، «جوش» و«سيمون» رفيقان الآن، وبقدر ما «إيلين» وأنا فرحتين

لأجلهما هما غارقان في عالمِهما، وما من تأشيرتي دخول لنا في هذه المرحلة الطازجة. بالنسبة إلينا نحن، العازبتين الجميلتين (تقدير الذات يبدأ من الداخل)، نقضي ما تبقى من استراحة الغداء نصيح في آدم أن يتوقف عن تصويرنا بـ«موبايله». حتى الآن، أخذ ثلاث صور لبثرتي، وبضع صور لرموش «إيلين»، وواحدة لأسنانه (هناك قطعة خس صغيرة عالقة ولم يصدقنا، ولذا قلنا له أن يأخذ صورة ويرى بنفسه). أداة فعَّالة عندما لا تتوفر لديك مرآة.

في أثناء اليوم تقترب مني مس «والش» وتهنئني تهنئة متأخرة على حصولي على جائزة أفضل متحدث. حسنٌ، إذن أنا في أعماقي مجرد واحدة حمقاء، تتوق إلى نيل استحسان المديرة العظيمة الشأن، لأن معدتي، لسبب ما، صارت حارَّة ودافئة. تقول:

ـ لقد جعلت هذه المؤسسة التعليمية فخرًا!

أقول بإصرار وهدوء:

ـ حسنٌ، لا يمكنك التنبؤ فعلًا بِمَا يمكن أن يحدث لشخص إذا وضع في مؤسسة تعليمية.

لثانية، تنظر إليَّ بارتياب، لكنها بعد ذلك تفعل شيئًا لم أرها تفعله من قبل: تبتسم لي ابتسامة صادقة ودافئة، وتقول:

ـ لطالما كان الدفاع نقطتك الجيدة، استمتعي بإجازتك يا أمل!

أظل واقفة في نشوة من الذهول.

بعد المدرسة، نذهب جميعًا إلى مركز «تايمزون» في المدينة وننفق ما ادخرناه من مصروف شهر محاولين أن نهزم بعضنا بعضًا في لعبة «دايتونا».

يبدو أننا نعيش أسعد الأوقات، على الرغم من أن «سيمون» لا تزال تقرأ عن الحمية في المجلات، وعلى الرغم من أنني أكون شديدة الارتياب ومفرطة الحساسية بشأن ردة فعل الآخرين تجاه حجابي، وعلى الرغم من أن أخا ليلى بغيض وأنها عاشت فترة صعبة. ثمة لحظات تفوز بها في حياتك وحسب، عندما لا تأبه بـ«على الرغم من»!

تبدلت الأمور إلى الأفضل بالنسبة إلى ليلى؛ سُمح لها بالخروج معنا الآن وأمها تهدأ شيئًا فشيئًا. لقد بدأت تظهر اهتمامًا أيضًا بما تتعلمه ليلى في المدرسة. أحضرت ليلى إلى البيت إنتاج «بي بي سي» من فيلم «برايد آند بريجيدس» (الكبرياء والتحيز) خاص بواجب لمادة اللغة الإنجليزية، وشاهدته أمها معها. يبدو أنها كانت متأثرة جدًّا بمهارات مس «بينيت» في صنع الزيجات.

أتطلع إلى الإجازة. أتطلع إلى نهارات الصيف ولياليه مع «سيمون» و«إيلين». أتطلع إلى أحاديثي مع آدم. أتطلع إلى زيارة السيدة «فاسِلي» ومراقبة عينيها ترقصان رقصة «الرومبا» و«السالسا» وهي تحكي لي آخر الأخبار عن ابنها. أتطلع إلى مراقبة «جوش» مفتونًا بـ«سيمون» وهي تدخل الصف. أتطلع إلى الولائم مع خالتي «كساندرا» وعمي طارق، لليالي مشاهدة أفلام الـ«دي في دي» التي عفا عليها الزمن مع والديَّ، والحلم والضحك والخروج والنمِّ مع ليلى وياسمين.

قد يظن بعض الناس أن هذا من مفارقات الحياة، لكنني عندما أفكر في الأمر، أجد، في الدرجة الأولى، أن المهاجرين في حياتي هم مَن ألهمني لأفهم ماذا يعني أن أكون أسترالية، أن أكون أسترالية ذات أصول أجنبية.

«الوجز»، «رؤوس البامبرز»، «الأجانب»، «الأشخاص ذوو السحنة

الشرق أوسطية»، «الآسيويون»، «النساء المقموعات»، «اليونانية الأرثوذكسية المتقاعدة التي تدخن بلا انقطاع»، «آكلو السلامي»، «الاثنيون»، «المنغلقون والمتعلمون»، والذين يريدون أن يكونوا «أستراليين حقيقيين»، المديرة ذات الأذنين المشعرتين، هم مَن علموني أنني ذاتَ صفات متنوعة. إن حكاياتهم وتحدياتهم وآلامهم وأفراحهم هي التي مكنتني من فهم ذاتي، ودفعتني إلى معانقة هويتي كفتاة أسترالية ـ فلسطينية ـ مُسلمة.

على أيّة حال، انتهيت من مسألة الهوية. الفصل القادم في حياتي لن يتطرق كثيرًا إلى ذكر هذه الكلمة. عوضًا عن ذلك، قررت أن أكتب قائمة جديدة. انتهيت من قائمة «أرتدي أو لا أرتدي». لديَّ الآن قائمة «أتجه إلى المحكمة أو أعمل في مختبر». سأكون تقليدية جدًّا الآن وأقتبس العبارة من صاحبها «شيكسبير»: «أكون أو لا أكون».

ولكن تعرفون ماذا؟ هذه المرَّة لا أحتاج إلى قائمة. ولا أحتاج إلى أن أفكر حتى، لأن ثمة شيئًا يخبرني أنني عرفت أيَّ الجانبيْن سيكسب في هذه القائمة!

مكتبة أحمد
telegram @ktabpdf
تابعونا على فيسبوك جديد الكتب والروايات

عن المؤلفة

ولِدت رندة عبد الفتاح في أستراليا لأب فلسطيني وأم مصرية. رندة، مثل بطلة روايتها، تناضل من أجل هُويتها المتعددة كمصرية فلسطينية مسلمة أسترالية المولِد.

نشأت رندة في «مِلبرن»، لكنها تعيش الآن في «سيدني»؛ حيث تمارس نشاطها في جمعية الأديان. وهي عضو في الحملات الفلسطينية لحقوق الإنسان، وفي المجلس العربي الأسترالي. تحب السفر إلى مصر وفلسطين، ومُدلَّلة من قِبل أقاربها. كما تحب القراءة ومشاهدة الأفلام الرومانسية الكوميدية، وحِس الدُّعابة الذي يتمتع به زوجها. وتحب أيضًا الحصول على مقعد في القطار، وأي فيلم يؤدي بطولته الممثل «كولِن فيرث».

تقول: «أردت أن أكتب كتابًا يتيح للقرَّاء الدخول إلى عالم فتاةٍ مُراهقةٍ، عاديَّة ومُسلمة، والتفكير في عناوين الأخبار والآراء الجاهزة؛ حتى يدركوا أنها تمرُّ بنفس دراما وتحديات مرحلة المراهقة التي يمرُّ بها أقرانها غير المسلمين، ولكي يقهقهوا في أثناء القراءة».

عن المترجمة

زوينة آل تويَّة؛ كاتبة ومُترجمة من سلطنة عُمان. تخرَّجت في جامعة «إدنبرة» في اسكتلندا بدرجة الماجستير في دراسات الترجمة. صدرت لها مجموعة قصصية بعنوان «المرأة الواقفة تجلس» عام ٢٠٠٥ في مسقط. صدرت ترجمتها لكتاب «دليل مشاهدة الطيور في عُمان» عام ٢٠٠٣ في مسقط. وفي عام ٢٠١٠ صدر لها كتاب مُترجم بعنوان «بارتلبي النسَّاخ» للكاتب «هيرمان ملفل».

«إحدى الروايات المتميزة للشباب»

صحيفة التايمز، المملكة المتحدة

«عمل لمّاح وحسّاس»

مجلة بيبول، الولايات المتحدة

«هذا العمل طريف ومؤثر وعصري. سوف يشد انتباه الشباب في كل مكان»

مجلة بوك ليست، المملكة المتحدة

«رواية ساخرة وإيجابية»

صحيفة الديلي تيليجراف، المملكة المتحدة

أمل عبد الحكيم ذات السبعة عشر ربيعًا هي فتاة أسترالية - فلسطينية مُسلمة، تحاول أن تتعايش مع هواياتها المختلفة. إنَّ المراهِقة العادية تواجه ما يكفيها من مصاعب؛ لكي تكون محبوبة في المدرسة. يكفي الفشل في مجاراة أحدث الصيحات لتصبح منبوذة. فما بالكم بالمتاعب التي يمكن أن تواجهها أمل إذا كانت ترتدي حجابًا وتتحدث عن التجارب العاطفية في مدرسة بأستراليا؟ لحُسن الحظ فإن صديقاتها يقفن بجوارها على الرغم من أن لديهن مشاكلهن الشخصية؛ فـ«سيمون» الشقراء الجذّابة تعاني من زيادة في الوزن، وليس لديها ثقة في نفسها. أما ليلى فهي ذكية، وقد يكون لها مستقبل باهر، ولكن للأسف فإن والديها يهتمّان بقسيمة زواجها أكثر من شهادة تخرُّجها.. لعل مشاكل أمل ليست بالسوء الذي تظنه.

وِلدت رندة عبد الفتاح في أستراليا لأب فلسطيني وأم مصرية. وتعيش في «سيدني» مع أُسرتها، حيث تعمل بالمحاماة. وقد حظي كتاباها «عشرة أشياء أكرهها في نفسي» و«حينما كان للشوارع أسماء» على تقدير كبير من القرّاء والصحافة. ونُشرت كتبها في أكثر من خمس وثلاثين دولة. وتعتبر من أهم كُتاب أدب النشء والشباب ومن أكثرهم نجاحًا.

مكتبة ٣١٥